

بسم الله وبعد: تم الرفع بحمد الله من طرف بن عيسى ق متخرج من جامعة المدية سنة 2007

للتواصل وطلب المذكرات :

بريدي الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

MSN : benaissa.inf@hotmail.com

Skype :benaissa20082

هاتف : 0771087969

دعوة صالحة بظهر الغيب....

ا مهورية ا زائرية الد قراطية الشعبية
جامعة الجزائر المركزية
معهد علم الإجتماع
بوزريعة

رسالة ماجستير بعنوان

روافد الوعي الجمعي الإسرائيلي وأثرها على تشكيل صورة الآخر

بإشراف الأستاذ: عبد الرحمن بوزيده
إعداد الطـ ـ ـالب: عدلي شعبان صادق

ماي 2004

الباب الأول:
الروافد الدينية
لمعرفة المجتمع الإسرائيلي بالآخر

الفصل الأول:
الآخر الديانة اليهودية

تقوم فكرة السلام، أو التسوية، على مفهوم تـشاركي، لأن هـذا الهـدف يتـضمن بالضرورة، علاقة بين طرفين أو أكثر، وبالتالي تمثل فكرة السلام، حالة انتقال مـن صراع أو نزاع ـ حرب ـ إلى حالة مصالحة ـ سلم ـ وهذا لا يتم إلا بـاعتراف كل من الطرفين المتصارعين بالآخر، كحالة اعتبارية حقوقية، واضـحة، لا يجـوز تغييبها بذريعة الاختلال في موازين القوى القائمة، لأن تلـك المـوازين، إن كانـت تستطيع أن تقضي على الأخر، فإنها لن تستطيع أن تصنع سلاما معه!

ويبرز دور هذه الحالة الاعتبارية، كطرف ندّي ضروري، في التفاوض مـن أجـل صنع السلام، لأن أي انتقاص في النظرة الحقوقية لهذا الآخر تُفرغُ العملية التفاوضية من مضامينها، وتجعلها أقرب إلى حوار الذات (مونولوج). وهذا ما أكد عليه المحلل الاستراتيجي الإسرائيلي، زئيف شيف، حين قال:" إن على إسرائيل أن تعيد صـياغة خطوطها الحمراء، بما يتناسب والخطوط الحمـراء لـدى الطـرف الآخـر، وهـو الفلسطينيون بالطبع"(1).

هذا الموضوع، يعتبر أحد إشكاليات السياسة فـي إسـرائيل، انطلاقـاً مـن جـذر أيديولوجي، يعزز شطب هذا الآخر. جذر يمكن قراءته في أسطورة العبوديـة فـي مصر، أو في أساطير السبي البابلي، التي أعادت إنتاج النص التوراتي، بما يُعزز هذا التناقض مع الآخر. ولكن برز في الآونة الأخيرة، اعتبار آخر تكتيكـي، مـؤداه أن الخلل في موازين القوى، يكون كافياً لفرض الـشروط المجحفـة، علـى الطـرف الأضعف. وكانت إسرائيل بحاجة الى تجربتي الإنتفاضة الأولى و الثانيـة، وبينهمـا

الانسحاب من لبنان، ليكتشف بعض قادتها وأغلب المراقبين، أن القوة العسكرية غير كافية لحل كل شيء. فقد كان ذلك ممكناً في المستوى التكتيكي، لكن إسـرائيل تبـدو الآن أعجز من أن تتحرر من سطوة الأيديولوجيا، ومن هيمنة النص التوراتي.

مفهوم "الغوييم"

"الغوييم" لفظه عبرية معناها: الأغيار. وهي تشير الى الأمم أو الشعوب الأخـرى، من غير بني إسرائيل، ثم أصبحت دلالتها تشمل كل مـن هـو غيـر يهـودي. لأن اليهودي حسب الشريعة، ينتمي الى "شعب ا المختار" والإشكالية تنبـع مـن هـذا الاختيار بالذات، لأنه اختيار الإله - في عقيدتهم - وبالتالي أعطى هـذا الاختيـار للشعب اليهودي، أو لبني إسرائيل، فضلاً وامتيازاً على الشعوب والأمـم الأخـرى، يصل الى حد القداسة "لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" سفر التثنية (14/2). و"على اليهودي أن يشكر الرب في صلواته على هذا الاختيار، لأنه ينطـوي علـى علاقـة خاصة مع الرب، تعطيه قداسة وتميزاً" فـ "كل اليهود مقدسون.. كل اليهود أمراء.. لم تُخلق الدنيا إلا لجماعة إسرائيل.. لا يُدعى أبناء الإله إلا جماعة إسرائيل" كما جاء في التلمود.

ويؤكد الباحث د. عبد الوهاب المسيري، على فكرة التقـديس قـائلاً: "ولقـد عززت أسطورة الشعب المختار، من النزعة المسيحانية في الفكر الديني اليهـودي، فكل عضو في أمة الكهنة والقديسين، هو تجسيد حي للإله، وصوته من صوت هـذا الإله، أي أنه نبي أو شبه نبي بالضرورة، وقد عززت فكرة الاختيار أيضاً، الإحساس الزائف لأعضاء الجماعة اليهودية، بوجودهم خارج التاريخ، وبأن القوانين التاريخية التي تسري على الجميع لا تسري عليهم".(2)

ويلاحظ الدارسون للفكر التوراتي، ارتباط الاختيار بفكرة العهد، أو الميثـاق الذي قطعه الإله على نفسه مراراً، لشعب إسرائيل "وقال الرب لموسى إذهب. إصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حَلفتُ لإبراهيم

وإسحق ويعقوب، قائلاً لنسلك أعطها". سفر الخروج (33/1). بدأ العهد مع إبراهيم. وإسحق، ويعقوب من نسله، وصولاً إلى موسى في سيناء، وعبره إلى بني إسـرائيل، حين قال يهواه لموسى:" فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي، تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض. وأنتم تكوّنون لي مملكـة كهنـة وأمـة مقدسة. هذه هي الكلمات التي تكلم بها بنـي إسـرائيل" سـفر الخـروج(6-19/5).
"وأعدّك الرب اليوم، لأن تكون له شعباً خاصاً. كما قال اك، وتحفظ جميع وصـاياه. وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها، في الثناء والإسـم والبهـاء، وأن تكوّن شعباً مقدساً للرب إلهك كما قال.." سفر الثنية (19-27/18).
وبالعودة إلى سلسلة اشتقاق المفاهيم، التي بدأناها من "الغوييم" إلى شعب ا المختار، وصولاً إلى "العهد" أو "الميثاق" وحين نعكس اتجاه السلسلة، نلاحظ أن "العهـد" هـو الذي حدد مفهوم الاختيار، وأن مفهوم الاختيار قد أفرز نقيضه، أي الشعوب والأمـم الباقية بعد الاختيار، التي دعيت أغياراً أو "غوييم". وبالتالي فـ "الغوييم" ليسوا هـم غير اليهود فقط، ولكنهم النقيض أيضاً. فمقابل القداسة نجد النجاسة والدنس، وكل ما هو سوء "ولا تدخل رجساً إلى بيتك، لئلا تكون محرماً مثله، تستقبحه وتكرهه لأنـه محرم" سفر التثنية (7/26). حتى أن بعضاً من اليهود يُسمي كل ذَكَرٍ غيـر يهـودي "شيكتس" أي "حيوان قذر" باللغة اليديشية، وتعني أيضاً "رجس" بالعبرية، بينما تُدعى الأنثى، غير اليهودية "الشيكا" للدلالة على عدم الطهارة أو النجاسة، وهي تعادل فـي الثقافة الشفاهية لليهود "الغول" أو حيوان قذر مخيف، يختطف أولاد اليهود.
فهذه النظرة الدونية إلى غير اليهود والتي تساوي بينهم وبين الحيوانات، تتأكـد فـي مفهوم التسخير، لأن الشريعة اليهودية لا تعترف لهم بخُلقٍ أو بحـق، بـل تعـاملهم كالبهائم. وقد سخرّها الإله لخدمة بني إسرائيل. ولعل هذا على النقيض تمامـاً، مـن مفهوم السخرة في النص القرآني، إذ نقرأ "والذي خلق الأزواج كلها، وجعل لكم مـن الفلك والأنعام ما تركبون.. لتستووا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم، إذا اسـتويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" سورة الزخـرف (13-

12).

وفي سورة إبراهيم من القرآن الكريم، هناك أوسع استخدام للفظ السخرة، لكنها دائمـاً للأشياء والحيوان "وسخر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسـخر لكـم الأنهـار" و"سخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار" سورة إبراهيم (33-32). فالسخرة، في عقيدة المسلمين، لا تكون للأقوام أو للإنسان، بينما في التـوراة نجـد تسخيراً لكل الشعوب والأمم، التي لم يخيرها يهوه. بل إن "النبي إشعيا" يتفـنن فـي إذلال هذه الأمم والشعوب، إذ يقول: "..ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك، فتعلم أني أنا الرب الذي لا يخزي منتظروه" أشعيا (49/23). ويتابع هذا النبي" ويقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حراثيكم وكرّاميكم (أي المعتنين بالكروم) أما أنتم فتدعون كهنـة الرب، تسمون خدام إلهنا، تأكلون ثروة الأمم وعلى مجـدهم تتـآمرون" أشـعيا(6-61/5).

نلاحظ هذا التبسيط في الأيديولوجيا الدينية: بنو إسرائيل شعب ا المختار. الرب هو الذي حل بهم واختارهم. بالمقابل كل الأمـم الأخـرى وشـعوب الأرض تخـدمهم، ويأكلون ثروات الأمم ويتآمرون عليها، لكن مع تعمق الاتجاه الحلولي سـقط الـشق الأول من المعادلة، فاليهودي حتى لو لم يخدم ا ، أو عصاه يبقـى مـن شـعب ا المختار. وكل تاريخ بني إسرائيل هو عملياً معصيتهم للإله الذي اختارهم. لكن هـذا الاختيار طالما أنه من الإله فهو ملزم له، بشفاعة أنبيائهم في البداية، ثم بقوة اللاهوت فيما بعد، فالإله الذي اختار شعبه سيُبقي حظوتهم على الأمم الأخرى قائمـة، بحكـم الميثاق أو العهد الذي قطعه الإله لهم، لأنه "كإله" لا يستطيع التحلل من ميثاقه مهمـا فعلوا، ولذلك يردد اليهودي في دعائه اليومي، حمداً للإله الذي خلقه يهودياً، ولـيس من الأغيار، والذي خلقه رجلاً وليس امرأة.

بناءً على المقدمات السابقة، يكون من البديهي عدم اعتراف الشريعة اليهودية، بـأي تزاوج مع الأغيار. وفي سفر التثنية (4-7/2). يحظر التـزاوج مـع أبنـاء الأمـم

الكنعانية السبع لأنهم وثنيون، لكن تفسير الكهنة اللاحق، شمل كل الأمم بهذا الحظر، بمن فيهم أبناء الديانات التوحيدية لاحقاً. وأصبح موضوع التزاوج من الأغيار، فـي الثقافة الشفاهية لليهود، ذا دلالة أسوأ من الزنى، إذا يُطلق عليه تعبير "هولوكوسـت صامت" أي إبادة صامتة!

ويبرر النص التوراتي هذا التزمت، بالحرص على نقاء الدين في مواجهـة الأديـان الأخرى. فحين عاد عزرا من بابل لبناء الهيكل، ساءه أن يرى اليهود وقد تزوجوا من بنات الشعوب المجاورة، أو المختلطة معهم، فأمرهم بطرد كل النساء، مع الأطفـال الذين ولدوا لهن " فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا، أن نُخرج كل النـساء والـذين ولـدوا منهن، حسب مشورة سيدي والذين يخشون وصية إلهنا وليعمل حسب الشريعة" عزرا (3-10).

ويشير الباحث والمفكر روجيه غارودي، إلى ملاحظة مهمة، فيقول في أحد هوامشه: "من الطريف أن نلاحظ هنا، بأنه تبعاً لقانون التأسيس لدولة إسرائيل الحالية، الذي لا يعترف بيهودية شخص ما لم تكن أمه يهودية، أو أن يكون الحاخام المخـتص، قـد وافق على اعتناقه الدين اليهودي. فالملك سليمان، لا يعتبر يهـودي ولا يحـق لـه الاستفادة من "قانون العودة" وذلك أولاً لأن أمه ليست يهودية، بل حيثية، وثانياً لأنه ما من حاخام مختص يقبل اعتناقه الدين، كونه أقام في مدينة القدس، معابد لآلهة عشيقاته المصريات والأدوميات والمؤابيات ..الخ. وكذلك الحال بالنسبة لشاؤول، المولود من أم كنعانية، وأيضاً داوود، إذ أن جدته الأولى"روث" كانت مؤآبية"(3)

ولا يكتفي النص التوراتي، بتحريم الزواج من غير بنات إسرائيل. بل يحذر اليهـود من مخالطة شعوب الأرض "ولكن إذا أرجعتم ولصقتهم ببقية هؤلاء الشعوب، أولئـك الباقين معكم، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم (دخلوا) إليكم. فاعلموا يقيناً، أن الرب إلهكم، لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم، فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم، وشوكاً في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة، التي أعطاكم إياها الرب إلهكم" سفر يشوع (13-23/12).

وجرى لاحقاً، توسيع الحظر اليهودي تجاه الأغيار، من فرضية الزواج إلى الطعام أو المؤاكلة. فلا يجوز لليهودي أن يأكل من طعام غير اليهودي، أو حتى طعاماً طبخـة شخص غير يهودي، حتى ولو كان مطبوخاً على الطريقة اليهودية. كما لا يجوز أن يأكل من قدرٍ لشخص غير يهودي.

كذلك اعتبرت شهادة غير اليهودي، مرفوضة لأنه "كاذب بطبعه" حسب اعتقادهم، ولا يجوز مشاركة غير اليهود في أعيادهم، كما لا يجوز إقراض غيـر اليهـود، قبـل أعيادهم بثلاثة أيام، من باب التضييق عليهم. ولا يجوز كذلك مساكنتهم أو المـرور بدور عبادتهم، وكتب المسيري:"وقد تحول هذا الرفض إلى عدوانية واضـحة، فـي التلمود والذي يدعو دعوة صريحة في بعض أجزائه المتناقضة، إلى قتـل الغريـب، حتى ولو كان من أحسن الناس خلقاً".(4)

بينما قارن ذلك بقول المسيح "وإن سمع أحد كلامي، ولم يؤمن، فأنا لا أدينه. لأني لم آت لأدين، بل لأخاص العالم" إنجيل يوحنا (12/47). ونلاحظ هنا، فكرة الخـلاص المسيحي، مقابل الاختيار التوراتي، أو مقابل ما جاء في القرآن الكريم "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكـرمكم عنـد ا أتقاكم إن ا عليم خبير" الحجرات(13) حيث نجد أن الاختلاف من طبيعة الأشـياء كما أرادها الخالق وأن التفضيل يكون بالتقوى فقط.

وبالمقارنة نجد أن النص التوراتي خاطب بني إسرائيل، أما المسيح فقد خاطب العالم فيما خاطب القرآن الناس. وفي وعد الإله لإبراهيم، أن يورث نـسله أرض كنعـان (فلسطين) نكتشف إرادة ملكية أو إلهية، بينما تغيب مصالح وحقوق الـشعوب التـي سكنت أرض كنعان (فلسطين) لأنهم من الأغيار الذين أحل الإله لبني إسـرائيل كـل حيواتهم وأموالهم وأجاز لليهود أن يتآمروا عليهم، وأن يسخروهم لخدمتهم. ونلاحـظ أن فكرة الوعد الإلهي، فكرة ميتافيزيقية، لا جذر واقعي أو حقوقي لها، ومع ذلك تبقى للفكرة قوة الفعل في الواقع، وفي البنى الحقوقية. إن هذا هو ـ بالضبط ـ ما عبرت عنه دولة إسرائيل، بانتقالها من مشروع حلم، إلى دولة ذات صفة اعتبارية وحقوقية.

بل هي من القوة بحيث تتجاوز ولا تعترف بالبنى الاعتبارية والحقوقية للشعوب الأخرى.

فالمشروع الصهيوني، انطلاقاً من الوعد التوراتي، أقام دولة إسرائيل. ورغم أنه بالأساس مشروع علماني، ذو مصالح غير لاهوتية، بل دخل في تناقض مع اللاهوت اليهودي، كما سنرى لاحقاً، فإنه اتكأ على مقومات هذا اللاهوت لتشكيل دافع أيديولوجي، لحث البسطاء على تحقيق الوعد الإلهي من جهة، واستيطان فلسطين، لإقامة حدود الشريعة فيها، من جهة أخرى، وفي هذا الهدف جرى إباحة أرض فلسطين للمستوطنين.

كما أباحت الأيديولوجيا، قتل الفلسطينيين والاستيلاء على أرضهم، أو تهجيرهم منها، ليس لأنهم فلسطينيون بل لكونهم "غوييم". وتابعت إسرائيل سياسة الفصل بين اليهود، ومن تبقى من الفلسطينيين داخل دولة إسرائيل، إذ أوجدت مفهوم العمل اليهودي، والمنظمات اليهودية، والاستيطان اليهودي، وحق العودة لليهود، والفصل في التعليم بين اليهود و"الغوييم"، والتمييز في سائر قطاعات الخدمات أيضاً!

وفي إسرائيل، هناك قانون يحظر تأجير الأراضي الموصوفة بأنها يهودية، لغير اليهود. كما أقر مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر، الذي عقد في القدس عام 1974 بحضور اسحق رابين (رئيس حكومة إسرائيل آنذاك) ضرورة منع "قيام الطبيب اليهودي، بمساعدة المرأة غير اليهودية على الحمل".

ولم يأنف إيهود باراك، الذي فاز في انتخابات رئاسة الحكومة، تحت لافتة السلام، من المناداة - بعد تفجر الإنتفاضة على إثر تمسكه بالاحتلال في مؤتمر "كامب ديفيد" في جوليه من العام 2000 - بالفصل التام بين اليهود والفلسطينيين، في كل المسائل الخدماتية والاقتصادية والحياتية. وهذا ما يشكل أحد استعصاءات المفاوضات حول ما يُسمى بـ "الوضع النهائي" وخصوصاً حول القدس، لأنه يرفض بقاء عاصمة مشتركة للشعبين، وللدولتين معاً!

إذن، يجوز ـ حسب التلمود ـ قتل الأغيار حتى ولو كانوا من أفضل الناس خُلقاً. إلا أن هذه الرغبة بالقتل، تكاد تملأ التوراة منذ الخروج من مصر وحتى نهايتها، بل تبدأ دورة العنف قبل دخول، مصر، كما سنرى، لكنها تتعزز أكثر مع موسى، الذي أعطى لإله بني إسرائيل، إله الحرب والجنود، ملامحه كمقاتل، فسماه بعض الدارسين اسـم "يهوه الموسوي"،(5) ونقرأ عنه "فأزعجهم الرب أمام إسـرائيل، وضـربهم ضـربة عظيمة، في جبعون، وطردهم في طريق عقبة بيت حورون وضربهم إلـى عريقـة وإلى مقيدة. وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل وهم في منحدر بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عريقة فماتوا. والذين ماتوا بحجارة البرد هـم أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف" سفر يشوع (11-10-10/9). ويتابع فـي السفر نفسه "ولم يكن مثل ذلك اليوم، قبله ولا بعده، سمع فيه الرب صوت إنسان. لأن الرب حارب عن إسرائيل" يشوع (10/14).

أما في سفر "أشعيا" فنقرأ صورة الرب، إله الحرب وإله الجنود وإله الانتقام "هـو ذا اسم الرب يأتي من بعيد، غضبه مشتعل والحريق عظيم، شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة. ونفحته كنهر غامر، يبلغ الرقبة، لغربلة الأمم بغربال السوء، وعلى فكوك الشعوب رسن مضل" أشعيا (28-30/27).

يتابع "أشعيا" تصوير سخط الرب على كل الأمم "اقتربوا أيها الأمم لتـسمعوا، وأيهـا الشعوب أصغوا، لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها. لأن للرب سـخطاً على الأمم وحموأ على كل جيشهم، قد حرمهم ودفعهم إلى الـذبح. فقـتلاهم تُطـرح وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم" أشعيا (34/3,2,1).

ويصل سخط الرب إلى بني إسرائيل، وعدوانيته تطالهم في أكثر مـن محطـة مـن محطات التيه، لأنهم شعب "غليظ الرقبة" وما كان لموسى أن يقود جيشاً مـن البـدو الغلاظ، لولا أن استعان عليهم برب من هذا الطراز، فهو يعاقبهم في سـيناء، علـى صنع العجل الذهبي "فقال لهم، هكذا قال الرب إله إسرائيل، ضعوا كل واحـد سـيفه

على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكـل واحد صاحبه وكل واحد قريبه" سفر الخروج (32/27). ويعلق أحد الكتاب أنه "قتـل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل، اختيروا عشوائياً لامتصاص غضب النبي الذي شعر بالمهانة، لأن الشعب تنكر له بهذه السرعة"(6).

وقد حاول بعض المفسرين الغربيين، رد ظاهرة العنف التوراتي، إلى الظروف التـي أحاطت بالعبرانيين منذ خروجهم من مصر إلى سبي بابل، وتجربة الدياسابورا، بحيث كانوا منبوذين من كل الأقوام التي عاشوا بين ظهرانيهـا، وكـانوا عرضـه لعـداء الآخرين وأذيتهم، إلا مجزرة شخيم (نابلس) من أرض كنعان، والتي سـبقت تجربـة مصر والتيه، توضح تأصل طبيعة العنف والغدر في سلوك اليهـود، خـصوصاً وأن منفذيها يعقوب وإبناه شمعون ولاوي. الأول حفيد إبراهيم، وكان نبياً ومفضلاً عند إله بني إسرائيل، وأما شمعون ولاوي فهما من الأسباط الاثنى عشر.

- "وخرجت دينة إبنة ليئة، التي ولدتها ليعقوب، لتنظر بنات الأرض. فرآها شـكيم ابن حمور الحوي رئيس الأرض وأضجع معها وأذلها" سفر التكوين (2-34/1)

- فكلم شخيم حمور أباه قائلاً: "خذ لي هذه الصبية زوجة" سفر التكوين (34/4).

- "فتكلم حمور معهم، قائلاً شخيم ابني، قد تعلقت نفسه بابنتكم، أعطوه إياها زوجـة. وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا، وتـسكنون معنـا وتكـون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها" التكوين (10-9-34/8). وأضاف "كثـروا عليّ جداً مهراً وأعطية، فأعطي كما تقولون لي. وأعطوني الفتاة زوجـة" التكـوين (34/12).

- "فأجاب بنو يعقوب شخيم وحمور أباه، بمكر وتكلموا ... إن صرتم مثلنا بخـتكم، كل ذكر نعطيكم بناتنا، ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً" التكـوين (16-34/13..15).

- وبعد أن اختتن جميع الذكور "فحدث في اليوم الثالث، إذ كانوا متوجعين، أن ابنـي يعقوب، شمعون ولاوي، أخوي دينه، أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة، بـأمن،

وقتلا كل ذكر" التكوين (34/25).

وأضاف "ثم أتى بنو يعقوب على القتلى، ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت" تكوين (29-28-34/27).

القصة بسيطة ولا تحتاج إلى شرح، ولكن السؤال: أين العدالة في قتل شعب كامل مقابل جماع امرأة؟ أم أنها كانت الحجة التي بررت لبني يعقوب جريمتهم، ولنلاحظ أيضاً اعتراف النص بالخديعة "فأجاب بنو يعقوب، شخيم وحمور أباه بمكر وتكلموا" تكوين (34/13). فالرب لا يمانع بخديعة باقي الشعوب "الغوييم" والغدر بها، أيضاً نقرأ تعاليم موسى "وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين آنية فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين". سفير الخروج (26-12/25). فنلاحظ أن الرب يشارك في خداع المصريين.

وبالعودة إلى مجزرة شخيم نجد أن القصة تتكرر، بعد الخروج من مصر ويتكرر المكر والخيانة في مجزرة مديان، التي استقبل ملكها موسى وشعبه، أثناء الهروب من مصر، بل وزوج موسى من ابنة كاهنة. ومع ذلك، أثناء إقامة بني إسرائيل في "شخيم" حدثت قصة معاكسة لقصة أولاد يعقوب، لكنها أدت إلى نفس النتائج بل والى أدهى منها كما سترى. حيث تعلق إسرائيل ببغي من أهل مديان، فقام كاهن يهودي بقتلهما معاً. ومع ذلك يقرر موسى الانتقام من أهل مديان، وكان الانتقام رهيباً بحسب أوامر يهوه التي نقلها موسى "وكلم الرب موسى قائلاً: انتقم نقمة لبني إسرائيل، من المديانيين.." سفر العدد (2-31/1). "فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر" العدد (31/7).

وأضاف "وسبا بنو إسرائيل، نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم وكل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع حصونهم بالنار" العدد (31/9/10).

أي أن بني إسرائيل، لم يكتفوا بقتل ملوك مديان، وكل الذكور فيها، بل سبوا النـساء والأطفال ونهبوا البهائم والمواشي والأملاك، وأحرقـوا كـل مـا تبقـى، كـالبيوت والزروع، مما لا يستطيعون قتله أو سبيه أو نهبه. وكان يمكن للقصة أن تنتهي هنا، إلا أن موسى كان أشد عنفاً من يعقوب وأولاده، فاستنكر ما فعل قواده "وقـال لهـم موسى هل أبقيتم كل أنثى حية" العدد (31/15). وأمرهم بقتل كل النساء وكل الذكور من الأطفال أيضاً، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال" وكـل امـرأة عرفـت رجـلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها" العدد (31/17).

فالعنف الذي يتوالى في قصص التوراة، يتأسس على نظرة دونية إلى الأغيار "الأمم" بحيث لم تنج مدينة أو شعباً من حقد يهوه ولعنات أنبيائه. يقـول رب الجنـود بهذا الصدد "يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شيء" أشعيا (13/6). "أعاقب المسكونة على شرها والمنافقين على إثمهم وأبطل تعاظم المستكبرين وأضـع تجبر العتاة" أشعيا (13/10). "كل من وجد يطعن بالسيف، وتحطـم أطفـالهم أمـام عيونهم، وتنهب وتفضح نساؤهم" أشعيا (13/15-16) ويتابع رب الجنود في حقـده على بابل "فأقوم عليهم، يقول رب الجنود وأقطع من بابل اسما وبقية، ونسلا وذريـة يقول الرب" أشعيا (14/22).

يتابع هذا "النبي" جولة حقده على الممالك والمدن "وحيّ من جهة دمشق. هو ذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم" أشعيا (17/1). وينطلق من صور إلى كنعان "مد يده على البحر أرعد ممالك. أمر الرب عـن جهـة كنعـان أن تخـرب حصونها" أشعيا (23/11).

وليس أشيعا وحده، من صب جام حقده ولعناته، على الممالك والأمم الأخرى. فهذا أرميا يقول "بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين، لينقـرض مـن صـور وصيدا، كل بقية تعين، لأن الرب يهلك الفلسطينيين بقيـة جزيـرة كفتـور" ارميـا (47/4).

وعن مؤآب يقول "على كل سطوح مؤآب، وفي شوارعها كلها، نوح، لأني قد حطمت

موآب كإناء لا مسرة به، يقول الرب" ارميا (48/28). وعن عمان يقول "لذلك ها أيام تأتي، يقول الرب واسمع في ربة بني عمون، جلبة حرب، وتصير تلاً خرباً وتحـرق بناتها بالنار فيرث إسرائيل الذين ورثوه يقول الرب" ارميا (49/2).

"عن دمشق. خزيت حماه وأرفاد قد ذابوا لأنهم قد سمعوا خبراً رديئـاً. فـي البحر لا يستطيع الهدوء. ارتخت دمشق والتعنت للهرب..." أرميا (49/23-24).

أما لعنة حزقيال، فتبدأ على سكان أورشليم "القدس" لنجاساتهم "وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك" حزقيال (9/5-6).كما يقول "لذلك هكذا قـال السيد الرب وأمد يدي على أدوم وأقطع منها الإنسان والحيوان وأصيرها خراباً مـن التيمن وإلى " وإن يسقطون بالسيف" حزقيال (25/13). ويضيف "فلذلك هكـذا قـال السيد الرب. ها أنذا أمد يدي على الفلسطينيين وأستأصل الكريتيين وأهلك بقية ساحل البحر" حزقيال (25/16).

ونستطيع أن نتابع مع أنبياء بني إسرائيل لعناتهم، التي شملت كل الشعوب التي عاشوا في ظلها. حتى أن هيمان ينقل عن الحاخام يعقوب شلامي، أحد زعماء الجالية اليهودية في فرنسا، أن سبب استمرار اليهود كل هذا الزمن: هـو أن نخـضع لإرادة ا ، وأن نواجه باقي الأمم.(7)

ونلاحظ أن مواجهة الأمم الأخرى، تأتي في المرتبة الثانية، بعد الخضوع . لكن نستطيع أن ندرك بقليل من اللاهوت، وبأكثر من السياسة، أن تلك المواجهة كانت العامل الرئيس، الذي أسهم في ربط الجماعة اليهودية إلى بعضها، وشكل أحـد أهـم عوامل استمراريتها. ففي الشريعة اليهودية هناك إضافة لكل ما ذكرنا، ما يكفي مـن الوصايا، لإبقاء تلك المواجهة حية ومنظمة "قطع الأشجار، حرق المزروعات، قتـل الأطفال والنساء والبهائم". ويميز دارسو التوراة نوعين من الانتقام، أو العنف، ضـد الأغيار:

النوع الأول: وهو الأكثر شيوعاً في التوراة، وبين القبائل البدويـة، والمـدن

المتحاربة في تلك الفترة، ويقوم على قتل المحاربين الأعداء، في حال الانتصار عليهم، وسبي كل ما عدا ذلك من النساء والأطفال، واعتبارهم عبيداً للسخرة أو للبيع. إضافة لنهب الأموال الخاصة والعامة (البهائم والغلال والمقتنيات) وفي حال كون المدينة المنهوبة، بعيدة عن مركز استقرار المهاجمين، ولا توجد نية للاستقرار فيها، يجري إحراقها بالنار، بعد السبي والنهب الذي أشرنا إليه. "وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كُل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك" سفر التثنية (20/14).

النوع الثاني: وهو استثناء لا يكاد يظهر إلا في حالات الحقد القصوى، أو الرغبة في الانتقام، وهو شائع في التوراة تحت اسم "التحريم" كما حصل في مديان، أو عند احتلال أريحا "وحرموا كل ما في المدينة، من رجل أو امرأة، من طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". سفر يشوع (6/21).

ويلاحظ في حالة التحريم، أنه يستتبع مجزرة القتل تلك، إحراق المدينة بكل ما فيها من قتلى وأشياء، لا يستثنى إلا بعض المقتنيات الثمينة كحصة لخزنة الرب. نقرأ "وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب" يشوع (6/24).

هذا التحريم هو جزاء المدن التي يعطيك إياها الرب والمقصود مدن (فلسطين) " وأما مدن هؤلاء الشعوب، التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً، الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك" سفر التثنية (17-20/16).

وفي قصة أخرى، عند فتح مدينة عماليق، قال رب الجنود "فالآن اذهب، واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً. جملاً وحماراً" سفر صموئيل الأول (15/3/4). لاحظ قتل الرضع! إلا أن الغزاة بقيادة شاؤل، نهبوا بعض الغنيمة للذبح، من أجل الرب، فاستاء صموئيل وعاتب شاؤل "فقال صموئيل هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح، كما باستماع

صوت الرب، هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكبـاش" صموئيل أول (15/22). والمقصود، الإصغاء إلى تحريم الرب لمدينة عماليق. وهو استكمال لموقف موسى في انتقامه من المديانيين، حين رفض سبي النساء والأطفـال الذكور ودعا إلى قتلهم بحد السيف.

ويؤكد الرب على تحريم الأرض التي وعد بها إسرائيل "ودفعهم الرب إلهك أمامـك، وضربهم، فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تـصاهرهم" سـفر التثنية (3-7/2).

نلاحظ أولاً أن الأسفار تحض باستمرار على طرد الآخر أو قتله، لكـن الملاحظـة الثانية، والأهم في بحثنا هذا، أنه في حال استمرار بقاء هـذا الآخـر فـلا تجـوز مصاهرته أو مساكنته، أو إقامة اتفاق أو عهد معه. جاء في سفر الخارج "احتـرز أن تقطع عهداً من سكان الأرض التي أنت آت إليها. لئلا يصيروا فخـاً فـي وسـطك" خروج (34/12) ولننتبه أنها وصايا موسى، ويتابع موسى شـرح وصـيته معلـلاً الأسباب "احترز من أن تقطع عهداً مـن سـكان الأرض. فيزنـون وراء آلهـتهم، ويذبحون لألهتهم، فتدعى وتأكل من ذبيحتهم. وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزنـي بنـاتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن" خروج (16-34/15). فكيف يكـون الصلح إذا كان أحد الأطراف يحرم قطع العهد؟

يجيب موسى على هذا السؤال، حين يعرض على لسان الرب في سفر التثنية، لمفهوم الصلح فيقول "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتـك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكروها بح السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فـي المدينـة كـل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهـك. هكـذا تفعـل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هـؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمها تحريماً

الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمـرك الـرب إلهك.لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لألهتهم فتخطئـوا إلى الرب إلهكم" سفر التثنية (20/10..18).

نعتذر عن طول الشاهد، لكنه كان ضرورياً لإكمال الصورة. فالصلح مع اليهود يعني الاسترقاء لهم والاستعباد، بينما الحرب تعني الإبادة للذكور والسبي أو التحريم بحسب الجغرافيا التي قرأها الرب، الهنا والهناك وتحريم شعوب وأمم كثيرة بأطفالها ونسائها وبهائمها فقط من أجل تحصين بني إسرائيل من تعلم الرجس!!؟

انغلاق الديانة

ربما تكون محاولة الإنسان لاكتشاف قوانين الطبيعة وعلاقات الأشياء، أهم دوافعـه للتفكير بالميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، ومحاولته وضع منظومة قيم تضبط علاقتـه بالآخر وبالطبيعة معاً، في إطار المثيولوجيا. ولكن بحكم شروط الاجتمـاع القلبـي وعناصر الجغرافيا وبدائية اللغة ووسائل الاتصال فإن تلك الميثيولوجيا أو الأسـاطير جرى التعامل معها في نسخ محلية - إن صح التعبير- فكان لكل قبيلة، أو مجموعة عشائر، أو سكان منطقة ما، ديانتهم الخاصة ضمن إطار شـائع مـن تعـدد الآلهـة وتقاطعها معاً. بل يحفل التاريخ القديم في منطقة ما بين النهرين والجزيرة، بالعديـد من الحروب بين الشعوب المتجاورة من أجل الهيمنة الاقتصادية والسياسية والتي تجد تعبيراتها الفوقية في فرض الطقوس والميثيولوجيا المنتصرة على الشعوب المغلوبـة. لكن يبقى طبيعياً أن نجد شعوباً وقبائل تختص بآلهة معينة، ولو كان بالتسمية فقط. إذ غالباً ما جرى ترجمة صلاحيات الآلهة من شعب إلى آخر. وحتى الـشعوب التـي عرفت ا بالمعنى الدارج في الديانات التوحيدية، لم تستطع أن تلغي وجود آلهة أدنى منه، يختصون بقدرات جزئية، أو بقايا طقوس مسحوبة من أجواء تعدد الآلهة. ويكاد يتفق أغلب الدارسين على أن إخناتون مصر كان أول الموحدين، بل إن بعضهم يغمز إلى العلاقة بين توحيد إخناتون وتوحيد موسى الخارج من مصر.(8)

إلا أن منطق التفكير الديني الذي انتقل من تعدد الآلهة مع الميثيولوجيا إلى التوحيـد

كان يفترض انتقالاً موازياً من آلهة القبيلة أو العائلة إلى إله كوني واحـد. فوحدانيـة القدرة الإلهية تفترض شمول وكونية هذه القدرة وعدم تجزئها. إلا أن ذلك اسـتغرق مراحل تدرجية في تطور الفكر الديني، كانت عتبتها الأولى مع موسى الذي قدم إلهاً مختصاً ببني إسرائيل، أو هو اختصهم كشعب مختار له وأورثـه أرض فلـسطين أو بلاد كنعان، من دون الأمم قاطبة "وظهر الرب لإبراهيم وقال لنسلك أعطـى هـذه الأرض" تكوين (12/7). ثم أقام عهداً معه أن ينفذ الشريعة التي أنزل ا على موسى "فاسمع لصوت الرب إلهك واعمل بوصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم" تثنية (27/10).

وإله بني إسرائيل غيور، لا يقبل منهم أن يعبدوا إلهاً غيره. ويسمي ذلك زني "فإنك لا تسجد لإله آخر. لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو، احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض. فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكـل مـن ذبيحـتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك. فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن" خروج (16-15-34/14).

ولا يقبل أن تعبده الشعوب الأخرى. وهنا المفارقة التي لا يمكن فهمهـا فـي إطـار التوحيد، ولابد من العودة إلى شخصية موسى وظروف تشكل العبـرانيين وديـانتهم أيضاً، لفهم الغيتو الذي استمر من رحلة إبراهيم ويعقوب، إلى تجربة مـصر، ومـن الخروج من مصر والتيه الممتد لأربعين سنة في الصحراء، إلى السبي البابلي وعودة عزرا لبناء الهيكل، لنفهم ظاهرة انغلاق الدين اليهودي على باقي الأمم "الغـوييم" أو الأغيار الذين يتصفون بكل ما هو سيء ودوني، كما رأينا في نظرة الأسفار إلـيهم، وما دام لا يقبل من بني إسرائيل أن يتزاوجوا من باقي الأمم، أو أن يـساكنوها أو أن يتعاهدوا معها. فيكون طبيعياً أن لا يقبل يهوه دخول هؤلاء الأغيار فـي حظيرتـه. وبالتالي فإن العلاقة الممكنة معهم، هي علاقة العداء والحرب، لإخضاعهم واستعبادهم لصالح اليهود، في حال قبول هؤلاء الأغيار وتلك الشعوب بالصلح ـ بما هو علاقـة خضوع لبني إسرائيل ـ وإلا فالإبادة والتحريم مصيرهم. كما رأينا في سفر التثنيـة

(الفصل 20) هذه الظاهرة تمثل الحلقة الأولى في تطور الفكر الديني، ما بين الميثيولوجيا والتوحيد، لأن موسى الذي أقر بالتوحيد، كان أعجز من الوصول بهذا المبدأ لغايته. فلم يستطع تصور إله كوني تتسع عظمته ورحمته، خارج حدود بني إسرائيل. لذلك نراهم رغم التوحيد، خلقوا معادلة ما بين ا والعهد. وأنزلوه في التابوت وسار معهم في التيه " وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن" سفر الخروج (20/18). ويضيف في توصيف حضور الإله: " وكان عمود السحاب إذا دخل الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى. فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفاً عند باب الخيمة ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته" خروج (10-33/9)، ويختتم موسى سفر الخروج "لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهاراً. وكانت فيها نار ليلاً أمام عيوب كل بيت إسرائيل في جميع رحلاتهم" خروج (40/38).

إضافة لوجوده معهم في السحابة والتابوت، كان يهوه أيضاً يقاتل معهم في كل حروبهم "بينما هم هاربون من أمام إسرائيل وهم في منحدر بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة.." يشوع (10/11). وأيضاً يقول موسى" ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها، وابتلعتهم وكل مالهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية؛ تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب" عدد (16/30) وأيضاً "الرب إلهك هو عابر قدامك. هو يبيد هؤلاء الأمم عن قدامك فترثهم.." تثنية (31/3).

هذا التجسيد للإله ولو في عمود النار أو سحابة الدخان يتناقض مع التوحيد والتنزيه. وينسجم مع كونه إله بني إسرائيل فالتابوت يستطيعون حمله، لكنه تابوتهم ولا يحق حتى لغير اللاويين من اليهود حمل التابوت. فكيف بغير اليهود؟!

هذا الانغلاق في الدين، ترك بصماته على المرحلة الأولى من المسيحية، باعتبار المسيح ابن داوود، كما أجرى بعض المفسرين، فعندما خرج يسوع إلى نواحي صور وصيدا، وطلبت منه امرأة كنعانية، أن يشفي ابنتها، أجاب: لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل" إنجيل متّى ـ الفصل (15/24)، وقد أصبحت المسألة خلافية

في عهد الرسل، فبولس ومعه برنابا كانا أول من توجه إلى الوثنيين فـي إنطاكيـة" ولما جاء السبت كادت المدينة كلها تجتمع لتسمع كلمة ا ، فلما رأى اليهود هذا الجمع أخذهم الحسد، فجعلوا يعارضون كلام بولس بالتجديف، فقال بولس وبرنابا بجـرأة. إليكم أولاً كان يجب أن تبلغ كلمة ا ، أما وأنتم ترفضونها ولا ترون أنفـسكم أهـلاً للحياة الأبدية، فإننا نتوجه الآن إلى الوثنيين. فقد أوصانا الرب قال: جعلتك نوراً للأمم لتحمل الخلاص إلى أقصى الأرض، فلما سمع الوثنيون ذلك فرحوا ومجـدوا كلمـة الرب. وآمن جميع الذين كتبت لهم الحياة الأبدية" (أعمال الرسل الفـصل48//44/)

وساد هذا الاتجاه بعد صراعات حول الختان والوصايا ودور الـشريعة الموسـوية. وبالتالي، انفتحت كل من المسيحية والإسلام على كافة الشعوب والأمم، باعتبارها ديناً توحيدياً لإله متعال في السماء، بينما بقيت اليهودية ديناً مغلقاً على الإسرائيليين، لإله سكن بينهم في التابوت، ثم في الهيكل الذي بناه سليمان، ولا أحد يدري مصيره، بعد تدمير الهيكل أكثر من مرة.

رغم أن هذه المقولة تحتل موقعها في اللاهوت اليهودي، إلا أنها في التاريخ، تفتقـد للصدقية، أو كما قال روجيه غارودي، فإن القانون التأسيسي لدولة إسرائيل (باعتبار أنه لا يوجد دستور في إسرائيل حتى الآن) يتناقض في تأكيده يهودية أي شخص من خلال أمه، مع تاريخ أنبياء وملوك إسرائيل. فمن داود الذي جدته روث موآبية، إلـى ابنه سليمان لأن أمة حثية، إلى شاؤل الذي أمه كنعانية، بل إذا رجعنا إلـى الـوراء قليلاً، فمن يعقوب الذي بني بهاجر المصرية، إلى موسى الذي تـزوج ابنـة كـاهن مديان، والسلسلة طويلة لمن أراد الإحصاء، فكيف نفسر هذا التناقض؟

ليس ذلك فقط، بل إن كثيراً من أنبياء إسرائيل وملوكها، قد أكثـروا مـن الزيجـات والمحظيات غير اليهوديات، ولم يمانعوا في إقامة طقوس العبادة الخاصة بنسائهم، ولم يكن سليمان وحيداً في هذا المجال. فكيف نفسر هذا التناقص؟

البعض يعتبر أن شريعة موسى المتزمنة جرى تجاوزها منذ أن عرف الإسـرائيليون الاستقرار والملك القوي، لا سيما في عهد داوود. ويكتب روجيه غارودي، في هـذا

الصدد "قام أحد زعماء العصابات، من قبيلة يهوذا، على رأس مجموعة من المرتزقة البلستينيين (الفلسطينيين) والكرواتيين بإنشاء مملكة له في القدس، مستغلاً بمهارة، لعبة توازن القوى بين القوتين الكبيرتين آنذاك - البابليين والمصريين - وسيطر على سكانها الأصليين، من اليبوسيين، بحماية حرسه الخاص، من الفلستينيين والكريتيين" ويضيف غارودي:

"ولم يسع داود هذا إلى تهويد كنعان بل على العكس من ذلك، أقام دولة متعددة القوميات، تضم شعوباً مختلفة الديانات والجذور".(9)

ومن يتابع مسيرة عمل الملوك، سيكتشف أن أغلبه "عمل الزنا في عيني الرب" حتى السبي البابلي ومجيء عزرا، الذي عاد ليبني الهيكل فاكتشف أنه قد "اختلط الزرع المقدس بشعوب الأرض" (عزرا 2/9) حتى أمر أن يخرجوا من بيوتهم " النساء الغريبات من شعوب الأرض، والذين ولدوا منهن" (عزرا 30/10) ويعتبر المؤرخون أنه أتيح لعزرا "كاتب الشريعة اليهودية" أن يعيد وضع أسس العنصرية والتمييز، في الدين اليهودي، والتي عرفت باسم "قوانين عزرا"(10) التي أسهمت في تشكيل العقيدة الدينية العنصرية، في الوجدان العميق للمقدس اليهودي، خصوصاً وأنه جرى سحب حوادث التاريخ، بما يتناسب ومخيلة ومصالح الكتبة الذين أعادوا صياغة الأسفار، لأنه - وفقاً للنص التوراتي - جرى احتلال أرض كنعان من قبل يوشع في القرن 13 ق.م بينما السبي وإعادة كتابة الشريعة، تمت في القرن السادس ق.م.

الحقيقة الثانية التي تصدم دارسي التاريخ اليهودي، أن الوقائع لم تكن تنسجم مع نصوص المقدس وشريعة موسى. فأستير تصبح مقدسة مع أنها دخلت قصر ملك بابل، أحشويروش، عن طريق الخدعة من عمها، وأصبحت ملكة، وقدمت خيراً لشعبها، فلم يُقل عنها زانية. والسؤال الأخير، كيف يمكننا تفسير وجود شعوب يهودية خارج بني إسرائيل؟ فأغلب الدارسين يعتقدون أن يهود أوروبا يرجعون إلى يهود الخزر، وهؤلاء قصتهم معروفة. لكن لم يُقدم حتى الآن تفسير لاعتناق الفلاشا الدين اليهودي. خصوصاً بعد دحض نظرية إرجاعهم إلى يهود اليمن والدولة الحميرية.

أخيراً نترك العديد من علامات الاستفهام معلقة. لنتوقف مع إشكالية من نـوع آخـر تترتب على ظاهرة الدين المغلق، وهي إشكالية العلاقة بين الدين والشعب، وبالتـالي بين الدين والدولة، عندما يتم الانتقال من منظور اللاهوت إلى معطيـات الـسياسة. فاليهودية دين خالص لبني إسرائيل (أي لسلالة يعقوب) شيء واليهودية دين دولـة إسرائيل شيء آخر، خصوصاً عندما تكون الدولة (ثيوقراطية) أي دولة دينية، تماهي بين قانونها الأساسي، وبين حدود الشريعة، لدرجة أنها بعد 53 عاماً علـى "إعـلان التأسيس" ما زالت أعجز من النهوض بمهمة وضع دستور مـدني، يُنهـي التنـازع القديم، بين العلمانيين والمتدينين، على تعريف هوية الدولة، وعلـى مبـدأ المـساواة وحدود الديمقراطية. وهنا يكون الاسترسال قد انعطف الى حديث آخر، عن المشروع السياسي الإسرائيلي وإشكالياته المفتوحة.

هوامش الفصل الأول

1 ـ صحيفة هآرتس 14/7/2000 ص 11

2 ـ عبد الوهاب المسيري موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" المجلد الخامس، الجزء الثاني، ص 77، دار الشروق القاهرة، 1998.

3 ـ روجيه غارودي، "إسرائيل الصهيونية السياسية"، مركز الدراسات العـسكرية، دمشق 1984.

4 ـ المسيرى، المجلد الخامس من موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية"، الجزء الثاني، ص 240، مرجع سبق الاستشهاد به.

5 ـ د. جورجي كنعان، العنصرية اليهودية، ص 30 و103، بيروت، دار النهـار للنشر، 1983.

6 ـ ايمانويل هيمان، الأصولية اليهودية، ص 32، الهيئة المصرية العامة للكتابـة، 1998.

7 ـ المصدر السابق، ص 51.

8 ـ فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، اتحاد الكتـاب العـرب، دمـشق، ط1، 1976.

9 ـ روجيه غارودي، إسرائيل الصهيونية السياسية، ص36، مرجع سابق.

10 ـ راجع جورجي كنعان، العنصرية اليهودية، ص 65 و 103 مـصدر سـبق ذكره.

الفصل الثاني:

التطبيق الصهيو
فاهيم الدين والأسطورة

قام المشروع الصهيوني على افتراض أساسي هو أن يهود العالم، يكونون أمة واحدة، ذات تاريخ متصل. لذا فإن الهدف الرئيس للمشروع الصهيوني، هو جمـع هـؤلاء اليهود من الشتات، في دولة واحدة، تُصهر فيها الفروق الطبقية والعنـصرية بيـنهم، وتخلق أمة علمانية جديدة، فكان ارتباط التيار الرئيس للصهيونية، بالقيم الاشـتراكية، التي كانت تدعو إلى المساواة وتقديس روح الجماعة واحترام العمل اليدوي، وظهرت فكرة "الكيبوتسات" أي القرى التعاونية، لتكون نواة الدولة اليهودية، فيما بعد، بل إنها لعبت دوراً فعالاً في قيام إسرائيل، بما قدمته في مجالات الاستيطان ونـشر العمـل العبري، وجذب واستيعاب المهاجرين. كما كان لها دوراً عسكرياً بارزاً فـي حـرب 1948 وبدا وكأن المشروع الصهيوني، حقق أهدافه، وأن المجتمع الإسرائيلي بـات انعكاساً له وللمجتمع الاشتراكي!

الآن، وبعد مرور أكثر من اثنين وخمسين عاماً على قيام دولة إسرائيل، ماذا تحقق من المشروع الصهيوني؟ وهل صار المجتمع الإسرائيلي انعكاساً لهذا المشروع؟

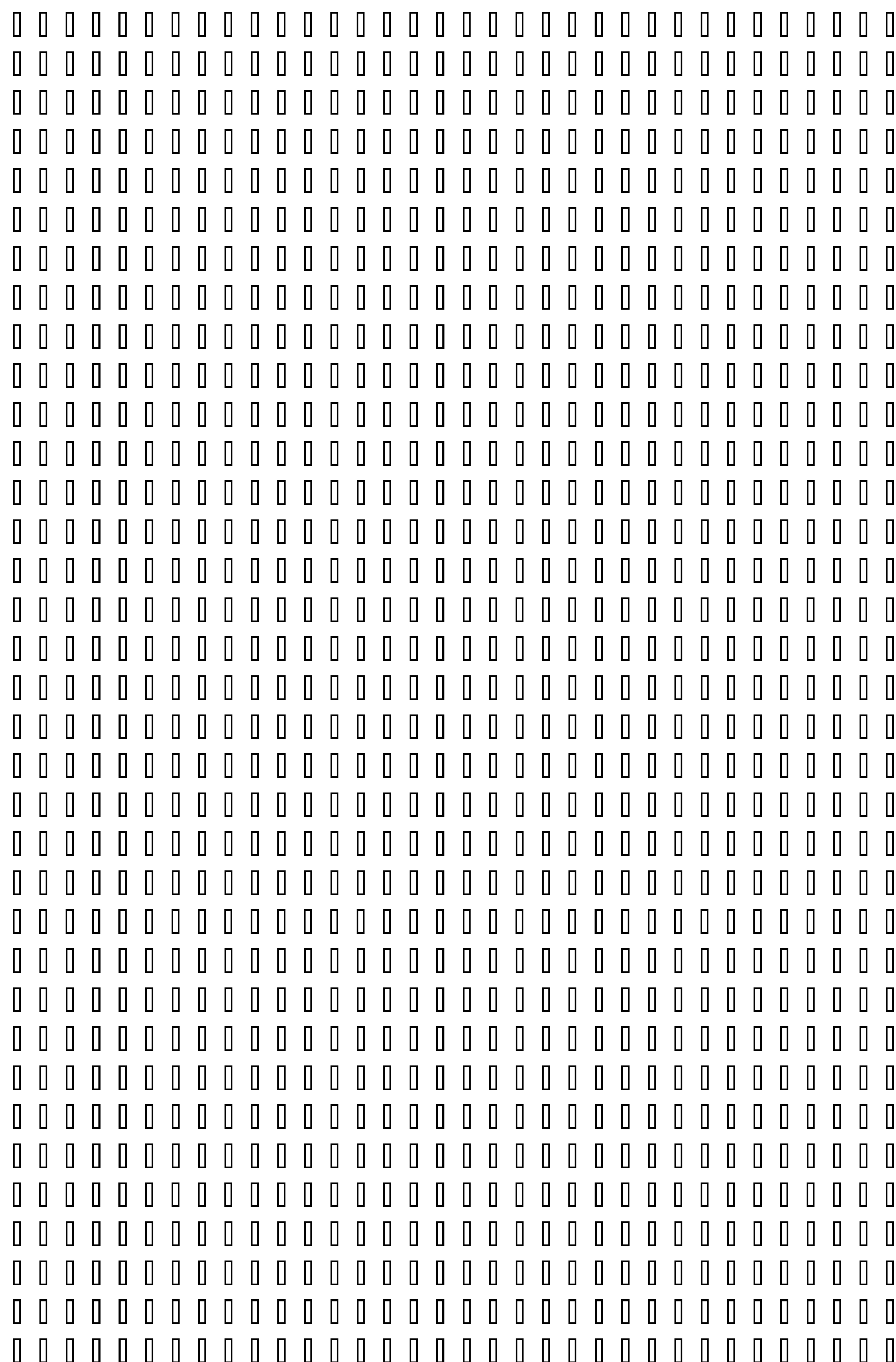
على الرغم من نجاح الصهيونية، في إقامة الدولة العبرية في فلسطين، إلا أن سمات الدولة ظلت تتعارض مع التصور الصهيوني. فلا يزال العديد مـن اليهـود، يعيشون خارج إسرائيل (وهناك نحو مليون ومئتي ألف إنسان، من مـواطني دولـة إسرائيل، يعيشون خارجها، بخلاف اتباع الديانة اليهودية الذين لـم تجتـذبهم دولـة اسرائيل الى مواطنتها). أما الذين يعيشون فيها، فإنهم لا يكوّنون نسيجاً واحداً، بل إن المجتمع الإسرائيلي، قد أفرز الكثير من الظـواهر، التـي أدت إلـى زيـادة حـدة الاختلافات الإثنية والطبقية فيه، وصعود قوة الأصولية الدينية، وأخيراً تراجع القـيم الاشتراكية، وتغلب النزعة الفردية فيه. وأفـرز التبـاين، بـين النمـوذج والواقـع

الإسرائيلي، تساؤلات حول دور هذه الأيديولوجية في المجتمع، وما إذا كان قد انتهى بالفعل، بعد قيام الدولة العبرية؟

ومن أبرز ما كتبت عكيفا أور في تحليلها للمجتمع الإسرائيلي "كان من المفترض أن تكون الدولة اليهودية العلمانية (التي قام على أساسها المشروع الصهيوني) مصدراً لهوية يهودية علمانية. لكن في الدولة التي أوجدها الصهيونية ظهرت هوية إثنية جديدة لم تكن في الحسبان، هي الهوية الإسرائيلية، ليس الإسرائيلي هو اليهودي الجديد الذي كانت تصبو إليه الصهيونية العلمانية ولكنه لعنة لها ولمعظم اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل"(1) وربما يأتي تفسير ماهية العنة في قول بنيامين بيت هالمي، الأستاذ بجامعة حيفا، أنه يرى رغم أن وجود إسرائيل في حد ذاته يعد من أعظم منجزات الصهيوني(2) إلا ان ظهور الهوية الإسرائيلية الجديدة يعد بشكل ما فشل للصهيونية التي ادعت أن كل اليهود العالم سيكونون شعباً واحداً(3).

شخصية تؤمن بالهجرة وتعادي المهاجرين

لعل أهم ما طرأ على المجتمع الإسرائيلي من تغيرات، هو تحول موقفه تجاه مسألة هجرة اليهودية إليه بالرغم من ارتباط الهجرة بجوهر الصهيونية ذاتها فإن الهدف منه جمع اليهود في دولة مستقلة فوق أرض فلسطين ومن هنا تعتبر الهجرة اليهودية إلى فلسطين الدعامة الأساسية ومصدر شرعية هذا المشروع من الناحية الأيديولوجية. أما من الناحية العلمية فلولا موجات الهجرة اليهودية المتتالية على فلسطين التي زادت



هر الترحيب ليحل محلها رفض الشعب مشاركة هؤلاء الـروس لهم في مواردهم المحدودة، خاصة فيما يتعلق بالعمل والإسكان، فكمـا قـال ناتـان شيرانسكي رئيس حزب إسرائيل بعاليا:"أن وجـود الـروس يمثـل تهديـداً فوريـاً للإسرائيليين. فإذا أرادت ابنتك دراسة الطب، صار يجب عليها أن تنتظر أو تـدرس شيئاً آخر لأنه فجأة أصبح هناك الكثير من الأطباء الروس. في المدارس، أصـبحت الفصول التي تستوعب 25تلميذاً تحـوى 32. الموسـيقيين الإسـرائيليين والفنـانين والمهندسين، جميعهم يحسون بالتهديد"(8). وفي تعليق لمسؤول في وزارة الماليـة: " إن الهجرة ستؤدي إلى الانفجار الاجتماعي وتعميق الهـوة الاجتماعيـة، وسـتجلب المشاغبات والكراهية لأنها تأتي على حساب الإسرائيلي المسحوق، كما ستؤدي إلـى هزة اجتماعية واقتصادية لم تشهدها إسرائيل منذ 48" (9).

وقد أخ خوف رجل الشارع الإسرائيلي من تهديد اليهـود الـروس للتركيبـة

الاجتماعية للمجتمع ونظرته السلبية إليهم بصفتهم دخلاء جاءوا يتمتعون بامتيـازات كان سكان إسرائيل الذين أمضوا فيها عشرات السنين أولى بها شكلاً عنصرياً عندما تعالت أصول تشكك في " يهودية" أغلب هؤلاء المهاجرين، وبالتالي في مدى صـحة قبولهم كمواطنين في الدولة. فطبقاً للتعديل الذي أدخل على قانون العودة، يحق لكـل إنسان الهجرة إلى إسرائيل إذا كان والده أو والدته، جده أو جدته، الزوج أو الزوجـة يهودياً"، وهو ما يعني قبول غير يهود فـي الـبلاد وبالفعـل، جـاء تقريـر وزارة الاستيعاب ليكشف أن 25% من العائلات الروسية التي هاجرت لإسرائيل هي زيجات مختلطة. (10) وعلى ذلك، طبقاً لمقال في صحيفة هآرتس، أصبح "الإسرائيلي يعامل الروس في الأساس كمادة مشتبه فيها، الحسد من كثـرة حملـة شـهادة الـدكتوراه والمهندسين والفنانين، والممزوج بالشك الكبير في طابع هذه الجماهير: هل هم يهود؟ هل هم أكاديميون حقيقة؟" (11) ومن ناحية أخرى، اتهم الكثير من المتدينين اليهـود الروس بنشر الفساد والجريمة في المجتمع مما حدا بالبعض أن يطالب بتعديل قـانون العودة حتى يمكن الحد من الأعداد التي تأتي إلى إسرائيل وضمان أحقيتها لذلك. وقد تندر بعض المحللين الإسرائيليين على استشراء هذه المشاعر العدائية للقادمين بـين غالبية الشعب الإسرائيلي في الوقت الذي يتمسكون فيه بقانون العـودة بقـولهم:" إن الإسرائيليين يحبون الهجرة، ولكنهم يكرهون المهـاجرين " (12)،(13) أمـا أوري جوردن فيقارن بين الماضي والحاضر: "إن استيعاب المهاجرين خـلال الخمـسينات كان بمثابة هدف قومي وعمل مهم وحيوي، سواء من الناحية الفكرية أو من الناحية الكيانية. أما الآن، فإن الشعب في إسرائيل غير مستعد للتضحية في سبيل أي هـدف قومي، إذ أن كل واحد يعمل لنفسه" (14). وما لم يره جـوردن هـو أن "كراهيـة" الإسرائيليين للمهاجرين لا تعني افتقارهم للولاء والشعور الوطني إذا ما فرقنـا بـين الولاء للصهيونية والولاء لإسرائيل. ففي هذه الحال، وكما يتضح من استخدامهم لـ "نحن" و "هم" بالنسبة للمهاجرين اليهود، هم فقط يؤكدون على هويتهم الخاصة بهـم كشعب ينتمي إلى دولة إسرائيل لا عن هويتهم الصهيونية التي ترى في كـل يهـود

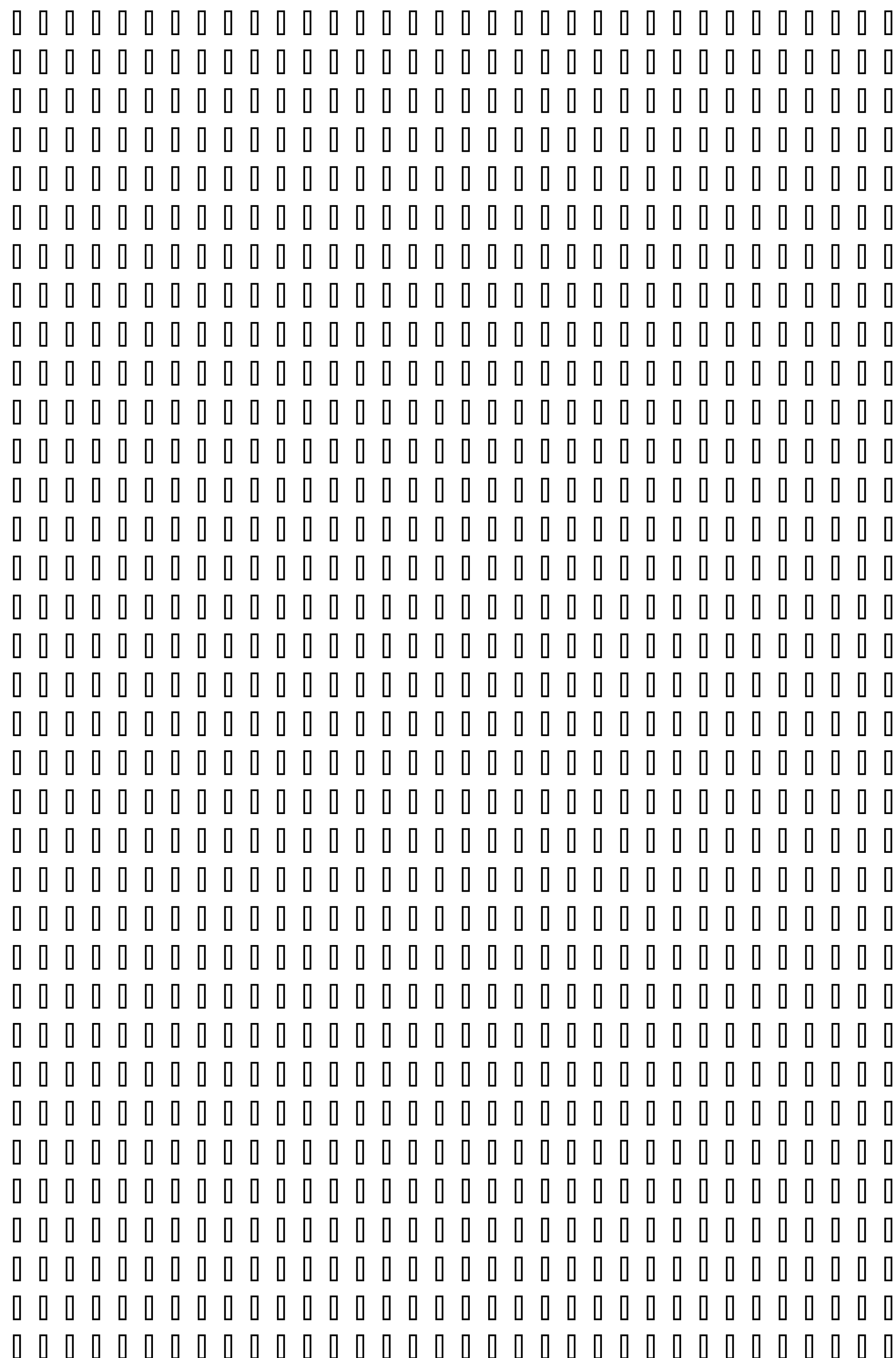
العالم أمة واحدة وفي هذا الإطار طالب بعض علماء الاجتماع بإلغاء قانون العودة بعد أ، ضمنت الدولة اليهودية وجودها وبالتالي أصبح من غير الطبيعي أن يكون الـدين هو أساس الجنسية اليهودية، فهذا القانون، فهذا القانون، في نظرهم، يعد لا لزوم لـه وخطر على إسرائيل لأنه يحول بينها وبين أن يكون دولة ديمقراطية حقاً.(15). ومن ناحية أخرى، كانت مخاوف اليهود الشرقيين في إسرائيل من الهجرة السوفيتية أكبـر من مخاوف اليهود الغربيين لما رأوه من تهديد لهم وتكريس لوضعهم المتـدني فـي المجتمع،وهذا ينقلنا إلى السمة الثانية للمجتمع الإسرائيلي وهي انقساماته الإثنية.

إسرائيل الأولى وإسرائيل الثانية

كما فشلت دولة إسرائيل في أن تجمع في ظلها كافة يهود العالم، فشلت أيـضاً في تحقيق هدف الصهيونية الثاني في أن تكون بوتقة صهر لمواطنيها اليهود. فمنـذ قيامها وحتى الآن وإسرائيل منقسمة على نفسها بـين اليهـود الـشرقيين واليهـود الغربيين. وفي أحيان قليلة أخذ هذا الانقسام شكل العنف، ولكنه في لغاب، وخاصـة منذ 1977، أدى إلى تغييرات جذرية في الخريطة السياسية للنخبة الحاكمة وقد استمد هذا الانقسام استمراره وخطورته من علاقته الوثيقة بالتميز الطبقـي فـي المجتمـع الإسرائيلي.

بدأت هذه المشكلة مع وفود مئات الآلاف من يهود أوروبا وآسيا إلى الدولـة الصهيونية في فترة الخمسينات حتى بلغ عددهم في 1960 إلـى 491.555 ونتيجـة لهذه الهجرة اصبح اليهود الشرقيون يمثلون أكثر من نصف السكان اعتباراً من عـام 1964، الأمر الذي أحدث تغيراً جذرياً في بنية وطبيعة المجتمع الـصهيوني وأفقـده تجانسه العرقي والثقافي بعد أن كانت الغالبية العظمي منه من يهود وسـط وغـرب أوروبا حتى قيام الدولة. ومع هذا التحول الديموغرافي بدأ المجتمع الإسرائيلي يشهد انقساماً طبقياً بين مواطنيه اليهود على أساس انتمائهم العرقي. فقـد عـانى اليهـود الـــــــــــــــــــــــــــــــــــــشرقيون

م

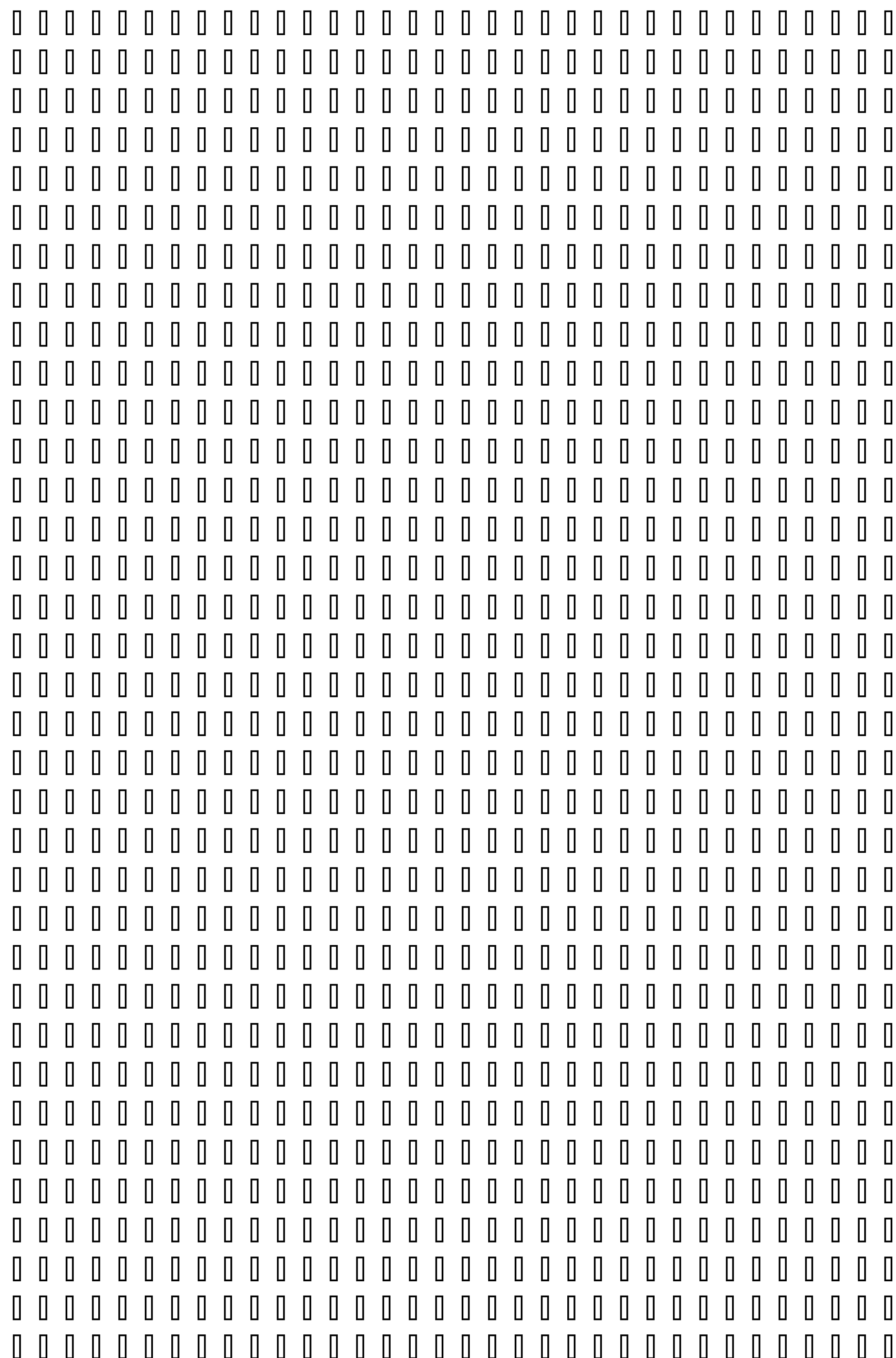


ل اليهود الغربيون يحسون بالتعالي تجاه الشرقيين ويرون أنهم لم يتخلصون بعد من تفكيرهم وسلوكهم "المتخلف" وإن اتخذ هذا الموقف شـكلاً مقنعـاً أكثر تعقيداً عن ذي قبل. (17)، ونتيجة لهذه التفرقة، أصـبح المجتمـع الإسـرائيلي منقسماً إلى نصفين يبدو وكأنهما منفصلين، "إسرائيل الأولى" وقوامها يهـود أوروبـا ذوي القيم الغربية المسيطرين على الدولة وهم الطائفة الأكثر ثروة والأرفـع تعليمـاً والأرقى ثقافة، و"إسرائيل الثانية" التي تتكون من اليهود الشرقيين الـذين لا يزالـون يحملون قيم المجتمعات التقليدية وهم الأكثر فقراً وأقل تعليماً ومهـارة. والآن، بعـد

مرور نصف قرن على قيام إسرائيل، لا تزال الفجوة بين الجماعتين قائمة بوضوح على الرغم من التحسن النسبي الذي طرأ على وضع اليهود الشرقيين وزيادة تمثيلهم في المناصب السياسية. (18)، وقد عبر اليهود الشرقيون عن سخطهم تجاه عنصرية الدولة في شكل حوادث احتجاج متفرقة طوال الخمسينيات والستينيات كان من أشهرها وأكثر عنفاً حادث وادي صليب في 1959 الذي شمل اضطرابات دامية بين اليهود المغاربة والشرطة الإسرائيلية استمرت أربعة أيام وامتدت إلى عدة مدن إسرائيلية. ثم تكونت حركة " الفهود السود" في 1971 كجماعة سياسية قامت بتنظيم العديد من المظاهرات للمطالبة بتحسين أوضاع اليهود الشرقيين قبل أن تسعي لدخول الكنيست بالتحالف مع بعض الأحزاب الصغيرة منذ 1973، ولفتت هذه المظاهرة نظر الدولة لوجود مشكلة إثنية ولكنها لم تفعل شيئاً يذكر لحلها.

ومع حلول الثمانينيات، ونتيجة فوز كتلة الليكود اليمينية في انتخابات الكنيست عام 1977 ووصولها للحكم لأول مرة بفضل أصوات اليهود الشرقيين، زادت حدة الجدل في الدولة العبرية حول المشكلة الإثنية وانعكاساتها على المجتمع. ومع كثرة الحديث عن وجود ثقافتين مختلفتين، انطلقت صيحات التحذير من أخطار تحول إسرائيل إلى مجتمع شرقي نتيجة للأغلبية العددية لهؤلاء اليهود وتأثيرهم على من يأتي إلى الحكم. ومع استمرار الليكود في الحكم واتباعه سياسات متعنتة ومنغلقة تجاه العالم الخارجي بصفة عامة والعرب بصفة خاصة وتمسكه بـ " أرض إسرائيل الكبرى"، ألقى العديد من المثقفين الإسرائيليين الليبراليين باللوم فيما وصلت إليه الدولة على مؤيدي الحزب من اليهود الشرقيين الذين يحكمهم الجهل والكراهية المطلقة للعرب. بل ووصل الأمر إلى تساؤل البعض عن فائدة، أو حتى شرعية، النظام الديمقراطي الذي حرم القطاع المتعلم والمستنير والعاقل من الشعب من

إدا



ا الجماعتين بنفس الشكل الذي كان عليه في فترة قيام الدولـة مثلما حدث مع المهاجرين الروس والأثيوبيين، فإنه أيضاً يوجد بين جمـاعتين مـن أجيال الصابرا (الذين ولدوا في إسرائيل) من ذوي الأصول العرقية المختلفـة.(23) وبناءً عليه، يرفض أستاذ الاجتماع الإسرائيلي سامي سموحا استغلال الدولة والنخبة السياسية من اليهود الغربيين لتحسن الظروف المادية لدى اليهود الشرقيين في الادعاء بانتهاء هذه المشكلة واستمرارها فقط في مخيلة من عاصروها، ويعتبر أنها ما زالت تمثل أزمة حقيقية في المجتمع الصهيوني. (24) أما نسيم رجوان فيري أنها سـوف تستمر لأنها في حقيقة الأمر لا تقتصر على البعد الاقتصادي والاجتماعي فقط ولكنها في جوهرها صدام بين ثقافتين. (25) ومن ناحية أخرى، هناك من يرى أن مـشكلة

التمييز الاثنى، على الرغم من وجودها، لن تهدد مستقبل إسرائيل، ولكن ما سوف يهدده بحق هو الصراع بين العلمانيين والمتدينين.

صهيونية علمانية وإسرائيل دينية

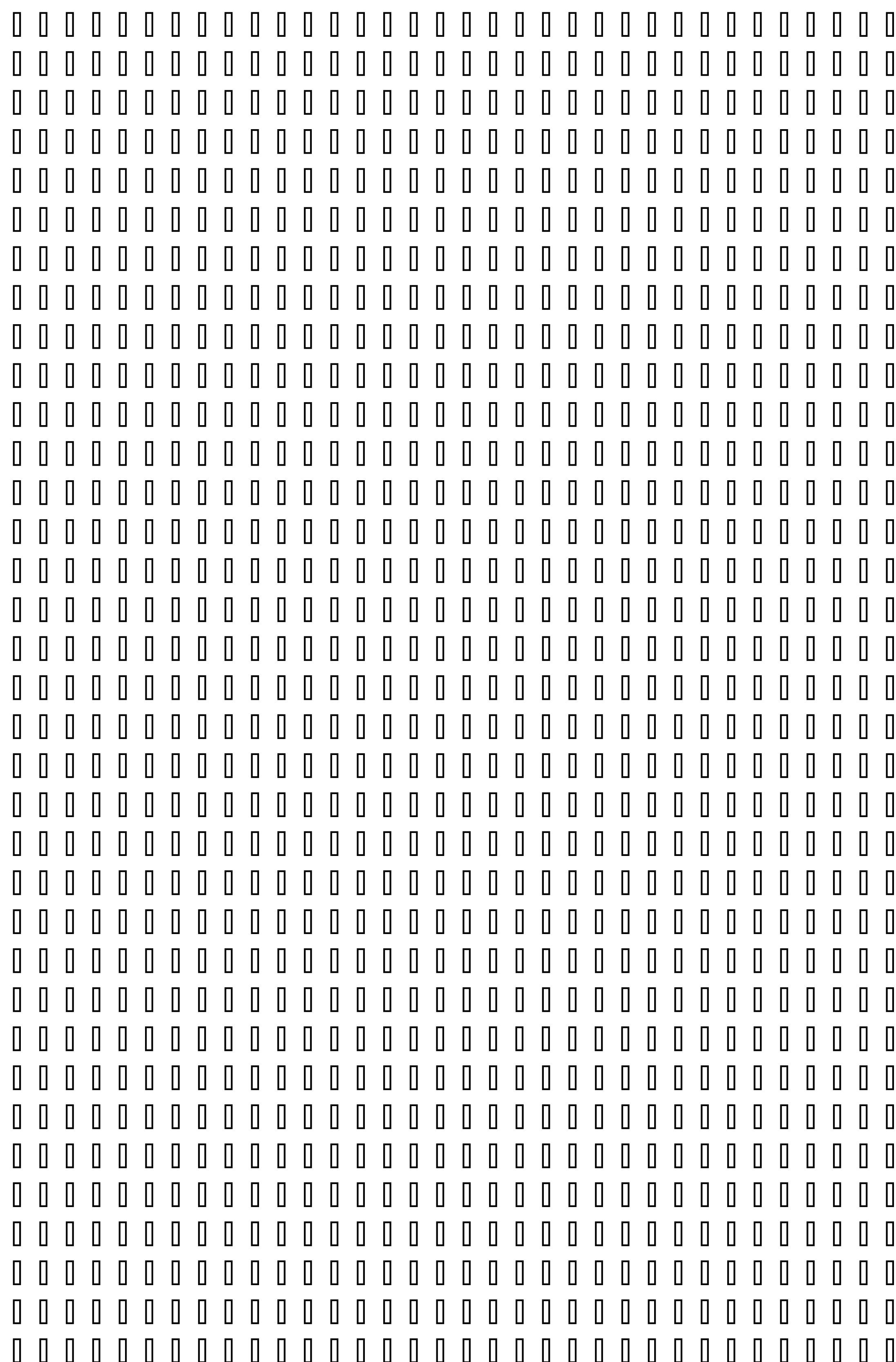
على الرغم من قيامها كحركة سياسية تسعى "لخلاص" الشعب اليهودي وجمعه في أرض الميعاد، وبالتالي ارتباطها الوثيق بالعقيد والرموز اليهودية، إلا أن الأيديولوجية الصهيونية كانت علمانية في الأساس وكذا كان أصحابها، كما كانت تهدف إلى بناء دولة علمانية تفصل بين الدين والدولة شأنها شأن الدول الغربية التي جاء منها هؤلاء الزعماء. وعلى ذلك كان لأقطاب الحركة تعريفاتهم الخاصة لليهودية التي كانت في بعض الأحيان تتناقض مع ما يقوله المتدينون، وكان رعاة التراث اليهودي في نظرهم هم الكتاب والعلماء اليهود وليس الحاخامات لأن التراث اليهودي في نظرهم كان تراثاً قومياً وليس دينياً (26) فالصهيونية جاءت لتحل مشكلة اليهود بصفتهم شعب لا أصحاب ديانة. ومن ناحية أخرى، وحتى الإعلان عن قيام دولة إسرائيل واجهت الحركة الصهيونية عداء الكثير من الأوساط الدينية اليهودية التي رأت فيها خروجاً صارخاً على التعاليم الدينية التي تؤمن بأن قيام هذه الدولة سوف يتم على يد المسيح المنتظر الذي سيرسله الرب لإنقاذ اليهود وبالتالي يجب ألا يتدخل البشر فيما سوف تأتي به السماء.

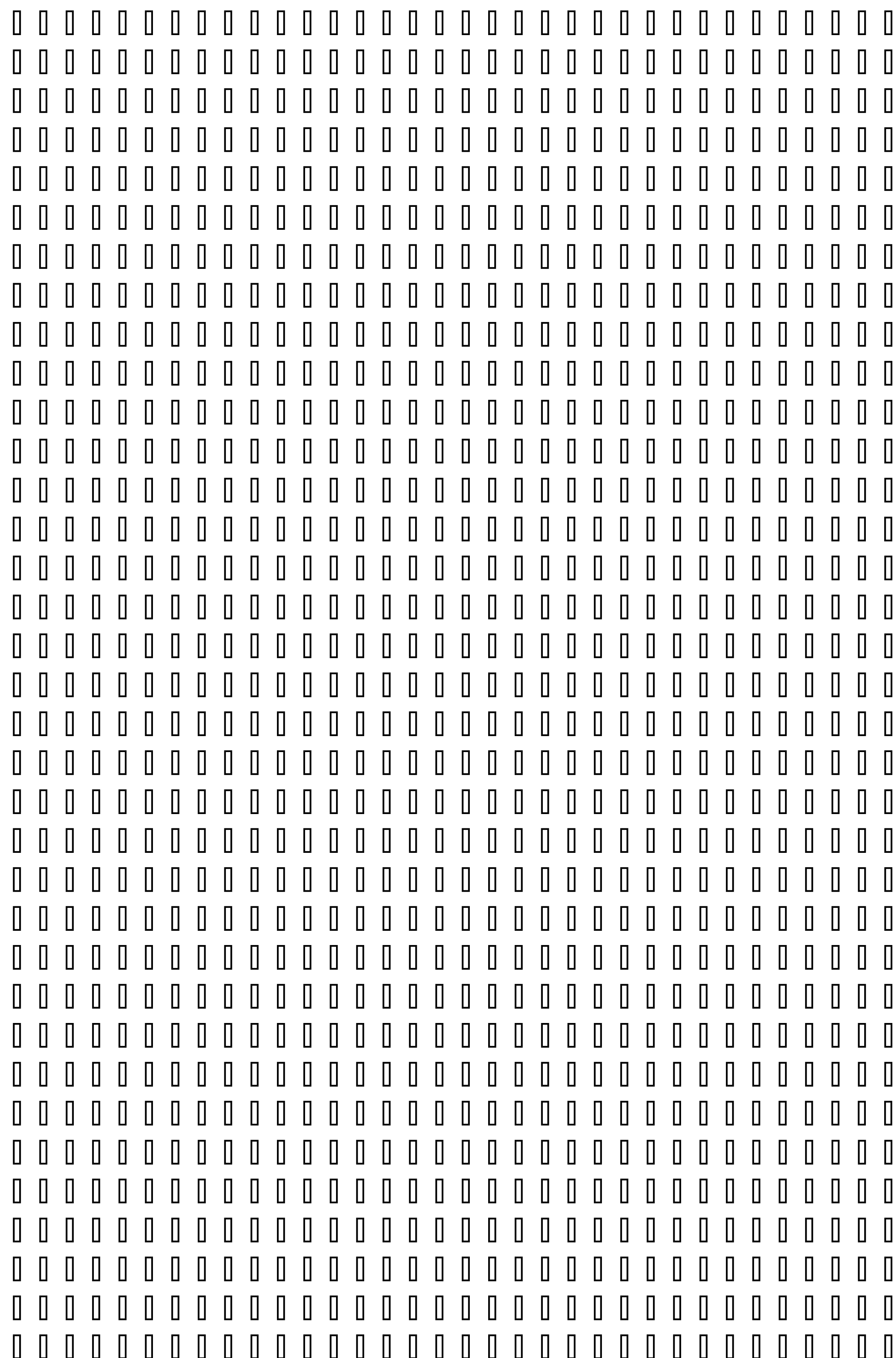
ومرة أخرى، خذلت إسرائيل الرؤية الصهيونية وتغير شكل الحياة السياسية والاجتماعية فيها ليعكس تعاظم القوى المتطرفة لليمين الديني والقومي ويشهد زيادة حدة الصراع بين الدينيين والعلمانيين حتى أصبح من أخطر الانقسامات التي يعاني منها المجتمع، وتضاءلت إسرائيل كدولة ليبرالية لتحل محلها صورة المجتمع الديني المنغلق على نفسه والذي لا يحمل سوى العداء لكل من يخالفه الرأي. وفي 1995، شهدت الدولة العبرية لأول مرة في تاريخها اغتيال رئيس وزرائها على يد شاب متطرف بعد أن اتهمه اليمين الديني بالخيانة والخروج على التعاليم اليهودية لتفريطه في جزء من "أرض إسرائيل" وإعطائه للفلسطينيين، وهو الحادث الذي هز المجتمع

واستفز القوى العلمانية فيه لدق ناقوس الخطر ضد التطرف الديني. (27) وفي نفس الوقت، نجحت القوى الدينية مؤخراً في فرض قيمها على المجتمع بقوة إما عن طريق العنف أو اللجوء إلى القضاء، فمنع المرور في الأحياء التي يسكنها المتدينون اليهـود يوم السبت وتم الفصل بين النساء والرجال في الموصلات العامة التي ترتـاد هـذه المناطق (28) فكيف حدث هذا التحول؟

في تفسير بهدف الظاهرة، يلقي الكثير من المحللين السياسيين فـي إسـرائيل باللوم على كتلة الليكود التي جاءت إلى الحكم في 1977 والتي من أجل ضمان بقائها فيه تحالف مع الأحزاب الدينية والقومية المتطرفة مما اكسب هـذه الجماعـات قـوة كبيرة مكنتها من تعزيز مكانتها وتغيير الكثير من أوجـه الحيـاة طـوال العقـدين الماضيين. لكن إذا نظرنا إلى تاريخ الدولة نجد أن المعـسكر الاشـتراكي العمـالي بزعامة بن غوريون هو الذي أرسى أسس "العلاقة الخاصة بين الصهيونية العلمانيـة والدين"،(29) وهو الذي مهد لما تشهده إسرائيل اليوم من تعاظم لدور الدين. ففـي عام 1947، ومن أجل تحييد القوى الدينية في فلسطين وضمان عدم معارضتها لقيام الدولة اليهودية وأيضاً من أجل إقناع العرب والبريطانيين أنه يتحدث باسم كل اليهود، أرسل بن غوريون نيابة عن الوكالة اليهودية خطاباً لحزب ايجودات يسرائيل الـديني يتعهد فيما بعدم المساس "بالوضع القائم" للمؤسسات الدينية في فلسطين بعـد إعـلان الدولة. وبالفعل وعلى الرغم من أن "إعلان الاستقلال" قد خلا من وصـف الدولـة اليهودية بكونها " دينية"، إلا أن سياسة بن غوريون وضعت أساس العلاقة بين الـدين والدولة بإعطاء المتدينين الكثير من الحقوق. فإلى جانب استئثار الـسلطات الدينيـة بكافة شؤون الأحوال الشخصية، تقرر أن تكون العطلة الرسمية السبت بحيث تتوقف فيه كافة الأنشطة العامة بما فيها النقل العام وتغلق دور السينما والمسارح والمقـاهي (وإن أصبحت بعد ذلك تعمل يوم السبت). كما تعهدت الحكومـة أن لا تقـدم سـوى الطعام الذي يباح أكله طبقاً للشريعة اليهودية (الكوشير) في الأماكن العامـة مثـل الفنادق والمستشفيات وقواعد الجيش.(30) لكن أخطر التنازلات التـي قـدمها بـن

ج





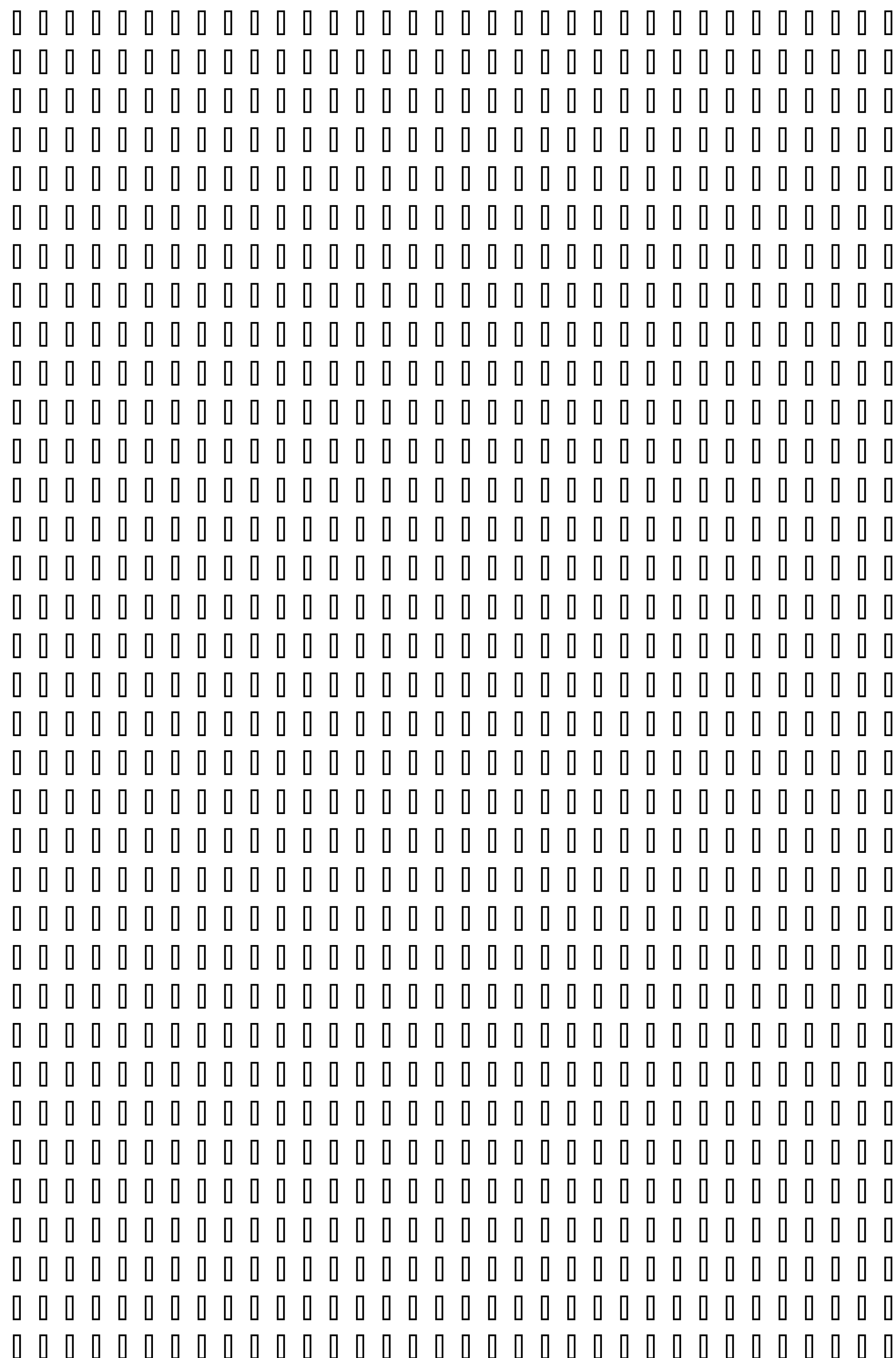
[illegible] وصول الليكود إلى الحكم واستمراره فيه لفترة طويلة من أهم العوامل الموضوعية التي ساعدت على نمو التيار الديني في إسرائيل. فنتيجة لتحالف الليكود مع هذا المعسكر من أجل ضمان الحصول على أصواته الانتخابية، خصصت حكومات الليكود المتتالية مبالغ طائلة للمتدينين الذين قرروا تعزيز تواجدهم السياسي في الدولة من أجل تحقيق مطالبهم الخاصة وبالذات في مجال التعليم. وكانت وزارة التعليم من نصيب الحزب القومي الديني في أوقات حكم الليكود التي غطت معظم العقدين السابقين مما أدى إلى اتباع الوزارة سياسة تقوم على إعطاء الأولوية للمدارس الدينية على حساب التعليم العام مما أدى إلى زيادة تلاميذ هذه المدارس وإضعاف القيم العلمانية لدى الأجيال الشابة. وقد أبدى العديد من رجال التعليم قلقهم بخصوص هذه الظاهرة وطالبوا باستقلالية المدارس العلمانية أسوة بالمدارس الدينية، كما طالبوا بالاهتمام بتنمية المهارات النقدية وترسيخ الديمقراطية والقيم الإنسانية في المدارس العامة لمواجهة الظاهرة الدينية في المجتمع.(35)

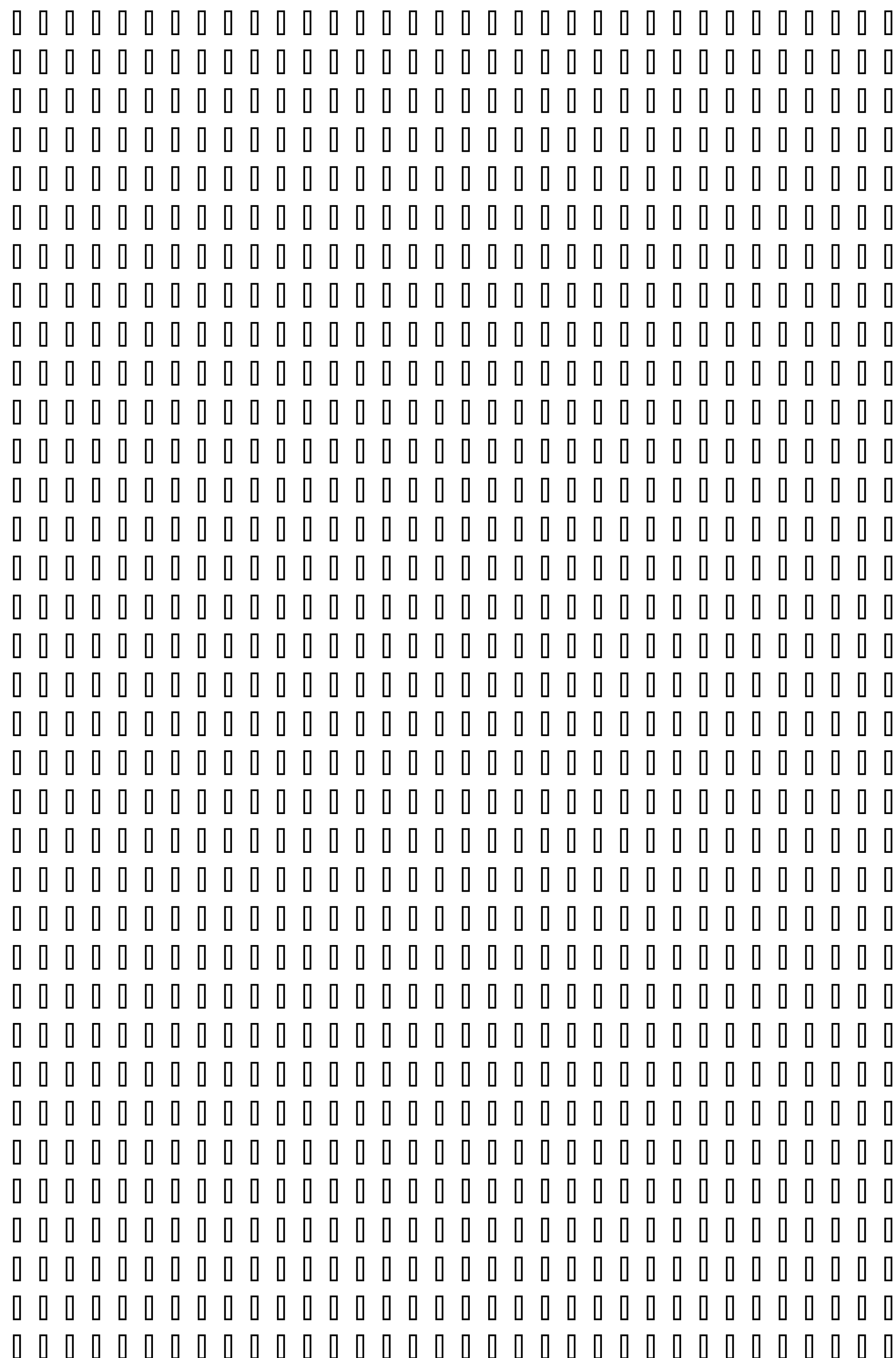
وإلى جانب مجال التعليم، بدأت القيادات السياسية التي تنتمي إلى المعسكر الديني في الدخول في محاولات مكثفة لسن قوانين تتعلق بكافة جوانب الحياة في المجتمع، بداية من وضع ضوابط للتنقيب عن الحفريات، إلى منع الإجهاض وزرع الأعضاء وتشريح جثث الموتى، إلى تحريم بيع لحم الخنزير طوال العام، وغير ذلك من القضايا. وكان هؤلاء الساسة قد نجحوا في منع شركة "العال" وهي الناقلة الجوية للدولة العبرية، من القيام بأية رحلات يوم السبت. وفي نفس الوقت، أصبح المتدينون يلجأون "لعنف الشوارع" من أجل إجبار العلمانيين على الالتزام بالتعليم الدينية في الأحياء التي يسكنون فيها، فيرشقون السيارات التي تسير في الشارع يوم السبت بالحجارة ويتعرض للنساء اللاتي لا يرتدين الأزياء المحتشمة، وهو ما دعا العلمانيين إلى الرد على هذه التحرشات واستفزاز المتدينين بفتح المقاهي ودور السينما في ليلة السبت في المناطق التي لا يسكنها المتدينون. وقد وصل هذا الاستفزاز إلى ذروته في 1991 عندما ألقى مجهول برأس خنزير عند مدخل معبد، ونظراً لفداحة الفعل لم يعلن أحد مسؤوليته عنه.(36) وقد أدى الصراع بين العلمانيين والمتدينين إلى خلق جو من التوتر والانعزال داخل المجتمع الإسرائيلي. فمن ناحية، اصبح أنصار كل من الطرفين أكثر تعصباً وميلاً للعنف في مواجهة الآخر. ومن ناحية أخرى تقوقع كل طرف داخل ذاته وانعزلت كل جماعة عن الأخرى دون أي محاولة جادة لخلق جسور التواصل بينهما أو البحث عن أرضية مشتركة للتصالح والتعايش المشترك.(37) وفي نفس الوقت، تولد شعور بخيبة الأمل لدى الكثير من المواطنين الذين كانوا يحلمون بمجتمع ليبرالي يحترم حرية الأفراد ولا يفرض عليهم أسلوب حياة بذاته تمليه عليهم قوى دينية مما دفعهم إما إلى الانكفاء على الذات أو الهجرة إلى الخارج إسرائيل.

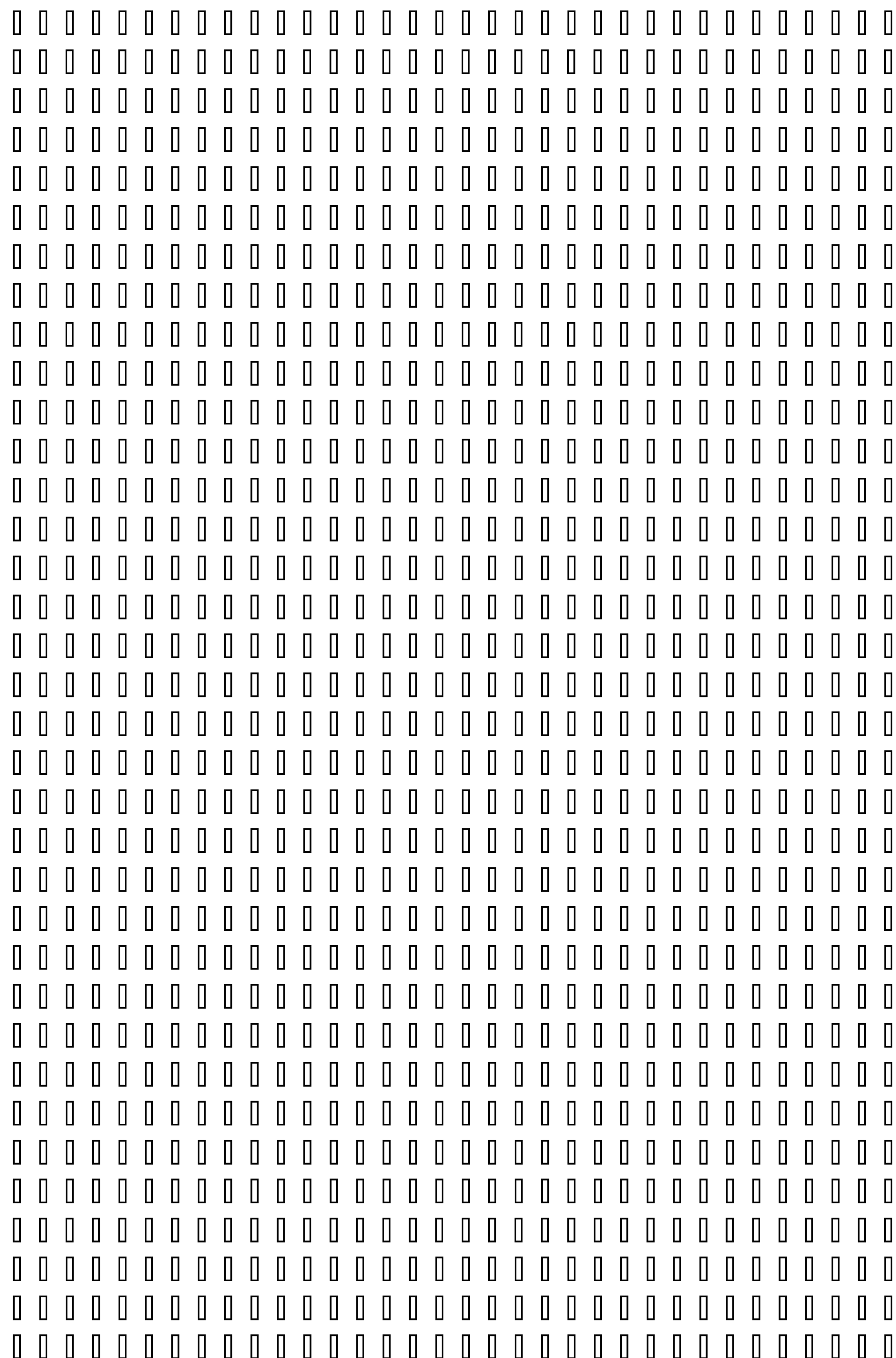
وكما شهد تطور الشخصية الإسرائيلية محنة الصهيونية "العلمانية" شهد أيضاً انهيار الصهيونية "الاشتراكية".

ظهور المشكلة الطبقية في إسرائيل

في تعليق له حول ما آلت حركة الكيبوتس، قال أحد المخضرمين: "لقد فشلت الكيبوتسات كفكرة. فهي حاولت تغيير الطبيعة البشرية وخلق إنسان جديد، لكن للأسف لم تنجح في تحقيق هذا الهدف لأن طبيعة الإنسان أقوى من أفعاله. فالناس في الكيبوتس، مثلها مثل أي مجتمع آخر، تريد أن تعمل قليلاً وتجني كثراً". (38) وحقاً لماذا يجب على المجتمع الإسرائيلي، وهو المرتبط بالغرب تاريخياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً، أن يكون مختلفاً عن النمط الصناعي الغربي في انقسامه الطبقي وقيمه الاستهلاكية؟ لقد حاولت الصهيونية متأثرة بالفكر الاشتراكي خلق مجتمع متكافل بلا طبقات يعمل فيه الفرد قدر طاقته ويجازي قدر حاجته، وكان لفكرة "بوتقة الصهر" بعدها الاقتصادي الذي يسعى إلى إذابة الفوارق بين أغنياء وفقراء الشعب اليهودي كما كانت تسعى لإذابة الفروق الثقافية بين أفراده. وكانت الكيبوتسات هي أداة تحقيق هذا الهدف وفي نفس الوقت تحويل اليهودي من تاجر أو مربي إلى مزارع وعامل ينتج من عمل يديه. وبالفعل استطاعت هذه الكيبوتسات منذ العشرينات وحتى الستينات ليس فقط أن يكون دعامة الاقتصاد والمجتمع الصهيوني في فلسطين ولكن أيضاً أن تكون مصدر أكفأ الجنود إلى جانب عدد لا بأس به من القيادات السياسية مع أنه في الستينات لم يكن يعيش فيها سوى 3% من مجموع سكان إسرائيل.وفي نفس الوقت، عندما تولى بن غوريون رئاسة الوزارة بعد قيام الدولة مباشرة، وضع أسس سياسته على فكرة مركزية الدولة أو ما أطلق عليها "مملختيوب"، وجعلها أساس الحكم بدلاً من الاشتراكية، رافعاً شعار "أمة عاملة" بدلاً من "طبقة عاملة" ويعني هذا المفهوم عملياً احتكار الدولة للسلطات السياسية والاجتماعية وسيطرتها على كافة المؤسسات التطوعية الاقتصادية بمواردها ونشاطاتها. (39) وفي مقابل ذلك، كانت الدولة تتكفل بتقديم كافة الخدمات للمواطنين بما فيها التعليم والصحة، كما حاولت قدر







[illegible] دن الأكثر رفاهية وحرية.(46) ومع هذه التغيرات التي مر بها المجتمع الإسرائيلي وتغلغل الهوية الإسرائيلية في مقابل الهوية الصهيونية، ومع فشل الصهيونية في حل أزماتها الوجودية، وأخيراً مع انقضاء عصر الأيديولوجية في العالم، بدأ بعض المفكرين الإسرائيليين يتكلمون عن عصر "ما بعد الصهيونية" في إسرائيل وهو الاتجاه الذي عبر عنه ظهور المؤرخين الجدد خلال العقدين الأخيرين.

المؤرخون الجدد وإعادة النظر في المسلمات الصهيونية(47)

في النصف الثاني من الثمانينات ظهر في الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية نوع جديد من الكتابات التاريخية التي تتناول نشأة الدولة، قامت على دحض الرواية الرسمية لهذه النشأة وقدمت بدلاً منها رؤية أكثر نقداً للحركة الصهيونية سواء بالنسبة لعلاقة الحركة باليهود المهاجرين أو لعلاقتها بالشعب الفلسطيني. وفي الحالة الثانية، قدمت هذه الكتابات رؤية أكثر اقتراباً من جهة النظر العربية في سردها للأحداث التي صاحبت قيام إسرائيل. وقد أثار وجود هذه الدراسات ردود فعل قوية بين المؤرخين الإسرائيليين والمفكرين بصفة عامة بحيث لم يقتصر الجدل على الساحة العلمية فقط بل تعداه إلى الساحة الثقافية بشكل عام، واصبح يطلق على أصحابها " المؤرخون الجدد". وفي نفس الوقت، اتسعت هذه الرؤية النقدية للمجتمع الإسرائيلي لتتعدى حدود

التاريخ إلى المجالات الأخرى مثل علم الاجتماع والأدب.

يعزى المؤرخون الجدد ظهور كتاباتهم إلى قيام الحكومة الإسرائيلية بإلغاء الحظر على الوثائق الرسمية التي مر عليها ثلاثون عاماً مما مكنهم من الاطلاع لأول مرة على وثائق الفترة التي صاحبت قيام الدولة العبرية والتعرف على الكثير من الحقائق التي كانت خافية وراء الروايات الرسمية للدولة. وفي نفس الوقت، مع نضج وتطور المجتمع الإسرائيلي خلال العقود السابقة وتأثره بالكثير من الأفكار الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمبادئ الليبرالية، وأخيراً التحول إلى الرأسمالية بما تحويه من تشجيع للنزعة الفردية، بدأ العديد من أفراده يتخلون عن النظرة الأيديولوجية للمجتمع لصالح رؤى أكثر براجماتية كما أنه ألغى احتكار الدولة والمؤسسات الرسمية لكتابة التاريخ وسرد العلاقة بين اليهود وغيرهم.وقد مهد هذا الانفتاح الثقافي الذي بدا واضحاً في الثمانينات لظهور رؤية نقدية للتاريخ اليهودي المعاصر. إلى جانب هذه العوامل الموضوعية، يتميز المؤرخون بصفة عامة بخاصتين أساسيتين مكنتاهم من الخروج من حصار الثقافة الرسمية للدولة: أولاهما أنهم من مواليد الأربعينات، أي أنهم لم يشهدوا قيام الدولة ويتأثرون بـ " معجزة الميلاد"، بل على العكس نضجوا في ظل مجتمع ينتقل ما بين الاشتراكية والفردية وما بين الانتصار المبهر في 1967 إلى الانكسار العسكري في 1973 و1982 مما جعلهم يتشككون في القيم التي تلقنها لهم الدولة. أما السمة الثانية فتكمن في أن معظمهم عاش فترة طويلة خارج إسرائيل لاتمام دراساتهم العليا في الغرب وإما عادوا إليها أو استمروا خارجها. هذه التجربة جعلتهم ينظرون إلى ظواهر مجتمعهم عن بعد ويتبنون نظرة نقدية تجاهلها، وفي نفس الوقت ساعدت على تأثرهم بالنظريات الغربية في العلوم الاجتماعية التي ترتبط بظاهرة ما بعد الحداثة والتي تقوم على رفض وجود حقيقة واحدة للأحداث. ويرى المؤرخون الجدد أن التاريخ " الرسمي" للدولة الصهيونية قد عمد إلى تقديم تفسير سطحي ومتحيز للأحداث التي واكبت قيامها وحذف كل ما يمكنه أن يعطي صورة سلبية لها وذلك لسببين أساسيين:

أولهما أن الذين كتبوا هذا التاريخ لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الحقيقي للكلمة بل كانوا مسجلين للأحداث، كما أن معظمهم قد شارك في حرب 1948 وبالتالي لم يكونوا محايدين في رواياتهم. ثانياً أن وجهة النظر الرسمية في إسرائيل كانت ترى في كتابة التاريخ بهذا الشكل أمراً ضرورياً نظراً لأن استمرار الصراع العربي الإسرائيلي كان يحتم رسم صورة إيجابية للدولة العبرية لأن إبراز أخطائها من شأنه أن يضعف من موقفها السياسي في صراعها على البقاء. أما الآن فيعتقد هؤلاء المؤرخون أن المجتمع الإسرائيلي قد أكتسب نضجاً يجعله في غنى عن الأساطير التاريخية التي عاش فيها ليتعرف بصدق على جذور الصراع العربي إسرائيلي مما قد يساهم في التعرف على أفضل الحلول لهز ومن هنا أيضاً جاء تركيزهم على فترة أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات بصفتها تمثل نقطة البداية في هذا الصراع وأيضاً في ميلاد الدولة، وبالتالي فإن القراءة الصحيحة لما حدث فيها أمر لا غنى عنه إذا أراد أحد تقييم التجربة الإسرائيلية برمتها. ومن خلال دراسة هذه الفترة بالاعتماد على الوثائق الإسرائيلية، دحض المؤرخون الجدد الادعاءات الصهيونية فيما يتعلق بعلاقتها بكل من الفلسطينيين والعرب وحتى اليهود.

ونظراً لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، كانت العلاقة بالجانب الفلسطيني هي أكثر "اكتشافات" المؤرخين الجدد إثارة للجدل داخل وخارج إسرائيل. فقد أقر هؤلاء المؤرخين ببطلان المبررات التي ساقتها الحركة الصهيونية في رفضها الاعتراف بارتكاب أية أخطاء في حق الشعب الفلسطيني والتي كان من أهمها أنها لم تكن تريد طرد الفلسطينيين بل كانت تريد العيش معهم في سلام ولكن هم الذين رفضوا قرار التقسيم وهو الذين شنوا الحرب على اليهود بغرض القضاء عليهم وهم الذين تركوا ديارهم طواعية ليتركوا الفرصة لتدخل الجيوش العربية لقتال اليهود. وأثبتت الوثائق التي قدمها هؤلاء الباحثون صحة شهادات الفلسطينيين لما حدث في حرب 1948، خاصة فيما يتعلق بجذور مشكلة اللاجئين. ففي هذه الحرب وعلى الرغم من أن عدد الفلسطينيين كان ضعف عدد اليهود، إلا أن المقاتلين اليهود كانوا

الأكثر عدداً والأفضل تسليحاً وتدريباً وتنظيماً وتخطيطاً، حتى أنه في مـايو 1948 بلغ عدد الجنود اليهود 35 ألفاً وهو رقم يفوق ليس فقط عدد المقـاتلين الفلـسطينيين ولكن الجيوش العربية مجتمعة والذي لم يتجاوز تعدادها جميعاً 30 ألفاً نتيجـة لهـذا التفوق أمكن لليهود خلال المواجهة العسكرية بينهم وبين الفلسطينيين، والتي امتـدت من نوفمبر 1948 إلى يناير 1949، من تشريد ثلاثة أرباع الشعب الفلسطيني خارج أرضه (750-650 ألف نسمة)، حيث قامت قوات الهاجناه بطرد الفلـسطينيين مـن المدن والقرى في الأراضي التي كانت تستولي عليها إما بشكل مباشر عن طريـق القوة أو اللجوء إلى الإرهاب. وفي أحيان كثيرة، مثلما حدث في اللد والرملة، صاحب عملية الطرد ارتكاب مذابح ضد المدنيين العزل، أو تعرض هؤلاء المدنيون للنهـب والاغتصاب.

وكما كشف المؤرخون الجدد حقيقة علاقة القوة بـين اليهـود والفلـسطينيين، عمدوا في تحليلهم لفترة قيام الدولة إلى هدم الادعاءات الإسرائيلية التـي تقـول أن إسرائيل ظلت منذ ميلادها تسعى للتوصل إلى سلام مع العرب وأنهم هم الذين رفضوا التعايش معها مما تسبب في استمرار الصراع حتى الآن وتعقيده. فقد أثبتت الوثـائق الإسرائيلية أن بعض الأطراف العربية أبدت استعدادها للتعايش مع الدولة الصهيونية حتى قبل إعلانها، وأنه كان بإمكانها إسرائيل التوصل إلى سلام مع العرب بعد انتهاء حرب 1948 لكن زعماؤها لم تكن لديهم الرغبة في ذلك حتى يحققوا أكبـر توسـع ممكن لدولتهم في الأراضي العربية. فقد كشفت هذه الوثائق أن الملك عبد ا ، ملـك الأردن، كان على اتصال وثيق بالدوائر الصهيونية منذ العشرينات، وأنه فـي عـام 1947، كان الأردن هو الدولة العربية الوحيدة التي وافقت على تقسيم فلسطين حتـى من قبل أن تقره الأمم المتحدة. وكان الملك قد اتفق مع اليهود على منع قيام الدولـة عربية في فلسطين واستيلاء الأردن على الجزء المخصص لها، وذلك في اجتماعـه مع غولدا مائير في 17 نوفمبر من هذا العام. وعندما دخلت الجيوش العربية فلسطين أبلغ الملك القيادات الصهيونية أن قولته لن تتعدى المنطقة المخصصة للعرب في قرار

التقسيم. وبالفعل التزم الأردن بهذا الوعد حرفياً تقريباً ومع تقاعس الأردن في هـذه الحرب، فقد الجانب العربي جزءاً من قواته وهو الذي كان يعاني منذ البداية من تفوق اليهود العددي. أضف إلى ذلك قول بعض المصادر التي كتبت عن الحرب أن الجيش الأردني كان هو أفضل الجيوش العربية تنظيماً. وبعد انتهاء الحرب، فـي منتـصف يوليو1949، أعرب بن غوريون عن اكتفائه باتفاقيات الهدنة وعـن عـدم حماسـه للتوصل إلى سلام مع العرب لأن ذلك يعني أن تتخلى إسـرائيل عـن جـزء مـن الأراضي التي ضمنها إليها أثناء الحرب وهو معاهدة سلام بين بلاديها بفتور أدى إلى فشل الفكرة. نفس هذا الموقف تكرر مع كل من مصر وسوريا. ففي أكتـوبر 1948، عندما أيقن الملك فاروق خسارة الحرب، أرسل مبعوثين سريين يبلغون بن جوريون ورفاقه باستعداد مصر التوصل إلى سلام مع إسرائيل إذا ما قبلت الثانية التخلي عـن كل أو جزء من صحراء النقب إلى جانب الاعتراف بضم مصر لقطاع غزة وهو ما رفضه بن جوريون بشكل قاطع. هذا الرفض كان أيضاً من نصيب القائـد الـسوري حسني الزعيم الذي قدم لإسرائيل عدة مقترحات للسلام في جوليـه 1949 وعـرض عليها توطين جزء من اللاجئين الفلسطينيين في سوريا في مقابل شريط مـن الأرض على نهر الأردن.

وأخيراً، كشف المؤرخون الجدد أن اليهود أيضاً كانوا فـي بعـض الأحيـان ضحايا للصهيونية وذلك عن طريق تحليل موقفها من الهولوكست ومعاملتها لليهـود الشرقيين المجاهرين إليها. فإسرائيل قد استغلت مذابح النازية ضد اليهود بما يخـدم أهدافها الخاصة سواء لتعزيز شرعية وجودها، أو كسب تعاطف العالم والغرب بصفة خاصة وبالتالي الحصول على التأييد السياسي والعسكري والمادي الذي كانت بحاجة إليه. ومع ذلك، فعندما حدثت هذه المذابح تقاعس زعماء الـصهيونية وخاصـة بـن جوريون عن محاولة تقديم العون لليهود وإنقاذهم من هتلر. فقد رأى هؤلاء الزعماء أن مهمتهم تتخلص في إقامة دولة يهودية في فلسطين وليس إنقاذ اليهـود، وبالتـالي اعتبروا أن يحدث لهؤلاء اليهود يعد "كارثة طبيعية" لا حيلة لهم في منعها. أما بعـد

قيام الدولة، في السنوات الأولى لها وحتى بعد صدور قانون العودة، كانت السلطات في إسرائيل ترفض في كثير من الأحيان السماح للمسنين والمرضى بالهجرة إليها لأنهم سيكونون عالة عليها، بل وشمل هذا الرفض أيضاً المختلفين معها سياسياً مثل الشيوعيين. وهذا يثبت أنه في موضوع الهجرة، كانت معايير سلوك النخبة الحاكمة يخضع للمعايير "الإسرائيلية" وليست "الصهيونية". وفي هذا الإطار، تطرق المؤرخون الجدد لمحنة المهاجرين الشرقيين بصفتهم أكثر من عانوا من تفرقة الدولة ضدهم، وهي المشكلة التي لا يزال يعاني منها المجتمع الإسرائيلي حتى الآن.

هكذا سعى المؤرخون الجدد إلى تبديد أوهام الإسرائيليين ويهود العالم فيما يتعلق بالأساطير الصهيونية لتاريخ دولتهم. وهم لا يرون في ذلك أي انتقاص لإسرائيليتهم ولكن محاولة لكشف نقائصها من أجل معالجتها ودفع هذا المجتمع إلى التصالح مع نفسه ومع الآخرين. ونظراً لحداثة هذه الظاهرة، فإن تأثير هؤلاء المؤرخين لا يزال داخل الدوائر الأكاديمية، خاصة وأنهم يتعرضون لحرب شعواء من الدوائر الرسمية في الدولة التي لا تزال ترى في كشف هذه الفصول من التاريخ إضعاف لموقف إسرائيل خاصة في المرحلة الحالية التي تتفاوض فيها مع الفلسطينيين للتوصل إلى تسوية نهائية للصراع بينهما والتي يطالب فيها الفلسطينيون بإقامة دولة مستقلة لهم في الضفة الغربية وغزة، وأيضاً من كتاب " التاريخ القديم" الذين يتهمونهم بالخيانة والعمل على تقويض دولة إسرائيل. وعلى هذا، فهم مطاردون في الجامعات الإسرائيلية ويفتقرون إلى المساندة التي تنقل أفكارهم إلى القطاعات العريضة في المجتمع. ومع ذلكن فلم يعد بالإمكان تجاهل الحقائق الجديدة التي كشف عنها هؤلاء المؤرخون كلياً.

وقد ظهر هذا في احتفالات إسرائيل بالذكرى الخمسين لقيامها، حيث قدم التلفزيون الإسرائيلي فيلماً وثائقياً في هذه المناسبة تضمن إشارة إلى ما قاله المؤرخون الجدد عن طرد الفلسطينيين في حرب 1948. وعلى الرغم من صغر هذه الإشارة وعدم ذكرها للحقيقة بأكملها، حيث ذكر أن نصف الفلسطينيين هربوا بينما تم

طرد النصف الآخر، إلا أن مغزاها كان كبيراً. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتناول فيها الإعلام الإسرائيلي مشكلة اللاجئين وهي تمثل موضوع شديد الحساسية بالنسبة لإسرائيل ولذا كانت تتعمد تجاهله. وثانياً أن هذا الإعلام لم يردد الدعاية الذي ظل يروج لها لعقود طويلة وهي أن إسرائيل لا ذنب لها في هذه المشكلة لأن الفلسطينيين هم الذين تركوا ديارهم بكامل إرادتهم. كما جاء ذكر دير ياسين في هذا الفيلم وبأنها لم تكن المذبحة الوحيد التي ارتكبت ضد الفلسطينيين. كما نشرت الصحافة الإسرائيلية مؤخراً استعانة مدرس في إحدى المدارس بكتاب يعرض وجهة نظر المؤرخين الجدد، وهو ما أثار القوى اليمينية ودافع عنها وزير التعليم اليساري. وبذلك يمكن التنبؤ بمزيد من الانتشار لأفكار هذا الاتجاه، أو على الأقل قد لا يكون من السهل تجاهلها في المستقبل.

هوامش الفصل الثاني

1-Orr, Akiva. 1994. Israel:Politics, Myths And Identity Crisis. London : Oluto Press.

2- Beit- Hallahmi, Benjamin. 1993. Original Sins: Reflection on the History of Zionism and Israel. New York: Olive Branch Press.

3ـ المصدر السابق ص 122

4 ـ إيمان حمدي 1997 "الأحزاب الإسرائيلية واستيعاب المهاجرين في الأحـزاب والتنمية في الوطن العربي وخارجه، تحرير د. مصطفى كامل الـسيد ود. صـلاح زرنوقة، مركز دراسات الدول النامية.

5- Melman Yossi. 1992 "The Crisis In The Kibbutz Movementz, 1949-1961" In Israel: The First Decade Of In- Dependence, Edited By S. Ilan Troe And Gucas. New York: State Universtiy Of New York Press

6- Jones, Clive. 1996. Soviet Jewish Aliyah, 1989-1992: Impact and Implications for Israel and The Middle East. London: Frank Cass.

7- Jones, p. 141

8- Frankel, Glenn. 1994. Beyond The Promised Land : Jews And Arabs On the Hard Road To A New Israel. New York: Simon And Schuster.

9ـ سعد أحمد 1991 " الهجرة اليهودية الراهنة في موازنة التطـور الاقتـصادي – الاجتماعي في إسرائيل"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد8، خريف، ص308.

10 ـ سعد، المصدر السابق، ص 308.

11 ـ سعد، المصدر السابق، ص 309.

12- Melmen: p.13.

13- Jones: p.144.

14 ـ جبور، سمير،1990 "الهجرة الجماعية ليهود الاتحاد السوفيتي إلى إسـرائيل: تحد للعرب وامتحان للصهيونية"، مجلة الدراسـات الفلـسطينية، العـدد2، ربيـع، ص216.

15- Mahler, Jonathan. 1997. "Uprooting The Psst: Israel's New Historians Take A Hard Look At Their Aa- Tion's Past", Linguafranca. Internet Edition

HYPERLINK Http://Www
HYPERLINK Http://Www
Http://Www
Http://Www. Linguafranca. Com/9708/Mahler. 9708. Html.

16 ـ حمدي، إيمان، 1999"حلم الصهيونية الاشتراكية ودولـة إسـرائيل"، صـامد الاقتصادي، العدد 115-116، ص 206-205.

17- smooha, samy. “Jewish Etnnicity In Israel” In Whither Israel: The Domes- Tic Challenges, Edited By Keith Kyle And Joel Peters. London: L,B. Tauris. 1993. P167-168.

-18إيمان حمدي، حلم الصهيوني، ص206.

19- Rejwan, Nissim. Israel’s Place In The Middle East: A Plualist Perspective. Gainsevill, Univers- ity Press Of Florida, 1998,p,141

20- Smooha, p.163.

21-Rejwam:p.148.

22- Rejwam:p.148.

23- Heller, Celia S.” The Emerging Consciousness of the Ethnic Problem among the Jews of Israel” In Israel: Social Structure and Chang, Edited by Michael Curtis and Mordechai S. Chertoff. New Brun- swick: Transaction Books. 1973.p322

24-Hoffman, Gil. “Ashkenaz blind to Social Gap”, The Jerusalem Post Daily Internet Edition, July 31. 1998.

25- Rejwan. P.150.

26- Liebman, Charles s. “Religion And Democracy In Israel” In Is- sraeli Democracy Under Stress, Edit- Ed By Ehud Sprinzak And Larry Diamond. Boulder: Lynne Rienner Publishers. 1993.p.278.

27 ـ إيمان حمدي، حلم الصهيونية، مصدر سبق ذكره، ص205.

28 ـ جريدة "الحياة" اللندنية، 22/7/1997.ص5

29- Melman, p.108-109.

30- Melman, p.112-113.

31- Melman, p.112-115.

32- Melman, p.120.
33- Beit- Hallahmi,p.151.
34- Beit- Hallahmi p.150.
35-Goel,Yosef."Educators:Orthodox Hegemony Threatens Secular School System.
36- Melman, p.126-128.
37- Melman, p.129-130.
38- Melman, p.197.
39 ـ إيمان حمدي، حلم الصهيونية، مصدر سبق ذكره، ص 208.
40ـ سعد، مصدر سبق ذكره، ص 208.
41- Haaretz Internet Edie-Tion, 11/12/1999.
42- Melman, p.217,214.
43-Garfinkle,Adam. Politics and Society in Modern Israel: Myths and Realities. New York: M.E Sharp. 1997.p.134.
44ـ إيمان حمدي، حلم الصهيونية، مصدر سبق ذكره، ص210.
45- Melman, p.200.
46- Melman, p.200.
47ـ إيمان حمدي المؤرخون الجدد وهدم الأساطير الصهيونية، مختارات إسرائيلية، العدد 53، مايو1999، ص 60-56.

الباب الثاني:
الروافد الاجتماعية والأدبية

الفصل الأول:
الدراسات الاجتماعية
و ات ا ياة الأدبية

كان مركز الجليل للأبحاث الاجتماعية قد نظم، في حيفا، حلقة نقاش، حول موضوع العرب في العلوم الاجتماعية الإسرائيلية، شارك فيه الباحثون : د. احمـد سـعدي، المحاضر في جامعة بئر السبع، والأستاذ إسماعيل ناشف، المحاضـر فـي جامعـة بيرزيت، والبروفيسور اورن يفتاحئيل المحاضر في جامعة بئر السبع، والدكتور ايلان بابيه، المحاضر في جامعة حيفا، وقد افتتح الحلقة وأدارها الدكتور خليل ريناوي، من مركز الجليل، الذي سرد التغيرات النظرية التي حدثت للعلوم الاجتماعية الإسرائيلية، وذكر أسبابها وأبعادها، وقال إن النظريات الإسرائيلية كانت كلها، مبنية علي أسـس أيديولوجية شخصية، غير مرتبطة بالواقع، وكأن النظريات هي شئ نابع من تـصور فكري مجرد، وغير مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية والسياسية!

فقد انتشرت في إسرائيل، لدي بعض الباحثين العرب، نظريـة عرفـت بنظريـة "الحداثة" Modernization theory وهي من اكثر النظريـات المرتبطـة بـالفكر الغربي، التي بُنيت على أساسين:

1ـ بناء دولة عن طريق صهر المجموعات المختلفة الفئوية فـي مجتمـع متخيـل (حسب أند رسون) Community imagined.

2ـ الانتقال من البدائية إلى التحضر، أو الى التمدن عن طريق المقابلة.

ونظرية "الحداثة" هي النظرية الأساسية التي بُني عليها الفكر الأوروبي في نهايـة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فمثلاً، تحدث كل المفكرين الأوروبيـين (ماركس،هيجل، وغيرهما) عن تطور من حالة البدائية إلى التحضر والتمدن. وحسب هذه النظرية، رأى المفكر الصهيوني هرتسل، أن المجتمع العربي مجتمـع بـدائي، وتبنى هذه النظرية التي نظرت الى العرب، مثلما نظر كارل ماركس للهند بأنهـا لا يمكن أن تتطور إلا بتغيير خارجي. وما حدث أن الصهيونية أتت لفلسطين و أدخلت تغييراً علي المبني الاجتماعي الفلسطيني السابق. وقد أعطت هـذه النظريـة دعمـاً أيديولوجيا للسياسات المتبعة، لأنها تقول بأنه لا يمكن دمج العرب وتطبيق المـساواة لان العرب متخلفون.

وفي سنة 1999 بدأ عالم الإجتماع الإسرائيلي سامي سموحا في تطوير ما يـسمي بـ "الديموقراطية الإثنية" فألغي العامل التطوري وذكر نوعـاً جديـداً مـن النظـام الديمقراطي، تكون فيه الدولة منحازة لمجموعة اثنية معينة، والدولة أداه بيد الأغلبيـة اليهودية، في حين أن العرب يمكن أن يطالبوا بتحسينات لظروف حيـاتهم المعيـشية (تعليم وميزانيات قرى) لكن لا يمكنهم تغيير نمط الدولة، التي يجـب أن تبقـي أداه لتحقيق الأهداف الصهيونية. وطبعاً كان جزء كبير من هذه الأهداف يتم تحقيقه علي حساب العرب. ولكن هذه هي الديمقراطية التي يراها: ميكانيكية، وقوانين تسير حسب رغبات الأغلبية اليهودية!

وأشار سامي سموحا أيضاً إلى المفاوضات السياسية بين الأحـزاب. مـثلا إذا كـان

حزب العمل في الحكم، وأيده العرب، فمن الممكن أن يحققوا أهدافاً ومطالب اكثـر. ومن الواضح أن سامي سموحا يحاول دعم الوضع القائم، ويقول ان الوضـع القـائم مستمر حسب الأنموذج النظري، وهذا الوضع هو افضل الاحتمـالات للعـرب. لأن الغالبية العظمي من العرب تؤيد أنموذج الديمقراطية الإثنية، وسموحا يدافع عن هـذا النظام كديمقراطي، وان علي دول أخرى تبني هذا النوع من الديمقراطية مثل مصر. وسامي سموحا يحاول بهذا الأنموذج إضفاء وجه جديد للنظام الإسرائيلي لا سيما وأن نظرية "الحداثة" لم تتلاءم مع الواقع الإسرائيلي وتغيراته. والحداثة لا يمكنها إعطـاء تفسيرات لهذا الوضع ( )

وفي هذا السياق، أضيفت من خلال عدة مقالات، لسموحا، بعض التغييرات الإضافية. ففي مقال بعنوان "المجتمع المدني العربي" Arab Civil Society يتحـدث عـن ظهور مجتمع مدني فلسطيني في إسرائيل، وعن إحياء المجتمع المدني بتأثير العولمة (globalization). فالفكرة السائدة عن العولمة، أن من شأنها إضعاف الدولة الوطنية (nation state) وزيادة قوة المؤسسات العالمية والمحلية. ورأى سـموحا أن هنـاك أهمية لدراسة المجتمع المدني من جديـد، خاصـة بازديـاد عمليـة الخصخـصة والمؤسسات البيروقراطية المسيطرة. في الواقع أن هذه الفكرة بدائية عـن العولمـة. فاليوم يتضح أن الدول التي تخلت عن سيطرتها هي الدول الـضعيفة ودول العـالم الثالث. والعولمة زادت من سيطرة الدول الاستعمارية السابقة على دول العالم الثالث، وأيضاً بسب تدخل البنك وصندوق النقد الدوليين، في اقتصاديات العالم الثالث. وليس التدخل فقط، وإنما فرض نهج اقتصادي علي العالم الثالث. وكان السؤال الذي يطرح نفسه في سياق الحديث عن مجتمع مدني فلسطيني في إسرائيل: هل هنـاك مجتمـع عربي مدني في إسرائيل؟ المؤيدون لفكرة مجتمع مدني عربي في إسرائيل، يشيرون إلى المؤسسات المختلفة، الاجتماعية والسياسية (لجنة المتابعة وغيرها).

وفي الواقع، لا يمكن الحديث عن مجتمع مدني فلسطيني في إسرائيل، بل إن النظـر لغالبية المؤسسات الفلسطينية في إسرائيل كمجتمع مدني هي نظـرة خاطئـة وذلـك

لسببين، أولهما أنه لا يزال هناك تأثير لعوامـل البحـث عـن خلفيـة اجتماعيـة، دينية،طائفية، عشائرية، بينما من طبيعة مؤسسات المجتمع المدني، أنها مبنية علـي أساس ليبرالي وعلى اساس احترام الفرد، بصرف النظر عـن انتماءاتـه الأخـرى. وواضح أن المجتمع المدني العربي في إسرائيل، لا يزال يأخذ هذه العوامـل بعـين الاعتبار (القائمة الإسلامية مبنية علي أساس ديني، ولجنة المتابعة عبارة عن رؤساء مجالس منتخبين علي أساس عشائري). وثانياً، لم يُكتب عن المجتمع العربـي فـي إسرائيل، ما فيه الكفاية. فهناك كتابات عن فترة الحكم العسكري، ولكن لا يوجـد أي بحث علمي عن حياة المجتمع العربي. ففي سنوات الخمسينيات والـستينيات، كانـت هناك مجموعة مناضلة مثل اللجان الشعبية والقوى المقاومة، ولم يكتـب عـن هـذه اللجان والقوى أي شئ، بالتالي لم تكتب حياة المجتمع الفلسطيني في إسرائيل. وبمـا أن إسرائيل تعتبر جزءا من العالم الغربي، فإن كل النظريات التي اسـتعملت لبحـث قضايا المجتمع العربي داخل إسرائيل، كانت نظريات وأفكار غربية. بناءً على ذلـك فإن ما كُتِبَ حتى من قِبل الباحثين العرب عن المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، كـان قليلاً جداً، وكان الضعف النظري، في علم الاجتماع هو أحد نواقص المجتمع العربي داخل دولة إسرائيل، إذ لا يمكن دراسة مجتمع دون معرفتـه، مـن خـلال نظـرة استعلائية أو استشراقية أو محاولة إظهار إيجابيات الذات، من خلال إظهار سـلبيات الآخر. وفي الحقيقية، أصبح من الضروري، إعادة كتابة - أو إعادة بناء - تـاريخ العرب في إسرائيل (Reconstruction of History) وإلا بقي جيـل الخمـسينيات والستينيات من هؤلاء العرب دون تاريخ!

وظهرت في علم الاجتماع الإسرائيلي، في الآونة الأخيرة، أنماط جديدة من التفكير يمثلها بعض المختصين مثل داني رابينوفيتش وإيلان بابيه. فهؤلاء يرون - مـثلاً - أن كل الذين أيدوا وضعية التمييز القائمة في إسرائيل، يقبلون بأن تتعامل إسرائيل مع اليهود علي أساس ديني (حتى اليهود الموجودين في الولايات المتحدة) وتتعامل مـع العرب علي أساس قومي وليس علي أساس كونهم مواطنين. واللافت أن المـواطنين

العرب داخل الدولة العبرية كانوا يطالبونها بالمحافظة على كرامتهم، لأنهـم سـكان الدولة الأصليون، لكن هذا الادعاء اختفي قي الفترة الأخيرة!

وكانت نخبة المجتمع العربي داخل الدولة العبرية، تتحسس واجب وضرورة فحص موضوع العولمة والخصخصة، وفرضية تراجع الدولة، وأثرها على مـستقبلهم، لأن إحدى مشكلات الدراسات والأبحاث الاجتماعية حول الفلسطينيين في إسرائيل، هـي استعمال مصطلحات أكل الدهر عليها وشرب، مثل الاسرله والفلسطنة!

الوعي الريفي الفلسطيني داخل إسرائيل

في حلقة النقاش ذاتها (التي نظمها مركز الجليل للأبحاث الاجتماعية في حيفا) تحدث د. اسماعيل الناشف، فقال إن وسائل وأشكال التهمـيش والـسيطرة فـي الحـالات الاستعمارية الأوروبية متعددة، ولكنها محدودة بذات الوقت، لأن "التعدد والمحدوديـة برأيه مشروطان تاريخياً، بالسياسة وبالتاريخ الأوروبي وبـسياسة التـاريخ للبلـدان المستعمرة في آسيا، أفريقيا، وجنوب شمال أمريكيا" ( )!

ورأى الناشف وآخرون، أن المعركة والسيطرة وعلاقة المعرفة والقوة في المرحلة ما بعد الفوكوية (أي ما بعد فوكو) حسمت مفهوم الموضوعية بشكل عام، فـي العلـوم الاجتماعية. وهي النقطة التي ذكرها د. احمد سعدي بأنه لا توجد نظرية في فـراغ، إنما النظرية تتفاعل مع الواقع. بهذا المعني لا يوجد شئ موضـوعي ولا توجـد أداة تحليلية (analytical tool) قائمة بحد ذاتها!

وتحدث د. الناشف عن إنتاج المعرفة الاجتماعية في الحالة الاستعمارية، وتحديداً عن إعادة إنتاج المعرفة من قبل فلسطينيّي الأراضي المحتلة منذ العام 48 في المؤسـسة الأكاديمية الإسرائيلية، أي عن الكيفيات التي تشتق من جملة أنماط وعي، ويتم عبرها إعادة إنتاج الخطاب الاجتماعي الأكاديمي الإسرائيلي، من قبل باحثين وباحثات مـن فلسطين، يعملون فعلياً ومجازاً (أي من نفس الخطاب) داخل تلك المؤسسات، التي هي بالضرورة جزء من الحالة الاستعمارية لفلسطين الانتدابية!

فالوعي القائم، بالنسبة للفلسطينين العرب، الـذين يدرسـون العلـوم الاجتماعيـة

والتاريخ، في داخل الدولة العبرية، يبحثون الحالة الفلسطينية فقط، لأن هذه هي إحدى آليّات الاستيعاب، وهي انعكاس لحالة وعي لدى الفلسطينيّين، لكنه وعي تابع للمركز الاستعماري الإسرائيلي، في عملية إنتاج المعرفة، الأمر الذي جعل أساتذة الاجتمـاع الفلسطينيين، داخل إسرائيل، ينظرون للوضع القائم باعتباره حالة استعمارية!

فالحالة الاستعمارية كثّفت نوعاً من الوعي المسيطر، يعتمد على "غرامشي" كأسـاس نظري، وعلى كتابات فيصل دراج، وما تتضمنه عن مفهوم الـوعي الريفـي الـذي يستعمله كي يشخّص "بؤس المثقف الفلسطيني في المجتمع الفلـسطيني بـشكل عـام وعلاقته مع منظمة التحرير الفلسطينية بشكل خاص". هو ينظر للمثقـف الفلـسطيني ووعيه الريفي، وكيف يعمل هذا المثقف داخل المجتمع الفلسطيني ومنظمة التحرير!

ورأى د. اسماعيل الناشف، أن جزءاً كبيراً من الباحثين الفلسطينيين والباحثات داخل المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية، لديهم تجل لنوع من أنواع الوعي الريفـي، بهـذا الشكل أو ذاك. فهذا النوع من الوعي الريفي، هو الذي يميز غالب مثقفي ومثقفـات 48 داخل المؤسسة الإسرائيلية، ويلعب دور الوسيط، بين الجمهور والحاكم. لكن مـا يعطي الخصوصية لهذه العلاقة فـي المجتمـع العربـي، هـو علاقـة المـستعمِر والمستعمَر.أي أن الجمهور والحاكم ليسوا من نفس القومية. والمثقف الفلسطيني فـي أجهزة منظمة التحرير لم يتجاوز وعيه الريفي كمثقف. ويقول د. الناشف، أنه حتـى مثقف مثل محمود درويش داخل المنظمة، لم يتجاوز وعيه الريفي. ففي مؤتمر اتحاد الكتاب العرب في اليمن، بعد الانسحاب من بيروت، قال محمود درويـش: إن كـل كتابة خارج مؤسسة، هي كتابة غير شرعية. السؤال كيف يتجلى هذا الـوعي لـدي الباحثين في العلوم الاجتماعية؟.

وتناول د. الناشف بنقده مقالاً لأحد المحللين من فلسطينيي 48 وهو د. أسعد غـانم، نُشر في مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد41، تحـت عنـوان" دولـة فلـسطينية - إسرائيلية ثنائية القومية: نحو حل اتحادي للمسألة الفلسطينية الإسرائيلية". فـي هـذا المقال وجد غانم أنه لا إمكانيّة لأي نوع أو شكل للوضع القائم سـوي بنـاء إطـار

سياسي، يضم القومية الفلسطينية والقومية اليهودية، أي دولة ثنائية القوميـة، ليقـول بشكل قاطع إنه لا يوجد إمكانية أخرى!

واقتبس الناشف من صفحة4 من المقال، حيث يقول اسعد غانم:" ادعاؤنا الأساسي في هذه الدراسة، هو أن الإطارات المتنوّعة تحول الفصل السياسي إلى حل يبدو أنـه لا يمتّ إلى الموضوع بصلة، وأنه غير قابل للتطبيق، وأنه غير مؤهل للتعامل بصورة فعّالة مع المشكلة التي نواجهها. وإضافة إلى ذلك، فإنّ حلاً ينطـوي علـى تطـوير ديمقراطية ليبرالية، غير ممكن، بسبب الطبيعة الاثنية للحركـة القوميـة اليهوديـة والحركة الوطنية الفلسطينية، ما لا يسمح بتطوير هويّة مدنية مشتركة، لذلك فإن الحل الوحيد المتبقّي الذي يسمح بتحقيق تسوية إسرائيلية - فلسطينية يجب أن يقوم علـى إنشاء دولة ثنائية إسرائيلية فلسطينية علي أرض فلسطين الانتدابية".

فالمقال يبدأ بسرد تاريخي لفكرة دولة ثنائية القومية، ويذكر أن الفكرة أثيرت من قبل اليهود في نهاية القرن التاسع عشر، ولم يكن هناك فلسطيني واحد يثني على الفكرة. والقسم الثاني من المقال يسرد العوامل التي تمنع الفصل بين إسـرائيل و"المنـاطق" (المحتلة في العام 1967)!

ويعدد أسعد غانم، في مقالته التي قدم د. الناشف نقداً لها، العوامـل التـي تؤكـد أن الفصل غير ممكن، ويقول إن هناك توقعات مختلفة من الفـصل، لأن كـل جانـب (الفلسطيني والإسرائيلي) لديه توقعات مختلفة من الفصل، وبـسبب الاخـتلاف فـي التوقعات، فإن الحلّ الأفضل هو إطار سياسي ثنائي القوميّة. ومـن الأشـياء التـي تصعّب عمليّة الفصل الموانئ، المطارات، والمستوطنات، ثم يتحدث عـن القـدس الشرقية، وعن اللاجئين الفلسطينيين، ثم يبدأ بالحديث عن مَن يـدعم الحـل، ومّـن يرفضه، وبعدها يوضح الأنموذج!

وقال د. الناشف إن هذا المقال لا يشذّ عن المقال الأكـاديمي التقليـدي فـي بنيتـه. وتساءل: ما هي الآليات التي تستعمل في إنتاج هذا النص؟ فأجاب: أولاً، مَـن هـي المرجعية الفكرية والسياسية لهذا النص، المرجعية هي كتابات الحركـة الـصهيونية

التاريخية والأكاديمية والسياسية. ثانياً: اللغة التي يستعملها، مثلاً: "منْح الفلـسطينيين" مقابل الحديث عن المفكرين اليهود مثلاً "هؤلاء المفكرون الـذين طرحـوا الفكـرة"، "الأفكار المتعددة التي طرحها المفكرون والقادة اليهـود"، فاللغـة تـذويت لعلاقـات السيطرة القائمة خارج النص(الحاكم والمحكوم - الفاعـل والمفعـول - المـسيطِر والمسيطَر عليه) يتم تذويبها وإعادة إنتاجها كنص علمي. ثالثاً، أحادية الخطـاب، أي في الوضع القائم لا حل سوي التعايش بإطار سياسي واحد - كلّنا نعرف بأنه ليـست هناك حالة اجتماعية بشريّة، لها فقط حل واحد، هناك عدّة إمكانيات واختيار إمكانيـة واحدة ومحددة، هي فعل سياسي أيديولوجي.( )

الآلية الرابعة هي"عنصر رمزي". بعد اختزال الواقع الذي نعيشه لإمكانيـة واحـدة سيقوم بإخضاع المجتمع لعملية تحويلية. وعمليـة الإخـضاع هـي عمليـة عنـف بالضرورة. "ومثل هذا التغيير سيتطلب من الجماعتين السكانيتين أن يخضعا لتحـول رئيسي في مواقفهما التربوية وفي موقف كل منها من الأخرى... استمراراً للتغيرات التي علي المجتمعين أن يخضعا لها، فإن علي الدولتين - إسرائيل والكيان الفلسطيني - أن يخضعا لتغيرات جارحة". فالآليات هي آليات قبول القائم وليس تجاوزه. أي أنّ أمامنا خيار واحد، مرجعيته التاريخية هي الحركة الصهيونيّة، وتجلّي هذا الخيار في دولة إسرائيل عن طريق مؤسساتها السياسية والأكاديمية، ونحن علينا أن نقبل هـذه الإمكانية وأن نخضع للتغيرات الحاصلة. وهنا يوجد زمن تاريخي لم يتم التطرق لـه - أي إننا موجودون في صراع تاريخي - وهو يأخذ البنية القائمة اليوم فقط. ( )

"وقد بدا علم الاجتماع الإسرائيلي سامي سموحا منذ هذا العام 1990 بترويج أنموذج سماه "الديمقراطية الاثنية"، وقال: إن إسرائيل تمثّل نوعاً خاصاً من الديمقراطية. نظام الديمقراطية الاثنية، وهو سيطرة الأغلبية علي الدولة مع الـسماح للأقليـة بتحـسين وضعها "عبر وسائل ديمقراطية".( )

وكان أنموذج الديمقراطية الأثنية - كمرافعة أيديولوجية - تتجلـى سـماته بطـرق مختلفة، من خلال استخدام ثلاث أدوات - وهي حسب رأيي نفس الأدوات المعرفيـة

التي تمثلها أسعد غانم.

ـ الأداة الأولي: التطبيع. فنظريات سموحا، تهدف إلى تقديم النظام الإسرائيلي لـيس كخيار يتّسم بالإجابة فحسب، ولكن باعتباره الخيار الوحيد القابل للحياة أيضاً، وهذا ما يقوله اسعد غانم، دولة ثنائية القومية، هي الخيار الوحيد القابل للحياة، كل الإمكانيات التي طرحها غير قابلة للحياة، وهو يقوم بتطبيع هذا المفهوم.

ـ الأداة الثانية: هي التعميم: تُضفي الشرعية حسب هذا المبدأ، علي الواقـع الـشاذ، بسبب سياسته. الحالة الاستعمارية وضع شاذ، لكن لأن هذا الوضع مسيطر فيتحـوّل إلى وضع شرعي. وبموجبه ـ حسب اسعد غانم ـ يصبح مفهوماً ضمناً بأن إسرائيل دولة قومية، ولذلك ينقلنا إلى الأداة الثانية الذي هو التعميم. اسعد غـانم تبنّـي هـذه الأدوات في النص الذي يُسوق للفلسطينيين.

ـ الأداة الثالثة: هي لغة القوة والسلطة: "الديمقراطية الاثنية، لدى سموحا عندما يحلّل الأسس التي يقوم عليها النظام. فالبقاء بلا انقطاع ليس بسبب قناعة المواطنين بعدالته، ولا بسبب صفاته الأخلاقية أو بسبب الطبيعة العملية، لما يتخذه من إجراءات، بل لأنّ القوّة والقوة وحدها هي الضمان للاستمرار". يقتبس سموحا: "لا شك بأن اليهود فـي المدى المنظور، وبفرض قوتهم وتصميمهم و إحساسهم بالصواب لـن يتخلـوا عـن هيمنتهم". ويتحدث اسعد غانم، المحلل الأكاديمي المتأثر بمناهج البحث الإسـرائيلية، بنفس الأسلوب عن الخضوع. ( )

وبالعودة إلى موضوع الوعي الريفي، والمثقف كوسيط بين المـستعمِر والمـستعمَر، نلاحظ وجود آليات أخذها المستعمِر وسامي سموحا، هي عبارة عن بـوق لمؤسـسة كاملة. أسعد غانم أخذ هذه الآليات ومنها بني النص وأعطانا إيّاها كمعرفة أكاديميـة، بسبب موقعه كوسيط.( )

هنا تتبدى تجليات الوعي الريفي التي تحدث عنها غرامشي وحاول فيـصل دراج، تطبيقها علي المثقف الفلسطيني داخل منظمة التحرير وباقي المجتمع الفلسطيني بشكل عام. ويصبح السؤال هو شيوع الوعي الريفي وكيف تطور تاريخياً؟ ولماذا تسود هذه

الملامح في المجتمع الفلسطيني، بغض النظر عن المؤسسة، إن كانت اسـتعمارية أو منظمة التحرير، كتمثيل للبرجوازية الفلسطينية في مواقعها المختلفة؟!

ويوجد نموذج آخر للمثقف، أو لمُنتج المعرفة، هو محمد أركـون، الـذي يُعـرّف الباحث المفكر بقوله "على الرغم من أن تاريخ فلسطين مشبع بالأسى، فـإن وظيفـة المثقف الفلسطيني، لم تختلف عن وظيفة المفكر الآخر، الذي عاش أحوالاً شـبيهه أو قريبة، تشتق صورة المثقف الفلسطيني نظرياً، من ملامح المثقف النقدي الذي يـربط أحلام البشر بوسائل تحقيقها، يستوي في ذلك الطهطاوي، فرانز فانون، جمال حمدان، وغيرهم الكثير، إذ ينتقل المثقف من المعرفة إلى مصالح البشر، ويقرأ هذه المصالح، ليعيد صياغة المعرفة التي في حوزته، كأن تَقَدم، معرفته مشروط بتقـدم اجتمـاعي عام. أي تتمثل وظيفة المثقف النقدي، بكشف وجوه وضع إنساني سلبي، والمقـدمات التي قادت إليه، والعراقيل التي تحدّ تجاوزه، أي أنّ دور المثقف هو التقـصّي عـن سببّيه متعددة الوجود والأشكال، تكشف أسباب التفكّك، وتشرح الأسباب التي تمكّـن وتحافظ على التفكك..."( ).

ويبدو الوعي الريفي متجذّراً في الحالة الاستعمارية. أي أن هناك تفاعل بين الحالة الاستعمارية ونمط من الوعي الموجود مسبقاً. وهذا التفاعل أدي إلى تواجد هذا النمط من الوعي. إذا أردنا تجاوز هذه التبعية وهذا الوعي التابع للمركز الاستعماري، علينا أن نفكر بأشكال تجليّات لأنواع أخرى من الوعي. والوعي الريفي شائع ليس فقط لدي الأكاديميين، إنما لدى الطبقة التي لا يحب أحد من الوطنيين أن يتبعها بشكل مباشـر، لا سيما المعلمون والمعلمات، المفتشون والمفتشات الذين توجد لهـم نفـس الجـذور الطبقية - وتبقى العلاقة نفسها حتى لو تغيّر الخطاب، من أستاذ المدرسة إلي أسـتاذ في الجامعة. فالأكاديميون الفلسطينيون في الدولة العبرية، اليوم، هم أكاديميون جدد، يختلفون عن الأكاديميين الفلسطينيين في سنوات ما قبل العام 48، لان مرجعيتهم هي الأكاديمية الإسرائيلية.( )



بعد تمحيص منهج تدريس التاريخ في المدارس العبرية، في كافة المراحل، مع التشديد على المرحلتين الإعدادية والثانوية، اتجهنا نحو عينة من الكتب المستخدمة فعلياً في تدريس المواضيع، منها ما وضع قبل ثلاثة عقود ومنها قبل خمس سنوات.

وعند التدقيق في طريقة عرض تاريخ اليهود في العالم، عبر العصور، مع التركيز علي القرن العشرين، تبينت لنا التوجهات علي النحو التالي:

اليهودي هو الضحية الملاحقة دائماً، وهناك تكرار لأحداث تاريخية مثل اللاسامية. وحق التفوق والنخبة، كشعب مختار ليس فقط دينياً. والهولوكوست كمأتم لا ينتهي أبداً. والانتقائية قائمة للأحداث التاريخية، ولسيرة الآخر في كتب تدريس التاريخ وبشكل خاص العربي والفلسطيني. وصورة العربي والمسلم والفلسطيني في نفس الكتب. ونسأل في النهاية السؤال التالي: هل تتوجه هذه الكتب نحو تربية تاريخية صرفة أم نحو تربية عسكرية اسبرطية؟!

ورد ما يلي في منهج تدريس التاريخ للمرحلة الإعدادية، في المدارس العبرية، اصدار جديد لعام 1993:

بند 7,4 تحسين القدرة علي فهم موقف الآخر من وجه نظر الإسرائيلي لا من وجهة نظر محايدة!

بند 7,5 تحسين المعرفة علي أنه توجد نقاط اختلاف عديدة والتي يمكن تقبلها بالنسبة لقضايا قومية.

بند 8,1 معرفة خصوصية شعب إسرائيل بين الشعوب من حيث ماهيته ومصيره.

بند 8,4 الاعتراف بالمصير المشترك الواحد للشعب اليهودي علي مختلف طوائفه وجالياته.

هل تحقق كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية، ما ورد في بندي 7و8 من المناهج؟ أم أن خطوط التدريس تسير في الاتجاه الانتقائي والفوقي والعدائي؟

تكرار واستمرار كراهية اليهود

وعلى امتداد هذه المناهج، لم تكن كراهية اليهود حدثاً وحيداً في حيزي الزمان

والمكان، بل تجلت الكراهية في عدة أشكال وعلي مدار قرون، وتأخذ كتب تـدريس التاريخ في المدارس العبرية، هذا الأمر لتظهره في كل فترة زمنية علي اعتبار انـه يلاحق اليهود أفراداً وجماعة دينية أو قومية، بمعنى أن الكراهية أصبحت متلاصـقة باليهود عبر التاريخ. وأكثر من ذلك نجح اليهود وبخاصة رجال السياسة والـصحافة والمؤرخين في تطوير مصطلح اللاسامية بواسطة رفعه كشعار دائم لا ينتهي، كلمـا كان هناك اعتداء لفظي أو كتابي أو عملي علي اليهود في موقـع مـا مـن الكـرة الأرضية. أعتقد ودون أدنى شك، ان إثارة موضوع الكراهية وتجلياتها في مظـاهر اللاسامية، في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ما هي إلا عملية مدروسة ونفعية لدى قطاع سياسي وفكري يهودي واسع.

ولو عدنا إلى كتب تدريس التاريخ لوجدنا بروز خط التكرار في إثارة الموضـوع. فعلى سبيل المثال، يشير كتاب التاريخ للصف السابع" اليهود بين المسيحة والإسـلام" (إصدار وزارة المعارف الإسرائيلية) إلي" أن جموع المسيحيين لم تكتفِ بمنع بنـاء كنس جديدة أو ترميم القديم منها. ويمثل هذه الجمـوع المتحرضـة، قـادة رهبـان مسيحيون، كانوا يمرون في قرى يهودية ويهجمون على الكـنس فيهـا، يـسرقونها وينهبونها ويشعلون النار فيها".ص14

هذا في العصور الوسطى، وتتابعاً للموضوع نفسه فإن "ما قامـت بـه الحمـلات الصليبية منذ انطلاقها من أوروبا، إثر صرخة البابا اوربانوس الثاني في كليرمونـت بفرنسا، وحتى وصولها إلي الشرق، دمرت قرى وكنساً وكنائس ارثوذكسية كثيـرة، وعاثوا فساداً ببعض منها" (المصدر السابق ص97).

ويذهب نفس الكتاب الى اعمق من ذلك في تصوير استمرارية الكراهية ضد اليهود" بأنها ناجمة عن كون المسيحيين شعروا بمرارة في اوروبا، في العصور الوسطى من قيام اليهود بتحقيق تقدم اقتصادي، لكونهم يقرضـون المـسيحيين أمـوالاً ويجبـون الربا"(م.س.ص.98). وتم تصوير اليهودي (في هذا الكتاب) في عيون المـسيحيين، بأنه جشع وطفيلي ويكتسب عيشه من تعب الآخرين، واضطر اليهود للاتكـال أكثـر

على القروض والفائدة منها، وبهذا ألزموا على دفع ثمن الكراهية، "أي عمليات العنف والقتل التي لحقت بهم"(م.س.ص100).

ولقد رأي ايلي بار نافي، مؤلف الكتاب التدريسي" تاريخ شعب اسرائيل في القـرن العشرين" أن "إقامة اسرائيل، هي تجربة ناجحة، إذ إن آباء الصهيونية لم يتوقعوا أن تولد الدولة، من داخل افران غـاز الحـل النهـائي، وفـي عـالم مختلـف عـن عالمهم"(م.س.230).

وتؤكد كتب التدريس أن "اللاسامية هي ظاهرة قديمة، منذ قرون بعيدة. وملاحقـة اليهود ظاهرة خالدة. واللاسامية الحديثة هي استمرارية لكراهية اليهود السابقة. وهي حركة استطاعت ان تجذب إليها الكثيرين بفضل تجذر الخرافات المعاديـة لليهـود. واظهار اليهودي بأنه سلبي" (كتاب كيدوم لتحضير الطـلاب لامتحانـات التـوجيهي الاسرائيلية، أي ما يسمى بالعبرية :البغروت للعام1989، ص81).

الضحية الملاحقة دائماً

أكثر موضوع جانبي تبرزه كتب تدريس التاريخ، في المدارس العبرية، أن اليهـود كانوا وما زالوا الضحية الاكثر ملاحقة في العالم، لأهم الاسباب او اتفهها. والملاحقة هذه للضحية، لم تكن حدثاً ًتاريخياً وانتهي، إنما لها استمرارية ومتابعة بكافة الاشكال والمظاهر. ولا يتوقف الامر عند الحدث ذاته، بل إن مؤلفي كتب التـدريس يـسعون الى تصوير اليهودي بأنه ضحية الانسانية، مع أنه - أي اليهودي - لـه مـساهمات كبيرة في خدمة هذه الانسانية. ويبدو أن هؤلاء المؤلفين قد نجحوا في بناء منهجيـة الضحية، التي لا ينتهي تصويب السهام باتجاها، ونستعرض هنا بعضاً من نماذج هذا الجانب وهي كثيرة جداً:

"التطورات التي حصلت في الصناعة والزراعة، ابتداءً من القرن التاسـع عـشر، والتحولات التي طرأت علي الطبقات العاملة، يتحمل مسؤوليتها اليهودي. واليهـودي هو عامل جديد، داخل مركز اعصاب المجتمع الحديث. يتهمه اليمين بأنـه جرثومـة انقلابية، ويتهمه اليسار بأنه عميل للرأسمالية. واليمين واليسار معاً يتهمونه بأنه يسعى

الى السيطرة على العالم. انقلب اليهودي الى مركز التخويف والرعب الـذي أحدثـه التحديث في العالم" (ايلي بار نافي.م.س.ص18).

وعند طرح موضوع مظاهر اللاسامية في اوروبا، في اواخر القرن التاسع عشر، يستغل مؤلفو الكتب التدريسية، كل كبيرة وصغيرة، لجعل اليهودي الضحية الاساسية الماثلة امام مجتمعات اوروبا الكارهة له "فتوجه روسيا القيـصرية نحـو مواطنيهـا اليهود، فيضاً من التوتر القائم بين التقدم والتخلف. باسم التطور والتقدم طالب كثيرون بادخال اصلاحات علي حياة اليهود، بروح التنوير الاوروبـي والثـورة الفرنـسية، لجعلهم مواطنين مفيدين. وباسم التخلف لوحقوا واضطهدوا وقتلوا. ونادى دعاة التقدم والتخلف سوياً بسلب هوية اليهودي"(بارنافي.م.س.ص22).

وهكذا يربط مؤرخ اسرائيلي جديد، ظاهرة ملاحقة اليهود واضـطهادهم بحركيـة التقدم والتخلف. وهذا استغلال فاضح وغير حقيقي للاحداث التاريخية. بل ومخـالف للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لروسيا القيـصرية وغيرهـا مـن الـدول الاوروبية في ذلك العصر.

ويذهب بارنافي الى ابعد من ذلك عندما يربط اليهود كاقلية بتوجه الحكومات نحـو الاقليات بشكل عام فيقول:" كلما كانت الثقافة السياسية فاشـلة، كـان التوجـه نحـو الاقليات اقل تسامحاً واكثر عنفاً" و"الاقليات تشكل الضحية وتلصق بها كل التهم. وهذا ما حصل مع يهود روسيا. وكان النداء: أضربوا اليهودى، أنقذوا روسيا، يعبر عـن اليهودي الطفيلي والاستغلالي المتهم بكل ما حصل في روسيا، لهذا يجـب ضـربه، عندما يتحسن وضع روسيا"(بارنافي.ص 26) وكأن مصائب روسيا كلها مـصدرها اليهود الذين يشكلون أقلية فيها.

وفي معرض حديثه عن احوال يهود البلاد العربية والاسلامية، فإنه يقدم تناقضاً شديداً في سياقه، وكذلك لا يفوت فرصة كون اليهود "ضحية ملاحقة" فلقد نال يهود الـبلاد العربية مكانة احترام وتقدير وساهموا في الحياة اليومية والاقتصادية والاجتماعيـة، وعرفت الجاليات اليهودية فترات ازدهار ونمو، ونبغ منها علماء وحكماء معروفون،

ووصل عدد ابناء الجالية اليهودية في اليمن الي 80 الف نسمة في نهاية القرن التاسع عشر، ومعظمهم عمل في الحرف والتجارة والتصقوا بالتقاليد الدينية اليهودية، وسـط معاداة المجتمع المحيط بهم".(بارنافي.ص30) وتعرض اليهود لمضايقات وملاحقـات في الدول العربية والاسلامية. مثلاً في ايران والمغرب، وانه رغم ذلك قام الملـوك بتوفير الحماية لليهود، وتعاطفوا معهم"(بارنافي ص33).

والواضح والثابت أن أوضاع واحوال اليهود في البلاد العربية والاسلامية، كانـت أفضل بكثير من اوروبا التي كانت فيها أشكال مختلفة من التطور والتقدم والازدهار. وأكثر من ذلك فإن يهود هذه البلاد(العربية والاسلامية) تمتعوا بمكانة مرموقة وأفسح لهم المجال لتبوّء مراكز مهمة، إذ إنه ما كان بإمكانهم الوصول إلي ذلك لـو تمـت ملاحقتهم، والحقيقة أن أياً من المؤرخين اليهود لن ينجح في اقحام أفكار لاسـامية أو عنصرية علي نصوص الحقائق التاريخية المتعلقة بيهود الـبلاد العربيـة. واعتبـر بارفاني ان من تبقى من اليهود بعد العام 1948 في البلاد العربية أصبحوا رهائن بيد سلطاتها، وهو بهذا لم يخرج عن الخط السائد في كتب التاريخ، وهذا تشويه وتزيـف للحقيقة.(بارنافي ص128).

ونحن نعلم أن اليهود شاركوا في كل مناحي الحياة العامة والسياسة فـي العـراق مثلاً. وكان وضعهم الاقتصادي ممتازاً، ومنهم من وصل الي الـوزارة مثـل وزارة المالية، ويشير بارنافي الى تعرض اليهود في هذا البلد بالذات الى الحرمان والملاحقة والمضايقة، وحرموا من التعلم في المدارس العليا والجامعات، وهذا فـي حـد ذاتـه توظيف سيئ للغاية في مسألة حقوق واوضاع يهود العراق، فمعظمهم كسب التعلـيم العالي وكانوا علي مستوى راق ورفيع من الثقافة والعلـم (بارنـافي ص126). ولا يتنازل المؤرخ عن اعتبار يهود العراق وسواهم في البلاد العربية الـضحية الاولـى أمام أهواء الحكام والبنية المحيطة بهم، وفي نفس الوقت الذي يستعرض فيـه هـذا الامر يذكر ان 50% من موظفي الحكومة العراقية زمن الحكم الملكي هم يهود. وأن 70% من التجار العراقيين الكبار هم يهود. وان اليهود قد سـيطروا علـي القطـاع

التمويني والنسيجي في العراق.(كتاب:كيدم.م.س.ص133، وشوريك يحيعام "تـاريخ شعب اسرائيل في العصر الحديث" وهو كتاب يعدّ الطالب للتقدم لامتحانات التوجيهي في اسرائيل، والتي تعرف باسم "البغروت" وشوريك يتنكر للواقع التـاريخي ليهـود العراق).

وتستفيد كتب تدريس التاريخ من كراسة "بينسكر" أحد رجالات الفكر الصهيوني في اواخر القرن التاسع عشر وعنوانها: "الانعتاق الذاتي اوتو امينسيباتسيا" الـذي بلـور مصطلحاً جديداً يصف وضع اليهود في اوروبا في ذلك القرن، ألا وهـو مـصطلح "يودوفوبيا" أي "الخوف الشديد". حيث يقول بينسكر "إن هذا المرض هو انحراف في صحة المجتمع منذ البداية ويصبح مرضاً مزمناً، لذلك لا يوجد لـه عـلاج، وهـذا المرض وراثي. وهذا وضع أمة اشباح. أقلية دائمة بدون وطن، الـشعب اليهـودي يفرض خوفاً علي العالم، لانه يسير كميت بين الاحياء"(بارنافي ص44 ويعقوب كيدم، مختصر تاريخ الصهيونية، 1988،ص40و41).

واستغلت قضية الضابط الفرنسي، الفريد درايفوس، الذي اتهم بالخيانة لنقله اخباراً واسراراً عن جيشه للاعداء الالمان، وقامت قيادة الجيش الفرنسي بتجريده من رتبته ودرجاته العسكرية وأوسمة التقدير التي نالها، ثم اعيدت محاكمته من جديد واعلنـت براءته. والواقع أن استغلال قضية من قبل أطر يهودية جاء للدلالـة علـي كراهيـة ولاسامية متاصلة بين الفرنسيين ضد اليهود. علماً أن درايفوس هو جندي في الجيش الفرنسي أسوة ببقية زملائه، ونصيبه أنه ترقى في الدرجات العسكرية. ولم يُنظر إليه كيهودي اطلاقاً، ولم يقم بارنافي بالشذوذ في عرضه لقضية درايفـوس عـن الخـط التدريسي والبحثي السائد في اوساط المؤرخين اليهود علي مختلف مشاربهم الفكريـة واتجاهاتهم السياسية. وكان هذا دليلاً آخر على الانتقائية الحديثة وتوظيـف الحـدث لخدمة غائية هي في هذا السياق كون اليهود "الضحية الدائمة"(بارنافي ص36). وكان لليهود الروس دور معين في الثورة البلشفية في روسيا، وما تبعها من أحـداث أدت الى القضاء علي القيصرية الروسية. وأعلنت الثورة عن الغاء الديانات والمؤسـسات

الدينية، ولكن بارنافي يذكر أن الثورة قد اغلقت الكنس والمكتبات والمدارس الدينية اليهودية واممتها بكاملها، ولكنه لا يذكر اغلاق وتاميم الكنائس والمساجد (بارنافي 104,103). وهو نفسه يشير الى أن الثقافة اليهودية بشكلها اليديشي قد انتعشت وازدهرت ولاقت عناية خاصة من الدولة ومؤسساتها، كالجامعات حيث كانت تدرس.

وفي معرض شرحه للصراع الاسرائيلي - الفلسطيني فإن بارنافي اختار العنوان التالي لهذا الموضوع: الفلسطينيون يدبرون حرباً ارهابية ضد اسرائيل"(ص246) وفي الصفحة المقابلة(ص247) يقدم صورة المستوطن ليفنغر يسير وسط مدينة الخليل بحراسة مسلح، دون أن يشير الى دور ليفنغر الارهابي (طبعاً هذا لن يحدث). ونختار هنا اقتباسات حول الثورات الفلسطينية في سنوات العشرين ثم الثلاثين، وبالطبع لا يشار الى هذه الثورات هكذا، وإنما الى اضطرابات واعمال شغب وحرب عصابات وفرض ارهاب عام. فأثناء احداث ثورة 1921، في يافا، نشر العرب فيها اشاعات الى أن اعمال قتل واغتصاب من قبل يهود ضد نساء عربيات قد نفذت في هذه المدينة، وأن العصابات العربية بدأت بالهجوم على المارة اليهود وقتل في هذه الاحداث 43 يهودياً وجرح اكثر من 130.(كيدم.م.س.ص147) ولم يتطرق الى ذكر الجرحى والقتلى العرب أو الى ردّ فعل اليهود المسلح تجاه العرب. وهذا تاكيداً على أن الضحية الدائمة موجودة في كل مكان في العالم، وفي أي زمن فإنها تتعرض للملاحقة والمضايقة.(ليفشيتس موشي، تاريخ شعب اسرائيل في العصور الاخيرة والحركة القومية.الجزء الاول،ص156).

وفي معرض اتهامه لقوات الامن البريطانية، في يافا، على أنها لم تمنع وقوع مذبحة "يوغروم" التي نفذها العرب، يذهب ليفشيتس الى درجة مبالغ فيها حينما يذكر أن العرب أخذوا يطلقون النيران من مآذن المساجد في يافا على أحياء تل أبيب"!

ولا يغفل المؤرخ اليهودي عن الاشارة الى ما يتميز به اليهود في العالم، وإنهم فريدون في ما يقومون به "فيهود الغرب وصلوا جاهزين جداً للعصر الحديث المتقدم: فخلال مئات السنين اهتموا عن رغبة أو عن اضطرار بتطوير قدراتهم والتي غدت

الآن مطلوبة جداً: عادات التعلم وحرية التفكير، والحركية الدائمة والعمل في قطاعين المالي والتجاري"(بارنافي م.س.ص16). و" لليهود مساهمة في الحياة السياسية فـي المانيا، زمن جمهورية فايمار بعد الحرب العالمية الاولى، حيـث احتلـوا وظـائف ومراكز مهمة في الاحزاب، ودستور فايمار وضعه يهودي وهو رجل القانون هوغو فرويس. واليهود كانوا في موقع تتنافس عليه الاحزاب والايديولوجيات وفي معرض التطرق لاحداث العام 1948 (النكبة الفلسطينية) فإن "السلاح الصغير والقليل الـذي كان بيد القوات اليهودية المحاربة، كان متدنياً مقارنة مع السلاح الثقيل الـذي كانـت العصابات العربية مزودة به"(ش.كير شنباوم. تاريخ اسرائيل في الاجيـال الاخيـرة، ميشلاف، تل أبيب، 1986، ص 276).

وتفرض هذه النظرية اقحام وجهة النظر الصهيونية والاسرائيلية فـي الاحـداث، للاشارة الي أن الحدث رغم أنه لصالح اليهود، إلا أن ذلك ليس في الواقع الحقيقـي. وكذلك التخفيف من اهميته لتوظيف وضعية اليهود الضحية، وجني الاربـاح منهـا. وكذلك فإن الاقحام هو قيام جهات صهيونية حتى لو كانت معارضة للانكليـز مـثلاً بالمساهمة في المجهود الحربي خلال الحربين العالميتين الاولى والثانيـة، فمحاولـة اظهار تصريح بلفور بأنه مهم للانكليز بالدرجة الاولى، اكثر مما هو مهـم لليهـود، رغم وضوح التصريح بتوجيهه لليهود كشعب لاقامة الوطن القومي لليهـودي علـي ارض فلسطين(بارنافي ص68) أي أنه يراد منه التخفيف من سعي اليهـود الحثيـث والذي بلغ درجة الوقاحة، وضغطهم علي الانكليز لاصدار التـصريح، والواقـع أن الحاح اليهود وفي مقدمتهم حاييم وايزمان قد أسهم في اصداره.

ويُظهر بارنافي أن تصريح بلفور ليس انجازاً مركزياً. وفـي نظـره فـإن هـذا التصريح (رغم خطورته بالنسبة للفلسطينيين واهميته بالنسبة لليهود) لا يختلف عن بقية المواثيق الدولية المعقودة في التاريخ. (بارنافي ص68) ولكن بارنافي بالمقابـل يطرح سؤالاً مركزياً يبدو أنه يشغل فكره التاريخي وهو:كيف يمكن تحقيـق غايـة قومية، لشعب ما، دون المس بالحقوق المدنية لابناء الشعب الآخر المقيم بنفس البلـد؟

ورغم اهمية هذا السؤال في اظهار خطورة تصريح بلفور وانعكاساته من حيث كونه يسلب أرض الفلسطينيين ويمنحها لليهود، إلا أن بارنافي طارح السؤال، لـم يملـك الجرأة الكافية للاجابة عليه.(بارنافي ص69) وما دمنا قد ذكرنا مساهمة فرق يهودية في الجهد الحربي الي جانب الحلفاء، فإن هذه الفرق قد دخلت فـي الـسنة الاخيـرة للحرب العالمية الاولى علي الجبهة العثمانية. وكانت مساهمة تلك الفرق غير جديرة بالذكر، ولكن لاظهار مساهمة اليهود في الجهد العالمي لمواجهة ومحاربـة اشـرار العالم؛ دول المحور، وفي مقدمتها المانيا فإن بارنافي يذكر مـايلي : "فرقتـان مـن اليهود، تمكنتا من الوصول الي جبهة أرض اسرائيل، وقدمتا خدماتهما فـي بعـض المعارك الاخيرة لتحريرهـا"(بارنـافي 73) الاقحـام التـاريخي هنـا، هـو فـي كلمة"تحريرها" أي التاكيد أن لليهود دوراً في تحرير أرض اسرائيل مـن الاحـتلال العثماني، وان عمليات "التحرير" لم تقم بها بريطانيا وحليفاتها وحدها. ويقحم بارنافي مصطلح "جبهة الرفض" وهو حديث العهد ويعود الي معارضي خطوة السادات لعقـد تسوية مع اسرائيل، يُقحمه بخصوص موافقة عبد ا ، اميـر شـرقي الاردن، علـى توصية لجنة بيل في العام 1937 الداعية الي تقـسيم فلـسطين، فنـشأت معارضـة لموافقته هذه من قبل سورية والعراق"(ص93).

وما دمنا قد ولجنا فكرة التقسيم فإن "مشروع بيل" يمنح اليهود جزءاً مـن فلـسطين بعكس مطامح اليهود بكل فلسطين، ولكن لأول مرة يجري التاكيد علـي دولـة ذات سيادة لليهود". ويقحم هنا العبارة التالية: "ومن المفضل دولة صغيرة، بالامكان توسيع حدودها بالمستقبل..."(ص94) دون أن يشرح كيف ستتم عملية التوسيع.ولا شك انها نظرة توسعية احتلالية. بمعني أنه نسخ الوضع الحالي للاحتلال الاسرائيلي علي مـا حدث بالماضي. وهذا اقحام فاضح في حد ذاته. ويلجأ نفس المؤرخ ـ بارنافي ـ الي اقحام دون علاقة مع الموضوع المعروض، ولكنه اقحام مقصود حينما يكتـب علـي النحو التالي:

" ثلاثة أشهر قبل افتتاح مؤتمر الطاولة المستديرة بين الفلسطينيين واليهود والانكليز

لبحث أوضاع فلسطين عشية الحرب العالمية الثانية نُفذت في يهود ألمانيا بوغروم ـ مجزرة ـ عرفت باسم "ليل البلور"، وأثبت قبل ذلك مؤتمر افيان في تموز 1938 ان المجتمع الدولي لن يعمل لانقاذ اليهود...".(ص95) ولا نجد هنا أية علاقة بين مؤتمر الطاولة المستديرة وما جري لليهود في المانيا سوى اقحام هذا الحدث لاظهار الضحية الدائمة، وللتذكير بأنهم يبغون حلاً لمشكلتهم، ويجب الاسراع في ايجاد مثل هذا الحل، وهو في فلسطين.

ويقحم نفس المؤرخ عبارة نجدها غريبة جـداً عنـد تطرقـه لموضـوع النازيـة والهولوكوست(المحرقة) فيقول: "من الممكـن القـول إنـه دون اليهـود لا توجـد نازية".(بارنافي ص132)،وكأن النازية في أيديولوجيتها ونهجها تعتمد علي مـصدر قوتها الصادر من اليهود!!! ويوجد لدي مؤلفي كتب التدريس توجه من التخـصيص الي التعميم، ومحاولة اظهار الحدث المتعلق باليهود وكأنه بالضرورة يـنعكس علـى العالم اجمع، خاصة اذا كان الحدث سلبياً كمظاهر اللاسامية. فإقحام الوعي اليهـودي والوعي الانساني معاً في بوقته واحدة، يشكلان برأيهم قاعدة لديمومة التفكير والتذكير بالمحرقة ـ مثلاً ـ وان الضحية لا تزال ضحية.

" ردود فعل اليهود ذاتها للاحداث المأساوية التي حلت بهم، وسياسة العـالم الحـر، وكذلك موقع الكارثة في الوعي اليهودي خاصة والوعي الانساني عامة-كل هذا هـو جزء لا يتجزأ من موضوع المحرقة"(بارنافي 147).

ولاظهار ان الخطر هو مسألة دائمة في حياة اليهود، فإن المؤرخ ايال نافيه مؤلف الكتاب التدريسي "القرن العشرون ـ قرن غيّر انظمة العالم" (للوحدة الخامسة فـي امتحان البغروت صادر عن مكتبة تل أبيب،1995) يقحم حدثاً تاريخياً مهماً في حياة المستوطنين اليهود فيكتب:"انتصارات رومل وضعت الاستيطان اليهودي في فلسطين في خطر مصيري، من الشمال سيطرت حكومة فيشي الفرنسية علي سورية ولبنان، ومن الجنوب هددت قوات رومل. زعماء الاستيطان وضعوا خطة دفاعية متـشابهة لخطة متسادا في منطقة جبل الكرمل"(ص113) أي أنه يربط عشرين قرناً ببعـضها،

ليظهر استمرارية الوجود اليهودي في فلسطين، وفي نفس الوقت ليؤكد تمسك اليهود بأرض ابائهم واستعدادهم للانتحار فداءً لها.

ولا يتوقف الامر عند ربط أحداث خاصة مع العامة. فإن نافيه يقحم عبارات وجملاً بعيدة عن الموضوعية التاريخية، ولا يقف موقف المؤرخ الحيادي الموضوعي. بـل بالعكس فإن اقحامه لمثل العبارات التالية ما هو الا اشارة الي اسلوب الانتقائية بهدف التاثير علي عقول الطلاب ومنهجيتة تفكيرهم، ففي معرض شرحه عن اليهـود فـي المانيا زمن الحكم النازي يكتب:

" دون ادني شك انه بين القتلى النازيين كان هناك أناس متعطشون للدم وللوحـشية، الذين استقوا فرحاً من القتل وتحمل الضحايا، معظم الشعب الالماني لم يشترك مباشرة في اعمال القتل، ولكن هناك من يدعي أنه اشترك في الجرم بـشكل غيـر مباشـر، لمجرد أنه كوّن مجتمعاً مجرماً في الفترة النازية. علي كل حال، اضطر الالمان الي مواجهة الظلال الثقيلة للتهمة الجماعية. كثيرون أظهروا أسفهم لما جرى ولكن كـل واحد منهم كان بإمكانه أن يتذكر جاره اليهودي الذي اختفي فجاة ولم يعد".(ص150).

وتفرض التخصيصية - الاحتكارية، تبنّي احداث معينة لم تحدث لـشعب معـين، واسنادها الي هذا الشعب، بمعني التحول من العام الي الخاص. وليس فقط التبني بل الاحتكار. بمفهوم أنه لا يجوز لآخرين أن يسندوا هذا الحدث لهم، واكثر مـن ذلـك حتى اسم الحدث يصبح مسالة احتكارية، بل شبه مقدسة ومستغلقة، لا يجوز لشعوب اخرى الاقتراب من هذه القدسية علـي الاطـلاق. ومـن منطلـق التخصيـصية - الاحتكارية فإن كل من يحاول الاقتراب أو يفكر به، يتهم بأنه معـادٍ لهـذا الـشعب. وخير مثال لتوضيح التخصيصية الاحتكارية، قضية الهولوكوست(المحرقة) وكيفيـة توظيفها من قبل الدوائر الصهيونية والاسرائيلية في العالم.

"دولة اسرائيل تبنت المحرقة كجزء من الوعي الجماعي فيها. وتجـري محـاولات جادة وصادقة لتوثيق الماضي. أقيمت مؤسسة "ياد فاشيم" استناداً الـي قـانون سـنّه الكنيست، يخصص يوم رسمي لإحياء ذكري المحرقة ، وهناك مواقع ونصب تذكارية

موزعة في طول البلاد وعرضها. يوجد معارضون لتفسير قيام اسرائيل بالاستناد الي مصيبة(كارثة) حدثت لابناء الشعب اليهودي، بينما كثيرون منهم لم يكونوا صهيونيين ولا يعتبرون انفسهم من مواطني إسرائيل. ولكن لايمكن تصور أن تهمل دولة اليهود المحرقة علي الصعيد القومي. والسؤال هو لماذا جعلت دولة اسرائيل المحرقة جزءاً عضوياً من ميراثها، وماذا تفعل بهذا الميراث؟! أي ليس لماذا نتـذكر انمـا كيـف نتذكر؟"(بارنافي160).

وفي محاولة لاظهار التاريخ التحرري لليهود، فإن كل المـؤرخين المـؤلفين لكتـب تدريس التاريخ يقدمون شرحاً مفصلاً حول تمرد اليهود في غيتو وارسو فـي شـهر آذار 1943، فأيال نافيه يعتبر هذا التمرد حركة تحرر ومعارضة كبقيـة الحركـات التحررية التي ظهرت في أوروبا ابان الحكم النازي، مثل ما حدث فـي يوغـسلافيا والاتحاد السوفيتي. أي أنه في باب التخصيص يشير الى أن اليهود أيضاً كانوا يقظين عبر رفضهم للعبودية ورغبتهم في التحرر.(ص123)

وما دمنا في سياق الحديث عن النازية، فإن القاء القبض علي ايخمان النازي وتقديمه للمحاكمة في اسرائيل، وسط ضجة إعلامية كبيرة، بهدف إثارة الراي العام العالمي، إذ إن اسرئيل تحتكر لنفسها مسألة القـضاء علـى النـازيين المتبقـين، باعتقـالهم ومحاكمتهم. وأن امر المحاكمات بات مسألة تخص اسرائيل اكثر مما تخص اوروبا، التي تسير في تاريخها من الماضي نحو المستقبل، أي ان النظرة الاوروبية للتاريخ، مضمونها أن ما حدث لن يوقف الشعوب في مكانها، بـل بـالعكس يـدفعها للتقـدم والازدهار بأمان وثبات. ولكن النظرة التاريخية الاسرائيلية هي دائماً الـي الـوراء، ويجب السير باتجاه الماضي لمحاسبة كل شئ، وتطهير التاريخ الاسرائيلي من عـالم الاشرار الذي حل فيه.

فحول محاكمة ايخمان هذا، يكتب كيرشفباوم أن المحاكمة "اثارت اهتماماً كبيراً في دولة إسرائيل" وقال "تابعوا باهتمام بالغ سير المحاكمة وتعلموا كثيراً حـول أحـداث المحرقة. بهذه الطريقة يقوي التعاطف بين سكان البلاد ومصير يهود اوروبا. وتجدر

الاشارة الي أن مراسلي الصحف العالمية قربوا شعوب العالم الي قـضايا المـصير المأساوي للشعب الاسرائيلي أيام المحرقة"(كيرشفباوم ص،326).

وفي كتاب ثورات وتحولات، للصف الثامن في المدارس العبرية، فإن مؤلفي الكتاب المصادق عليه من قبل وزارة المعارف والثقافة، نعتوا "المستوطنيين في امريكا" بـ ـ "إسرائيل الحقيقية" كونهم "يعيشون وفق أقوال الأنبيـاء ووصـايا التـوراة"(ص14). وينزع هذا الكتاب وجود سكان امريكا الاصليين ـ الهنود الحمر ـ من صفحاته، ولا يشير لهم بشيء سوى القول إن المستوطنين قد سيطروا على اراضـيهم ودفعـوهم باتجاه الغرب. ومقابل هذا التغاضـي والتهمـيش المقـصود، فـإن الكتـاب يمـنح المستوطنين المستعمرين تخصيصاً احتكارياً من الدرجة الاولى، لأن هـؤلاء جلبـوا الخير والتقدم والرقي والازدهار ودائما كانت يد الابيض هي المتفوقة بـسبب تـوفر الاسلحة المتقدمة لديه.(ص14 وما بعدها).

وفيما لو تعمقنا في هذا التوجه السلبي والتهميش، كما قلنا، نحو الـسكان الاصـليين يتبين لنا أنه بعد التطرق إلي تاريخهم وكفاحهم يسهل علي معلم التاريخ وطلابه عدم التطرق إلي تاريخ سكان فلسطين الاصلين، بل تغييبهم بالكلية عن الوجود، كما هـو حاصل في كل كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية، احتكار "أرض اسـرائيل" كهبة الهية دائمة الي الابد!! وإن عودة اليهود هي الـى بيـتهم الحقيقـي ليعمـروه ويطوروه ببركة السماء.

وتخصص كتب تدريس التاريخ في المـدارس العبريـة فـصولاً مطولـة حـول الهولوكوست، لكل شريحة صفّية، بمعنى أن الطالب العبري يواجه هذا الوضع فـي كل عام دراسي. وهناك اتفاق غير رسمي بين المـؤرخين اليهـود علـي اعتبـار الهولوكوست مفصلاً تاريخياً مركزاً في حياة ومستقبل اليهود ودولة إسرائيل. أضف الي ذلك عمليات توظيف الهولوكوست في كافة المبـادئ لتبقـي ذاكـرة الطـلاب الإسرائيليين متعلقة بفكرة الضحية الدائمة. بمعنى أن الهولوكوست حادثـة تاريخيـة حدثت في مكان ما ولكنها لم تنته في حدود الزمن. ويشدد المؤرخون اليهود علي أن

الهولوكوست التي حلت باليهود لا شبيه لها في العالم ويعتقدون أنه لن يكـون مثلهـا بالمستقبل، أي أن حكمهم المستقبلي قد صدر. مع العلم ان التاريخ لا يتعامل مع احكام تنبؤية مستقبلية. علي كل حال يشير بارنافي الي أن "المحرقة حدث متميز في التاريخ الانساني" (عنوان فصل في كتابه المذكور سابقاً ص132). ويحاول جاهـداً تعريـف الهولوكوست، واضعاً ما حدث لليهود في نواة الحدث، وذلك من خـلال استعراضـه لمذابح عدة، جرت في التاريخ ولدي شعوب مختلفة :"مذابح جماعية واكبـت تـاريخ الانسان منذ فجر التاريخ. البشر ذبحوا بعضهم نتيجة خلاف علي الارض، بئر ماء، طريقة العبادة واسباب أخري، تجارة العبيد أدت الي موت الاف مـن بنـي البـشر، الاسبان أبادوا مجموعات بشرية عند احتلالهم أميركا الوسطي والجنوبية.

الاتراك ذبحوا الارمن في الحرب العالمية الاولى، عشرات ملايين البـشر لاقـوا حتفهم في معسكرات الاضطهاد التي أنشأها ستالين، في بوروندي في افريقيا نفـذت مذابح. في كل هذه الاعمال تحول "الآخر" إلي أقل من انسان. ومع كل ذلـك، القتـل المنهجي للشعب اليهودي في الحرب العالمية الثانية هو حدث مميـز فـي التـاريخ البشري. حدث لن يسبقه شبيه في جوهره واتساعه. فاليهودي لم يكن مجرد عدو، أو حتى عدو منحط، إنما جرثومة، وابادته تعني تنقية جسم الانسانية، هذا الـدمج بـين المنطق العلمي الجنوني مع جهاز إداري متقدم وتكنولوجي حديث، لم يترك باباً لهرب الضحايا، ويمنح الكارثة ميزتها"(ص132).

ويشدد هذا المؤرخ ـ وغيره علي المستوى نفسه ـ علـى ضـرورة التـذكر "أن المحرقة ليست من عمل الشيطان، بل عمل منظم ومخطط له بيد البشر، بل بيد كبار رجال الدولة" وان "هذه المحرقة هي جزء من التاريخ البشري، ويجب نقلها وفهمهـا بأدوات تاريخية"(ص132 في نفس المصدر). هنا نلاحظ بوضوح أنه يحتكر الحـدث المتعلق بالهولوكوست ويطلب منا التعامل مع هذا الحدث بأدوات تاريخية، لم يفـصح عنها على الإطلاق.

والهولوكوست ركن أساسي في تعلم تاريخ اليهود في القرن العشرين. فحتى الكتب

التدريسية المخصصة لدراسة أحداث القرن العشرين، تعالج في بعض فصولها موضوع الهولوكوست. أي اقحام هذا الموضوع ضمن التاريخ العام بإثارة أهمية وضرورة ربطه بشكل تلقائي مع الأحداث العالمية.

ويذهب المؤرخ ايال نافية الى اظهار"خصوصية المحرقة بالنسبة لليهود دون سواهم من الشعوب الأخرى التي تعرضت للسكين النازية. فإن أحد الناجين من النازية بريموليفي ذكر في كتابه"الاستراحة": لانه لن يستطيع أي انسان أن يستوعب جيداً مثلنا الإهانة و الإذلال التي انتشرا كالوباء، فخطأ هو الاعتقاد ان العدل الانساني يمكنه النطق"(ص143).فهو يصور عظم وضخامة ما حدث لليهود ولن يكون هناك أي باب لتحقيق العدل الإنساني. هذه طريقة لإظهار مدى الجرم الذي حدث لليهود والذي لا يوازيه جرم مماثل، أو بالأحرى أي جرم يجري في العالم سيكون أقل عظماً مما حدث لهم.

وفي سياق التطرف لمسألة الهولوكوست، فهي كما هو ظاهر لم تنته كحدث تاريخي، بل أن مؤسسة الصهيونية - الإسرائيلية تسعى دوماً إلى تعميقه، كونه لم ينته بمفهوم الذاكرة ومؤثراته وانعكاساته إلى يومنا هذا. وفي سياق ذلك توجه كتب التدريس لوماً شديد اللهجة وبوضوح "للذين التزموا الصمت مدعية أن منهم من كان بإمكانه التأثير على مجريات الأمور، مثل البابا بيوس الـ 11 الذى رفض الاستنكار ولم يفرض جرماً على المجرمين"(نافيه،151)، دون أن يقدم وجهة نظر البابا أو الكنيسة الكاثوليكية من صمت البابا. مؤلف كتاب التدريس هذا وهو باحث ومحاضر في جامعة تل أبيب لم يقدم الأداة العلمية البحثية في هذا الموقف أسوة بمواقف أخرى. وهذا يدفع الى فحص مواقف البابا والاستعانة بقاموس اوكسفورد لشؤون كنيسة المسيحيين الذى يشير الى صمت البابا بيوس النابع من خبرته الشخصية في تعامل الحكومة الألمانية مع مسيحيي بولندا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، وان إثارة الموضوع ستكون له ردود فعل سيئة اكثر من الصمت عنها.
(F.L. cross the oxford dictionary of the christian church oxf. Uni .london, 1974, p.1098- 99)

ويتابع نافيه في سلسلة اتهاماته إلى أن يصل إلى منظمة الصليب الأحمر التي عرفت ما كان يجري ولكنها منعت نشر الأخبار. وهذه المرة دون أن يفسر أسـباب ذلـك. وكذلك زعماء دول في أوروبا أغلقوا حدود بلادهم ورفضوا ادخال اليهود إليها قبـل حلول الهولوكوست.

وتتسع القائمة لديه ليضم ملايين كثيرة من الناس الذين صمتوا كالتجار الذين ربحوا من مصادرة أموال اليهود. والمحاضرين الذين احتلوا أماكن اليهود فـي الجامعـات والموظفين وسائقي القطارات الذين عرفوا" البضاعة" التي كانوا ينقلوهـا واصـحاب المصانع الذين زودوا الغاز، والمهندسين الذين أصلحوا أفـران الغـاز والمحـارق وكثيرين غيرهم..(نافيه ص 151).

وبالمقابل يقول أن"قليلين خاطروا بأنفسهم، أخفوا يهـوداً أو هربـوا أسـلحة إلـى الغيتوات. منهم رهبان وكهنة وفلاحون بسطاء وسياسيون ورجال جـيش"(م.س.ص 151). ويختتم اتهاماته بموقف غريب إذ يقول: "ومن الصعب فهم ومعرفة ما دوافـع هؤلاء الناس إلى الشذوذ بالصمت، يجوز أنهم فعلوا ذلك من منطلق إنساني وأخلاقي" (ص151). حتى انه لا يقبل ما فعله أناس أصحاب ضمير عرضوا حياتهم للخطر في سبيل انقاذ مجموعات من اليهود. فالتنكر للخير سمة في كتب التدريس، وكذلك اعتبار الخير شذوذاً.

العربي والفلسطيني في كتب تدريس التاريخ

تسعى كتب التدريس العبرية إلي انكار وجود الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين بل وفي العالم، وفعلت ذلك حتى الكتب التي صدرت حديثاً في العقد الأخير من القرن العشرين. فكتاب" كيدم" والصادر في العام 1988 لم يذكر عبارة "الشعب الفلسطيني" علي الإطلاق، بل ذكر" العرب في ارض إسرائيل" بينما يعبر في هذا الكتاب وغيـره عن اليهود بعبارة" الشعب اليهودي".

ويعتبر ايال نافيه في كتابه "القرن العشرين ـ قرن غير أنظمة العالم"، وصدر فـي

العام 1995، أن الفلسطينيين هم طائفة عربية تشكل أغلبية في أرض إسرائيل. أي أنه يتحاشى إستخدام عبارة" شعب" بل يعمد إلي تهميش الفلسطينيين لطائفة. والطائفة ليس لها كيان قومي، وهذا أساسه في التصور الصهيوني لسكان البلاد. ومن ثـم التعبيـر عنه في عبارات تصريح بلفور.(ايال نافيه ص199).

ويحاول نافيه تقديم صورة قاتمة للعرب الفلسطينيين، مجرداً اياهم من القومية ومن إمكانية تطويرهم البنى التحتية. ويشدد علي أن هؤلاء العرب يمتلكون شعوراً انتمائياً ضيقاً في حدود الدين "عرب أرض إسرائيل مثل العالم العربي كله، كـانوا مجتمعـاً تقليدياً. مصطلح القومية لم يصل إليهم بشكل عام، لهذا لم تتطور لديهم مؤسسات قيادة أو بنية سياسية حديثة ونظام تعليمي تربوي يساهم في بلورة الوعى القومي. ومعظـم أبناء الطائفة عاشوا في ظل عائلات غنية وميسورة وذات نفوذ، والشعور الديني هـو علي قاعدة دينية (اسلامية) واثنية (عربية) دون المركب القـومي الحـديث"(نافيـه ص199).

ومقابل هذا التضيق الائنتمائي الذي يفرضه مؤلف كتاب تدريس للمدارس العبريـة، فإنه لا يترك الامر فارغاً بالنسبة للطرف الأساسي في فلسطين كما يتصور، الا وهو" الشعب اليهودي": "فمقابل هذا المبنى (المجتمع العربي) ظهر الإسـتيطان اليهـودي كجماعة سياسية وحضارية ذات وعى قومي ودعم صهيوني خارج ارض إسـرائيل. البنى الاقتصادية والسياسية والتربوية والإجتماعية التي ظهرت وتطورت في حركـة الاستيطان في سنوات العشرين والثلاثين حول اليهود الي جيل يقـيم "الدولـة علـي الطريق".(نافيه ص199).

وتصور كتب تدريس التاريخ الإنساني العربي، في فلسطين، بشكل وحشي تنقـصه أسس الحضارة والتطور، وان هذا العربي لا يملك من القيم والفضائل أي شئ علـي الإطلاق، وان كل زعماء العرب هم متطرفون. ففي الحديث عن ثـورة 1929 فـي فلسطين والتي يطلق عليها المؤرخون اليهود عبارة "اضطرابات" تم تصوير الحـاج أمين الحسيني بـ" الزعيم المتطرف"(كيدم.م.س.ص165) ويصور هذا المؤلف النزاع

حول "الحائط الغربي"(البراق) بالشكل التالي:"انتبـه رجـال شـرطة مـن العـرب العام1925 أن اليهود أثناء صلوات يوم الغفران قد وضعوا كراسى للجلوس عليهـا، افأخرجوا الكراسى بالقوة. أما المسلمون ففتحوا ثغرة في احد الجدران القريبـة مـن الحائط ودخلوا من خلالها راكبين على حمير أثناء تأدية اليهود لصلواتهم وهم يلقـون بأوساخ بكل أنحاء المكان المقدس".(كيدم.م.س.ص167). ويتابع نفس مؤلف الكتـاب التدريسي "وخاصة يوم الغفران العام1928: وضع حاجز بين النساء والرجـال فـي ساحة الحائط، أمر نائب حاكم القدس اليهود بإزالته، فرفض اليهـود تنفيـذ الأمـر، فأرسل رجال شرطة لتنفيذ أوامره، وهؤلاء أزالوا الحاجز بالقوة وضـربوا النـساء والشيوخ، وألقيت أدوات الصلاة في كل مكان" ويـود كيـدم أن يظهـر أن اليهـود يحافظون علي قدسية الأماكن المقدسة بطريقة الوصف السلبي للطرف الآخـر فـ ـ "العرب أهانوا الساحة بواسطة دخولهم راكبين الحمير، رغم أنهم يعتبـرون المكـان مقدساً لهم، فهذه ساحة البراق. فأقام العرب لأول مرة قـرب الحـائط العـام 1929 صلاة، تخللتها صرخات وقرع طبول، في نفس الوقت الذى أقيمت فيه صلاة يهودية قرب الحائط"(كيدم م.س.ص167). وليظهر عدوانية العرب ونظامية اليهود فإنه يشير الي أن" 300 يهودي شاب قاموا بمظاهرة هادئة ومرخصة في شوارع القدس. وفـي الغد وصل 2000 من العرب ليشاركوا في مظاهرة مرخصة هي الأخـرى. هـؤلاء تجمعوا حول الحائط وأخذوا ينادون "ا اكبر" وانقضوا على اليهود المصلين وحطموا طاولات عليها أوانٍ دينية وحرقوا كتب التوراة".(كيدم .م.س.ص167). وطبعاً هـذا التصوير بعيد عن الحقيقة وتشويه للحدث التاريخي. وحول نفس أحداث ثورة 1929 نجد في كتاب دوم لتحضير لطلاب لامتحانات البغروت "في تاريخ شـعب اسـرائيل (هو ليس كتاباً تدريسياً انما مساعد) وجهاً موضوعياً قريباً جداً من الواقـع "عنـدما ظهر الخلاف في صلاة اليهود في ساحة الحائط الغربي إسلامياً، ظهر التـوتر بـين المسلمين واليهود، هذه كانت أحد دوافع انطلاق الأحداث فيما بعد. وأثارت صـلوات اليهود الجماعية في 9 آب(ذكري خراب الهيكل) العام 1927 المسلمين الخوف مـن

اليهود يرغبون في السيطرة علي جبل الهيكل ومن ثم هدم ساحته، أعمال تحـريض من قبل جهات عربية ويهودية زادت التوتر أكثر وأكثر"(ص 222).

وتستخدم كتب التدريس عبارات استهزاء وإساءة و سلبية عندما تـصور رد فعـل العرب في فلسطين تجاه ما يجري من سلب ونهب لأرضهم ووطنهم. فبارنافي يصف ما قام به العرب العام 1920 بأنه "هجوم عربي" و"تخريب" مستوطنات يهودية فـي الجليل الأعلى.(ص 81) ويصف الحركة الوطنية العربية بأنهـا تحريـضية(ص83) والمفتي هو محرض الجماهير في القدس ضد اليهود الذين يسيطرون علي الأمـاكن المقدسة الإسلامية(ص83). والواقع التاريخي للقدس يشهد بكل تأكيد أن ما تقوم بـه إسرائيل و الجمعيات والحركات العنصرية فيها في محاولة للسيطرة علـي الاقـصى والصخرة كان مخططاً له بدراسة مستفيضة منذ عقود طويلة، وما رد فعـل المفتـي والمسلمين والعرب في فلسطين وخارجها إلا لانقاذ الأماكن المقدسة والحفاظ عليهـا كحفاظ الانسان علي أولاده وبيته. ويربط بارنافي التطور القومي للعرب في الـبلاد بازدياد أعمال الإرهاب ضد الانجليز واليهود(ص92) وذلك بزعامة الحـاج أمـين الحسيني. أما حركة عـز الـدين القـسام التحريريـة فهـي عبـارة عـن تنظـيم إرهابي(ص92)، ولا يجرؤ علي نعت الحركات الإرهابية اليهودية كمنظمات الهاغاناه والايتسل والليحي بالإرهاب، علماً أن هذه التنظيمات عملت بشكل اجرامي وتخريبي ضد الانكليز والعرب معاً خلال فترة الإنتداب، بل أنه يصف هذه الحركـات بأنهـا تحريرية وتحمي المستوطنين اليهود القادمين من اوروبا!

ويذهب إلى أكثر من ذلك في سلبيته تجاه العرب، إذ أنه يقول "إن التطـرف الـذي وصلت إليه الهاغاناه، سببه معارضة العرب الشديدة والعنيفة"(بارنـافي ص98). أي أن الهاغاناه كانت واقفة تنتظر تحرك العرب للتعامل بعنف وتطرف!!!.

ولا يتوقف بارنافي عند هذا الحد من تصوير العرب كبدائيين وهمجيـين، بـل أنـه يطرح سؤال التشكيك، والمقصود من ورائه زرع أفكار استعلائية واستهزائية لـدى الطلاب اليهود بخصوص الفلسطينيين، وهذا السؤال ليس حديث العهد بل نجده فـي

معظم كتب التدريس، ولكن أن يكون موجوداً في كتاب تدريس في مرحلة ما يـسمى بالمسيرة السلمية، فهذا أمر لا يدل إلا علي شئ واحد: ان المؤسسة الإسرائيلية سائرة في نفس منهجية الصهيونية منذ تأسيسها. والأنكى من ذلك أن حكومـات إسـرائيل تطالب السلطة الوطنية الفلسطينية والدول العربية بحذف كل العبارات والجمل التـي تشوه اليهود وإسرائيل. والسؤال التشكيكي هو:"متي ظهرت أمة فلـسطينية مـستقلة وراعية بذاتها؟ إن الفلسطينيين يدعون أن جذورهم في هذه البلاد عميقة أكثـر مـن اليهود". ثم يطرح وجه نظر أن الفلسطينيين يتشكلون من مجموعات وأجـزاء أمـم، بينما لا يتطرق إلي تركيبة اليهود في إسرائيل ذاتها من أمـم وشـعوب و طوائـف، قدمت من كل أصقاع الدنيا. ويدعي بارنافي أيضاً أن الفلسطينيين لم يفكروا باتجـاه قومي إلا بعد أن ظهرت الـصهيونية، وطرحـت فكـرة إقامـة الـوطن القـومي اليهودي.(بارنافي ص244) ويذهب مؤلف الكتاب التدريسي هذا إلى أخطر من ذلـك حين يقول "إنه ظهر في الآونة الأخيرة ما يشبه صهيونية فلسطينية!!! تتمثل بالـشوق والحنين لفلسطين، وعيش حياة قاسية في الشتات، وان الحياة في فلـسطين بالنـسبة للفلسطينيين اللاجئين، هي ما يشبه الجنة المفقودة" (ص244).

ويسترسل بارنافي في تصوير دور الجندي العربي بأن لا هدف له سـوى خدمـة أسياده، والحديث هنا عن حرب 1948 "في الجيوش العربية، القادة والجنـود الـذين انتموا إلي عوالم مختلفة، الفلاح المصري أو العراقي وجد زعماءه وأسياده في الجيش بثياب الضباط. وعيه السياسي قليل، ظروف حياته صعبة، وكرامته مداسة، لماذا يقدم حياته من أجل قضية لا علاقة له بها؟"(بارنافي ص187) وهذا التوجه هو في بـاب تهميش القضية الفلسطينية وتهميش الدور العربي وعلاقته بها. ويبلـغ الامـر بهـذا المؤلف إلي القول أن "المشكلة سوف تسمم خلال جيل وأكثر علاقات إسـرائيل مـع العالم العربي والمجتمع الدولي"(ص195).

ويلجأ معظم مؤرخي التاريخ، إلي التهرب من القضايا والمسائل التاريخيـة التـي تظهر إسرائيل واليهود بمظهر الظالم والعنيف. لهذا جرت عمليـة تبنـى "الـضحية

الدائمة" واستخدام واستغلال "الهولوكوست" كمأتم لا ينتهـي. ومـن بـين القـضايا المركزية، التي يتهربون منها، كل ما له علاقة بأحداث نكبة 1948 والجرائم والمذابح التي نفذت خلالها وبعدها. بل يتم تصوير ما جري كأحداث عابرة لا ذنـب لليهـود فيها. ولتوضيح هذا الجانب نختار مذبحة دير ياسين كنموذج لذلك:

يصف كيدم في كتابه "مختصر تاريخ الصهيونية" المذبحة علي النحو التالي: "خلال حملة نحشون، خرجت من القدس قوة من رجال الايتسل والليحي قوامها 120 رجلاً، واحتلت قرية دير ياسين غربي القدس. وخلال أعمال الإحـتلال قتـل245 مواطنـاً عربياً، بينهم نساء واطفال كثيرون. الدعاية العربية اشاعت وصفاً لمذبحة دير ياسين لهدف إثارة العرب للانتقام. هذا سبب هرباً جماعياً للعرب من قراهم"(ص261).

ويتطرق كيرشنباوم في كتابه "تاريخ إسرائيل في العصور الأخيرة" إلـي المذبحـة بقوله:"في 1948/4/9 خرجت مجموعة من قوات ايتسل وليحـي بمهاجمـة القريـة العربية دير ياسين التي أزعجت وضايقت سكان غربي القدس اليهودية. وفي الهجوم قتل 200 شخص من سكان القرية بينهم نساء واطفال. انتشرت أخبار العمليـة فـي العالم كعملية قتل دون تمييز، واستغلت لدعاية رهيبة ضد الاستيطان العبري. وكـان الاعلان عنها تأثير على العرب: زادت من الخوف بينهم وأدت الى انهيـار الجبهـة الداخلية وإلي هرب كثيـرين مـن بلـدانهم وخاصـة القريبـة مـن المـستوطنات العبرية"(كيرشنباوم.ص271).

وفي اجابة لسؤال في امتحان شهادة الثانوية (البغروت) حـول الـصعوبات التـي واجهها الاستيطان اليهودي في المرحلة الأولى من"حرب الاستقلال" وكيفية التغلـب عليها والتحولات في نيسان وايار 1948فإن كتاب التحضير لامتحانات البغروت لا يتعرض اطلاقاً لمذبحة دير ياسين، وكأنها لم تحدث علماً أنها دبت الهلع في نفـوس الفلسطينيين(ص66).

أما موشي ليفشيتس، مؤلف الكتاب التدريسي "تاريخ شعب إسرائيل في العـصور الأخيرة ـ الحركة القومية " الجزء الثاني،ص96، فيصف مذبحة دير ياسين ونتائجها

علي النحو التالي:

" حملة نحشون(وهي الحملة العسكرية التي قادتها الهاغاناه ضد قرى القدس) تـرتبط بقضية ذات قيمة عسكرية جانبية جداً ولكنها ذات أصداء شـعبية واسـعة النطـاق". ويعترف ليفشيتس" ان دير ياسين هي قرية عربية قرب القدس طلبت عقد معاهدة عدم اعتداء بينها وبين الهاغاناه في جبعات شاؤول. الايتسل والليحي قررتاه احتلال القرية لان القرى المحيطة بدير ياسين قد تركها أهلها. في 9 ابريل هاجم 120 عنصراً من الايتسل والليحي القرية. ادعى الايتسل فيما بعد أنـه نـادى علـى النـساء والأولاد والمسنيين ودعاهم إلي ترك القرية. أثناء الهجوم قتل 245 شخصاً عندما قام الايتسل بتفجير بيوت القرية. علي سكانها. الايتسل يدعى أنه قبل التفجير قام بفحص البيـوت للتأكد من أن أحداً غير موجود فيها".

صحيح أن المؤلفين كيدم وكيرشنباوم وليفشيتس تطرقوا جمل هامشية لمذبحـة ديـر ياسين إلا أنهم متفقون في أمرين مركزيين، الأول: لم يوجهوا تهمة القتل للمهاجمين، وأنه خلال الهجوم قتل كذا كذا. مع العلم أن رجال عصابتى الايتـسل والليحـي قـد دخلوا بيوت القرية وذبحوا رجالها ونساءها وأطفالها وشيوخها، ونفـذوا تفجيـرات وعمليات اغتصاب رهيبة جداً.(لقد كتب الباحث د.وليد الخالدي كتاب حول ديرياسين أصدرته مؤسسة الدراسات الفلسطينية شرحة خلاله باسهاب عملية تنفيـذ المذبحـة، وذلك بالاعتماد علي الوثائق المتوفرة وعلي شهادات شهود العيان من أهالي البلـدة. والدراسة تدحض الادعاءات الصهيونية و الاسرائيلية بأن العملية جاءت كـرد فعـل لاعتداءات أهاي دير ياسين علي أحياء القدس الغربية، خاصة أن اتفاقاً لعدم اعتداء، وتعاون، تم بين أهالي دير ياسين والأحياء اليهودية).

والأمر الثاني:أن أصداء وأخبار دير ياسين كانت عاملاً في هرب العرب من البلاد. ولكنهم لم يذكروا أن منظمتى الايستل والليحي استخدمتا مكبرات الصوت لتذيع مـن خلالها أصوات بكاء وعويل نساء وأطفال دير ياسين من خلال السيارات التي تجولت في مدن فلسطين كحيفا مثلاً (يشير الباحث الفلسطيني الياس خير الي هذه الظاهرة في

كتابه"التغييب" 1948،ص168).

وكتاب بارنافي لا يذكر مذبحة دير ياسين علي الاطلاق، وكأنها خارجة من سـياق تسلسل الأحداث التاريخية والمصيرية في فلسطين، وإخراجها يمنح الكتـاب فرصـة تهميش مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حينما يعترف بوجودها وأنها مؤلمة، ولكنه يدعي أن الوضع الديموغرافي قد تغير خلال عشرين شهراً من حرب 1948، بحيث هرب عرب فلسطين وخلفوا وراءهم بيوتهم وأراضـيهم.(ص194وص195) ولا يقـدم أي ذكر أو شرح للمجازر والتفريغ والتدمير الذي نفذته جيوش اسرائيل في البلاد حيـث تم تدمير المدن الفلسطينية وسحقها بالكامل كي لا تقوم قائمة لحياة المدينة الفلسطينية، وكذلك تفريغ هذه المدن من أهلها الذين كانت لهم مـساهمة فـي بنـاء الحـضارة الفلسطينية الحديثة.

ومسألة تهميش الوجود الفلسطيني المتجذر والقرى والمدن التي هجر أهلها ودمرت لا يرد ذكره في أي كتب تدريس علي الاطلاق. وكذلك تجري عملية تهميش للـدور الإسرائيلي في النكبة. اصحاب النكبة هم المسببون لها وعليهم تحمـل تبعاتهـا. وأن إسرئيل" بريئة من دم هذا الصديق" إيال نافيه في كتابه التدريسي يهمش دور اليهـود وإسرائيل، ويحمل العرب أسباب مصائبهم بقوله:"حرب الاستقلال بدأت قبل إعـلان الاستقلال رسمياً من خلال الصراع الدموي بين عرب إسـرائيل وبـين الاسـتيطان العبري، العرب الذين تمتعوا بالتفوق الديمغرافي والطوبوغرفي(الواقع) قطعوا مناطق في الجليل و النقب وحوالي القدس عن المركز والسواحل، وهاجموا أحيـاء ومواقـع يهودية في المدن المختلطة. ولكن القوات اليهودية أخذت الأمور بجديـة، وقـررت تغيير الصورة العسكرية. لهذا فإن سكان البلاد العربية لاذوا بالفرار الجماعي وهزم الاستيطان العربي في اراضي إسرائيل".(ص203). طبعاً، نلاحظ تـشويه الحقـائق التاريخية المتعلقة بالتفوق العسكري والصهيوني من حيث عدد المقـاتلين والأسـلحة التي كانت متوفرة لدى الفرق والعصابات، بينما افتقد الفلسطينيون إلي الأسلحة، والتي ان وعدوا بها فقد جاءتهم متأخرة، وكذلك نوعيتها لم تكن جيدة وصالحة للاسـتعمال

والصمود أمام الآلة الصهيونية.

ويتهم العرب بالاعتداء على الاستيطان العبري، وأن العرب قطعوا أوصال فلسطين، وبهذا فإنهم فصلوا تواصل الاستيطان العبري عن بعضه.

ولكن الحقيقة التاريخية تشهد علي أن العصابات والفرق الصهيونية اسـتندت إلـي خطط عسكرية لتمزيق الاستيطان العربي وتطويقه ثم الإجهاز عليه وهذا ما جرى في فلسطين في الواقعة بين تشرين الثاني 1947وايار1948.

ولا تتوقف عملية تهميش الواقع ودور الفلسطينيين أو إسرائيل بما يتلائم ومـصلحة إسرائيل عند إقامتها العام 1948.بل أن عدداً من المؤرخين الإسرائيليين يـستخدمون هذا الأسلوب خلال حديثهم عن أن"حكومة إسرائيل اشترت أراضي لأهداف عديـدة: اشترت في الناصرة 1200دونم، وذلك لإقامة البلدة اليهودية، الناصرة العليا، واشترت 2000دونم لمشروع المياه القطري، واشترت5500 دونم لاقامـة مدينـة كرميئيـل، وبضع عشرات آلاف الدونمات جُعلت أحراشاً ومحميات. هذه الاعمال أثارت غضب العرب ولكن سرعان ما خبت عندما تم تعويضهم بالمال أو بأراض بديلة"(كيرشنباوم ص338).

ما نراه ونلاحظه هنا هو تهميش لجرائم إسرائيل في الاسـتيلاء علـي الأراضـي ومصادرتها وتسببها في أحداث يوم الأرض الخالد. هذا التهميش يصحبه تنكـر تـام لقضية الصراع حول الأرض، ولأطماع الصهيونية في الأراضـي الفلـسطينية ولا يتوقف الأمر عند التنكر فقط، بل يستخدم أسلوب الوقاحة(حوتسبا بالعبرية) بادعاء أن الحكومة اشترت أراضي، أي أن المؤلف لا يريـد عـن قـصد أن يعلـم الطـلاب الإسرائيليين" مصطلح مصادرة"، لنه في حال تعلمه هذا المصطلح سيعرف جواب من يصادر أرض من؟ الدولة تصادر أرض الفرد، وليس الفرد الذي يصادر الأرض.

الفوقية التاريخية والحضارية

تعتمد الفوقية التاريخية علي إظهار التمييز الحضاري لشعب أو فئة ما، وكل فوقيـة تاريخية هي توجه عنصري، بحيث يرفع من مكانة الشعب الذي يعتبر نفسه الأفضل

والمتفوق ويحط من قدر الشعوب الأخرى، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تسعى الفوقية إلي اعتبار الآخر غريباً وبدائياً وبعيداً عن اسس الحضارة الصحيحة. ويصل الأمر بالنظرة الفوقية الي حد تبني الأساليب العلمية والتنفيذية كالتوسع الإستعماري والإحتلالات، عندها يتضرع الشعب المتفوق أنه مرسل لتبليغ الحضارة التي لديه الي شعوب أخري، أسوة بما فعلت أوروبا برسالة الإنسان الأبيض لشعوب القارات الجنوبية أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا.

وتنطلق الفوقية التاريخية اليهودية والصهيونية الإسرائيلية مجتمعة من نظرة توراتية في أساسها،بحيث تعتبر التوراة الشعب العبراني" شعب ا المختار"، وبقية الشعوب هم"غرباء"(غوييم).

هذا الإعتبار له تأثيرات عميقة جداً ويحمل أبعاداً مستقبلة بحيث تجلي مصطلح "شعب ا المختار" في صور وأشكال ومظاهر عديدة علي كافة المستويات السياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية والاختراعية علي مر العصور.

ولقد جندت النظرة الفوقية اليهودية لخدمة التاريخ الصهيوني والإسرئيلي من خلال اعلاء شأن مكانة اليهود والحط من مكانة سكان فلسطين الأصليين، أي: الفلسطينيين العرب، وأكثر من ذلك سعت المؤسسة الصهيونية والإسرائيلية إلي تربية الأجيال اليهودية علي هذه الفوقية وتجذرت وتعمقت لديهم مما خلق في عقول الطلاب والدارسين أنه لا يوجد في هذه البلاد سوى اليهود، ومن هو غير يهودي لا حقوق له علي الاطلاق. وهذا التوجه أخذ في الإزدياد سنة بعد أخرى.

سنورد هنا نصوصاً من كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية التي تشير بوضوح تام إلي هذه النظرة مرفقين النصوص ببعض التحليلات.

تورد معظم كتب التاريخ في المدارس العبرية مقطوعات ونصوص من كتابات هرتسل. وفي احدى الفقرات المقتبسة عنه والتي يوردها بارنافي يجري هرتسل مقارنة بين وضع العرب في فلسطين وكيفية تحول أوضاعهم وأوضاع فلسطين بعد مجيء اليهود. فيظهر من خلال هذا النص التفوق اليهودي في كافة المجالات علي

العرب، وان اليهود هم الوحيدون الذين يمنحون العرب السعادة والكرامة.

" لا يوجد منظر بائس وكئيب ومثير للشفقة كمنظر قرية عربية في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر. سكن الفلاحون في بيوت من طين، لم تكن مناسبة حتى للبهـائم. الأطفال ملقون في الساحة عراه دون رعاية وتعاملوا معهم كالبهائم.

ولكن الان كل شئ تبدل.. جففت المستنقعات وحفرت القنوات لتسريب المياه العفنة، وزرعت أشجار الكينيا التي تشفي الأرض.انظر إلي هذه القرية العربية، هذا المسجد الصغير، الناس البسطاء أصبحوا سعداء أكثر من قبل، يعيشون بكرامـة وأولادهـم أصحاء ويتعلمون.. فقط نالوا حسنة..."(بارنافي ص76من كتاب التنويلاند " الأرض القديمة الجديدة" لهرتسل).

وفي معرض حديثه عن احتلال العمل العبري فإنه يقول:" ان اليهـود قـدموا إلـي أرض إسرائيل للعمل بأنفسهم وبأيديهم في الأرض. و احتلال العمل من أيدي العرب "(بارنافي ص57) أي أن قدوم اليهود كان أمراً سيؤدي حتماً العرب الفلسطينيين إلي فاقدي الأرض ومتعلقين بالتالي بإمكانية العمل لدى القادمين اليهود. وهذا هو في حد ذاته المخطط الصهيوني:نهب الأرض و الإستيلاء عليها ثم اقتلاع سكانها أو تحويلهم إلي خدم .

وما أن يصل بارنافي إلي الحديث عن الوحدات العسكرية العبرية الأولـى خـلال الحرب العالمية الأولى، فإنه يشدد على التفوق العسكري العبري:"علي المدى القريب، خاصة عندما حقق الصهيونيون تصريح بلفور، كان من المحبذ إظهـار رغبـة فـي المشاركة وفي تحرير البلاد، وأكثر أهمية من ذلك: علي المدى البعيد. الواقع المزري للوحدات اليهودية سيطوى ويُنـسى وتطفـو مكانـه اسـطورة البطولـة اليهوديـة المتجددة"(بارنافي ص73). ما القصد من أسطورة البطولة اليهودية المتجددة؟! أي أن هذه البطولة كانت موجودة ومتجذرة في الـوعي التـاريخي والعـسكري اليهـودي كحادثة"متسادا" مثلاً(رغم كل الشكوك حولها) وجاء الوقت لاشعال جذوة هذه البطولة.

وكما ذكرنا فإن الفوقية تملك مساحة واسعة من اظهار ذاتها "فاليهود بـرزوا فـي

مجـالات كثيـرة بفـضل قـدراتهم ومقـدراتهم ممـا آثـار غيـرة وحفيظـة المسيحيين"(ليفشيتس.تاريخ شعب إسرائيل في العـصور الأخيـرة، الجـزء الأول، 1985، ص13).

والعرب لديه في درجة "متدينة انسانياً وحضارياً فمنذ القرن السادس عـشر كانـت إسرائيل جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وتميز حكم الأتراك بثورات البـدو ضـد الحكم المركزي، وصراعات بين الحكام الأتراك، وتميز هذا الحكـم بكثـرة أعمـال السلب والسرقة والنهب والقتل وتدني مستوى الأمن على طرقات البلاد و توجه معادٍ من قبل الحكم التركي لليهود في أرض إسرائيل".(ليفشيتس،م.س.ص28).

وعند تطرقه إلي شكل العلاقات بين اليهود والعرب في أواخر القرن الـ 19 فـإن ليفشيتس يجعلها بعيدة عن الطابع القومي، مشيراً إلي أنه كانت هناك نزاعات علـي خلفية حراسة وحدود الأراضي والقطعان والرعاية وحتى مسألة عـدم فهـم اللغـة والعادات، وبرأيه فإن السكان العرب كانوا بأغلبيتهم فلاحين، ينقصهم الوعي السياسي القومي(ليفيشيتس .م.س.ص42). ولكنه يناقض ذاته في نفس الصفحة 42 بقوله:" نجد بعض العلامات والاشارات في نفس الفترة بتحركات قومية عند العرب، خاصة بعـد نمو خوف العرب من سيطرة اليهود علي أراضيهم".

ونحن نعلم علم اليقين ان العرب الفلسطينيين قد بدأوا يعـون مخـاطر الـصهيونية وأساليبها في نهب الأراضي دون ان يكون لهم بدايات في الفكـر القـومي. فنهـب الأرض وسلبها يدفع الإنسان الفلسطيني إلى الدفاع عن أراضيه بكل قـواه. وعنـدما انطلقت الدعوات إلى مواجهة الخطر الصهيوني وكان أولها دعوة نجيب نصار محرر جريدة "الكرمل" أخذت المعارضة الفلسطينية تقوى وتتسع في هذا المجال .

وعندما ازداد سيل المهاجرين اليهود خلال الثلاثينيات الى فلسطين، أخذوا يـشكلون حوالي ثلث سكانها"وهذا الثلث هو الأكثر تنظيماً والأكثـر تأسيـساً والأكثـر ثقافـة والأقوى جداً"(حسبما يكتب ليفشيتس في كتابه السابق الجزء الأول ص127).

وحول موضوع النكبة العام 1948 فإن كتب تدريس التاريخ في المدارس العبريـة

تتهرب من الحقائق التاريخية الواقعية وفي مقدمتها تدمير المدن والقرى الفلـسطينية والتسبب في مشكلة اللاجئين، سواء ما يسمى لاجئي الداخل (الغـائبون الحاضـرون بحسب القانون الإسرائيلي الغريب والعنصري) ولاجئي الشتات. وتتهرب هذه الكتب من الإعتراف بحق الشعب الفلسطيني في أرضه ووطنه، بل إنها ـ هذه الكتب حتى الحديثة منها ـ لا تزال تنظر إلى الفلسطينيين خاصة والعرب عامة نظرة فوقيـة لا إنسانية على الاطلاق. فكتاب بارنافي الذي يتوخى أنه يقدم وجبات جديدة على مائـدة تدريس التاريخ ورغم تعرضه لمعارضة شديدة من قبل جهات في وزارة المعـارف الإسرائيلية إلا أنه ينظر إلى حرب 1948 على أنها "ليست مسألة في نجاعة المعارك مع عدد القوات العربية والأسلحة، إنما الضعف في الحالة الإجتماعية ومستوى الثقافة لدى الجنود العرب. هذه الأمور لم تكن كتوفرة لديهم، وانما التفـوق كـان للقـوات الإسرائيلية".(ص187).

وتبلغ الرؤية الفوقية إلى حد أنه يعتبر "دولة إسرائيل مخلوقاً مميزاً جداً في المجتمع الدولي". وهذه الحقيقة يتم إبرازها بشكل خاص عندما يـتم فحـص كيفيـة تبلـور مؤسساتها الرسمية. بقية الشعوب كونت نفسها بشكل تدريجي.أما اليهود فقدوا سلطتهم قبل ألفي عام، وما كان أيام خراب الهيكل الثاني لا يفيـدهم فـي الدولـة الحديثـة" (ص198).

هذه الرؤية الفوقية هي عنجهية في حد ذاتها وتنم عن روح عليائية ذاتيـة وغيـر موضوعية تصدر عن مؤرخ مؤلف كتاب تدريس من المفروض أن يتـوخى سـبل الموضوعية والحقيقة التاريخية الصريحة.

وعندما يتطرق بارنافي إلى شرح ووقع ومكانة العرب في إسرائيل فإنه يقـول: إن العرب هم فلسطينيون، بسبب الظروف التاريخية تحولوا إلى مواطنين في دولة أقيمت على قاعدة إقتلاعهم، ولأن الدولة أقيمت كدولة للشعب اليهودي، لهذا توجد مشكلة مع الأقلية القومية"(ص210). إذاً هو يعترف بحصول عملية اقتلاع الشعب الفلـسطيني، وفي نفس الوقت يعلن أنه توجد مشكلة على أساس قومي بين الشعبين، ولكـن هـذا

الإعتراف غير رسمي أو صريح إنما عابر فقط.

ويطرح كيرشنباوم في كتابه التدريسي علاقة المواطنين العرب بدولـة إسـرائيل وبالعكس بقوله:" رغم أن المواطنين العرب أظهروا بـشكل عـام إخلاصـاً لدولـة إسرائيل. إلا أن اليهود لم يثقوا بالمواطنين العرب. وذلك بـسبب اكتـشاف ظـواهر تجسس في صفوفهم لصالح الإستخبارات المصرية والسورية والأردنية. وهناك سبب آخر وهو الـصعوبات الناجمـة عـن الفـوارق التراثيـة والحـضارية وانمـاط الحياة".(ص340). التناقض واضح جداً في هذا الطرح، إذ كيف يتفـق الاخـلاص بشكل عام مع عدم الثقة!! ثم ما علاقة الفوارق التراثية مع ثقة اليهود للعرب؟! هـل هذه الفوارق وانماط الحياه هي قاعدة لعدم الثقة؟! تفسير غريب ونظرة فوقية فاضحة.

وأسوة بعدم اعتراف المؤسسة الرسمية الحاكمة بمجزرة دير ياسين وعدم تقـديمها اعتذار الدولة الرسمي حتى الان، فإن كتب تدريس التاريخ تنتهج الاسلوب نفسه من حيث اخفاء المجازر والمذابح ، اما بواسطة عدم التطرق اليها بالكليـة، أو ذكرهـا بايجاز وبشكل عابر كما رأينا في نموذج دير ياسين. ولكن أن ترافق المجازر نظرة فوقية، فهذا أمر مستهجن لم نلحظه في أي حدث تاريخي في أي بلـد آخـر. فعنـد الحديث عن مجزرة القبية في تشرين الأول 1953(كتاب بارنافي هو الوحيد من بين كتب التدريس التي فحـصناها، يـذكر هـذه المجـزرة) والتـي قامـت بتنفيـذها الوحدة101بقيادة أريئيل شارون يصفها بأنها" لـيس جريمـة، انمـا للـدفاع عـن المستوطنات الإسرائيلية في وجه المتسللين، فقتـل فـي القبيـة 69رجـلاً وامـرأة وطفلاً"(بارنافي ص219).

وبارنافي كباحث له مكانته في الاكاديمية الإسرائيلية يعرف جيداً ما هو موجود في سجلات أرشيف الجيش الإسرائيلي، ويعرف جيداً أن ما حدث في القبية هو جريمـة ومجزرة أثارت ردود فعل شديدة في العالم.بيني موريس في كتابه "حروب الحـدود" يفند المزاعم حولة هذه المجزرة باقتباسه ما جاء في تقرير شارون،"اقتحمـت القـوة القبية بسرعة تحت غطاء النار حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، تمكنت القوة

من اجتياز كل القرية، واقتحام معظم البيوت وتطهيرها بواسـطة اطـلاق النيـران والقنابل، النساء والاطفال اختبأوا في البيوت. ألقيت قنابل على كل بيوت القرية. حتى بركة الماء في القرية دُمرت".

ويضيف قائلاً:ان العملية العسكرية هذه، كانت تهدف إلى حد أعلى مـن الخـسائر بالأرواح..ويقتبس بنى موريس عن موشي شاريت الفقرة التالية:"في القبية وحدها هدم ثلاثون منزلاً. رد فعل كهذا وبقوة كبيرة كهذه لم يحدث مثله، تحركت ذهاباً وإياباً في غرفتي أفكر في الموضوع وأنا محبط حتى الأعماق. وفي الغد سجلت" لو كان لـدي ادنى شك لوقوع مثل هذا القتل لكنت أقمت الدنيا وأقعدتها ضد الإقتحام هذا".

(بنـي مـوريس فـي كتابـه المـذكور ص278،اصـدار عـام عوفيـد1996، بالعبرية،والإصدار بالإنكليزية أصلاً العام1993).

وتعتبر كتب التدريس، انتصار إسرائيل في حرب حزيران 1967مرحلـة جديـدة وحاسمة في مسيرة تكوين دولة إسرائيل، وسط كراهية وتهديد العـرب لهـا. فهـذه الحملات العسكرية الجريئة حطمت القوات العسكرية العربية مجتمعة، وألزمتها على الهرب بعيداً عن الحدود الـسابقة، وهكـذا بـدأت مرحلـة حيـاة جديـدة لـسكان الدولة"(كيرشنباوم.م.س.ص380).

أية مرحلة؟ وما هي ؟ تترك هذه العبارة شعاراً فضفاضاً غير محصور المعاني .

الفصل الثانـي:

منطلقات ا ياة الأدبية الإسرائيلية و اتا

لا يخرج منهج الفكر الأدبي الإسرائيلي، عن كونه تنظير للفكر الصهيوني وتكنيكاً لآلية فعله. فالأيديولوجيا هي مجموعة من التصورات والأفكار المترابطة والمتلاحقة التي تؤدي معنى محدداً للعلاقات الاجتماعية. وما نقصده بأداء المعنى هنا، هـو أن المشتركين في هذه العلاقات يجدون أن تلك الأيديولوجيا طبيعية ومقبولة. صـحيحة ومبررة ومشروعة. وهكذا فإن أصحاب أيديولوجية معينة يشاركون فيها ويمارسونها عفوياً، دون أن يكونوا مكرهين على ذلك.(1)

استطاعت الأيديولوجيا الصهيونية خلق جسم مترابط مـن الأفكـار المنبثقـة عـن المعتقدات والأساطير والحوادث التاريخية، حقيقية كانت أم مزيفـة، لتخفـي بـذلك التناقض الصارخ، القائم بين شكلها ومضمونها. وهي تقوم على"ديماغوجية اجتماعية" بلا حياء وتؤثر على أناس مؤمنين غير ثابتين أيديولوجيا، وغير واعين سياسياً، وهي لأنها مبنية بشكل دقيق قادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة بحيث أصبح وعي ملايين الناس يهوداً وغير يهود عاجزاً عن التميز بين الحقيقة والخيال " الميتافيزيقيا" بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخياً(2) وتدعي الصهيونية بأنها تمثل جمع يهود العالم وأنهم جميعاً أينما وجدوا يدينون بالولاء لها ويستجيبون لدعواتها دون تمييـز، فهناك من يرفض إصباغ التفسيرات القومية الضيقة على الديانة اليهوديـة وقيمتهـا الأخلاقية بمدلولها الإنساني.

ومن هؤلاء "المجلس الأمريكي لليهودية الذي اتهم من قبل الحركة الصهيونية بالتنكر للدين اليهودي وخيانة أصولها ومحاباة العرب وتأييد قضاياهم(3).
من هنا يمكن الافتراض بشيء كبير من الدقـة"أن الـصهيونية واليهوديـة فكرتـان متداخلتان بعد أن عمدت الصهيونية إلى تزوير الشريعة الموسوية حتى يتـسنى لهـا استعمار فلسطين، وعلى أساس ما كتب هرتزل من "أن الغاية تبرر الوسيلة". وهـي القاعدة التي انحصرت فيها الأفكار الرئيسة للصهيونية كمـا صـاغها كلاسـيكيوها هرتزل وبنسكر وبوروخوف وغيرهم والمتمثلة في(4)

اليهود .. شعب الله المختار

اليهود هم شعب ذو مصير تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الأخرى.
كل يهودي ينتمي إلى الأمة اليهودية ويجب على اليهود أن يطمحـوا للعـودة إلـى موطنهم القديم فلسطين!
على هذه الأسس استطاعت الصهيونية أدلجة الأفكار وتوظيف الأدب
لتحقيق مآرب. فباتت الصهيونية الأدبية هي الوجه الأحدث للصهيونية السياسية بحيث واكبتها من مرة أخرى مطوقة نفسها حسب كل مرحلة. ففي العشرينات كانت النظرة تجاه العرب تتمثل في: "العربي المسلم هو ذلك البدوي المتوحش القاسي الذي يتـاجر في العبيد، ومع بداية السبعينات تحول إلى بدوي ثري عربيد نهـم للنـساء. لتـصل الصورة في التسعينات إلى الإرهابي الأصولي المتعصب الذي لا يصلي قبل أن يقدم على قتل الأبرياء وتفجيرهم. فهو شخص همجي أشعث الرأس، يتحدث بلكنـة ثقيلـة يشتهي أن يملك أموال العالم، يشبه الخنزير في كيفية ابتلاعه للطعام، ويقتل الأطفـال بلا رحمة إذا لم يغتصبهم"(5)

لذاك لا يحق له الأرض التي يعيش فيها. فهي أرض إسرائيل. هـذه الأفكـار المزروعة داخل وجدان الإسرائيليين تؤكد إلى أي مدى وصل التـضليل الـصهيوني البشع. وأن معظم الأدب الإسرائيلي أدب عدواني. يمثله العديد من الكتاب الصهاينة.
"أمنن حيفر" مستوطن إسرائيلي في الـضفة الفلـسطينية يكتـب للتلاميـذ والطلبـة

الإسرائيليين محاولاً إعطائهم إحساساً عميقاً بالارتباط بالأرض بعد مئات السنين مـن الشتات وحياة "الغيتو" على حد قوله. في كتابه "مواضيع مركزية في تاريخ الـشعب والدولة" وفي مستهل فضل بعنوان "تعلم كيف تجيب على السؤال بصدد حقوقنا علـى الأرض" يقول:(6) "إن كل الأقوال بشأن الحقوق بشأن الحقوق التاريخية التي يحفـل بها النقاش بيننا وبين العرب تفتقر إلى الحقيقة وناجمة على أي الأحوال لدينا عن قلة الفهم وقلة المعرفة والدراية بتاريخ الاستيطان اليهودي على أرض إسرائيل. إن أميتنا ولدت فرضيات كاذبة بينها تلك الفرضية القائلة أنه لدى عودتنا إلى البلاد، بعد هجرة دامت ألفي سنة وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر، أقام هنا مئـات الـسنين. وهذا غير صحيح لا من قريب ولا من بعيد. الحقيقة أننا عندما أتينا إلى هنا الآن لـم بالتأكيد شعباً أقام مئات السنين".

يشير النقاد إلى ثلاث سمات في الحياة الأدبية الإسرائيلية تؤكد ماهية الثقافـة التـي تجري ممارستها بهدف خدمة الأيديولوجية الصهيونية. هذه السمات هي:(7)

-1هناك تدخل فظ في حرية التعبير الأدبي الإسرائيلي إذا جنح إلى مخالفـة جـوهر أهداف السلطة الإسرائيلية وهو أمر يمثل الجانب الضيق من عملية شاملة تـستهدف تجنيد الأدباء الإسرائيليين من أجل العودة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيوني.

-2الأدب العبري في إسرائيل يواكب أهداف السلطة وهو أداة فـي يـدها لتحريـك الجماهير اليهودية وهو أدب يحمل سمات الصنعة، والأدباء العبريون "أبواق الـسلطة الحاكمة والصهيونية هدفها إقناع القارئ العبري بأن ليس أمام العربي إلا الرضـوخ لما تمليه عليه الصهيونية وأن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة"(8)

-3هناك أدب يتحرك لخدمة الدعوة الـصهيونية لمـا يـسمى "بالقوميـة اليهوديـة" وارتباطها بفلسطين أرضاً وتاريخياً. وفقاً " لمبادئ التي قام قادة الحركة الـصهيونية يخوضون على أساسها حملاتهم السياسية لتحقيق الأهداف الصهيونية"(9) وقد عبـر عن ماهية هذه الدعوة في إطارها الأدبي الكاتب الصهيوني طحاييم هزار الذي شغل

ذات مرة منصب رئيس اتحاد الكتاب العبريين حين قال"إن عنصرية الشعب اليهودية تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرناً كونه وحـدة غيـر قابلـة للتفتت" وحينما يقول هزار، هذا إنما يريد أن ينفـذ منـه دور الأديـب الـصهيوني وتحديده. أن هذا الدور يتحدد في العمل على تغذية الذاكرة الجماعيـة لـدى أبنـاء الطوائف اليهودية وإثارة مشاعر الانتماء القومي الموهوم لديهم. والعزف على وتـر العلاقة التاريخية التي تربط بين اليهودي والأرض الفلسطينية"(10) وكما جـاء فـي سفر ارميا " أيها الرب، رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يخزون"(11)

مقولتا الأرض التاريخية ومعاداة السامية

إن دراسة الوثائق الصهيونية وأفعال الحكومة الإسرائيلية، تبيان لنـا مفـاتيح المذهب الصهيوني، الذي هو مدون في نظريات وأفعال هرتـزل ووايـزمن وبـن غوريون وغولدا مئير، وغيرهم من قيادات صهيونية أخرى. ونـستطيع أن نـوجز مجمل آرائهم فيما يلي(12)

1 ـ ان العالم الخارجي، اللايهودي، هو عالم، بطبيعته، ضد السامية وسـيلجأ هـذا العالم أخيراً إما الى تدمير اليهود وإما لامتصاصهم!.

2 ـ لا مفر لكل اليهود في العالم من مغادرة أوطانهم التي يعيشون فيها (المنفـى)!! ويعودون إلى أرض إسرائيل الخاصة والمطلقة لهم. والهدف من العودة أحياء دولـة داود وسليمان القديمة، بحدودها المقدسة وبلطيف العبارة فهذه الأرض وطن اليهود!

3 ـ في سبيل الحفاظ على نقاء العنصر اليهودي، يجب طرد كل إنسان غير يهودي، وإذا ما رفضوا فإنهم يجب أن يعيشوا تحت شروط سيكولوجية قادرة على خلق جدار منيع، يفصل بين المجتمع المقدس والغرباء. وهذا تعبير مأخوذ من التوراة، ويحمـل الازدراء والاستخفاف. من هنا تسلحت الصهيونية، من البداية، بطرق تشوه الوقـائع التاريخية، في محاولة لاستخدام الحوادث الغابرة لخدمة أهدافها. لهذا يركز الصهاينة في وثائقهم ونشاطهم الدعائي على محاولة البرهنة على حق اليهـود فـي فلـسطين كوطن تاريخي لهم، طردوا منه بالقوة، وذاقوا الأمرين طيلة عدة قرون. ولكنهم ظلوا

يحلمون بالعودة إلى هناك(13) لهذا أتقنت الصهيونية كل دعوة لعداء اليهود، لـدفعهم للانغلاق والمحافظة على "الجوهر اليهودي" ثم دفعهم لتحقيق المـآرب الـصهيونية، لإنجاز الوطن المزعوم(14) وهناك باتت الهجرة والاستيطان ضروريين لتحقيق قيام إسرائيل على الأرض التاريخية المزعومة. ولقد أشار مناحيم بيغين ذات مـرة، فـي برنامجه الانتخابي، إلى الهجرة وأهميتها للكيان الصهيوني قائلاً: "ستعمل الحكومـة على تشجيع الهجرة باعتبارها على رأس الأولويات"(15) من هذا المنطلق تـم ذبـح قرى بأكملها على الطريقة النازية وإصدار القوانين المساعدة للاستيلاء على الأرض. ووصم كل من ينتقد تصرفاتهم بصفة اللاسامية وبالرغبة في إبادة اليهود(16).

وبما أن الظاهرة الأدبية الصهيونية ظاهرة مصطنعة، لعدم وجود أدب يهودي بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، نظراً لأنه لا يغوص في العمق، إنما يسير باتجاه السطح لغاية إعلامية تخدم أهدافاً سياسية في العصر الحاضر كما كانت في العصور الوسطى بينما كان هدفه قديماً خلق نوع من النزوع المتعـالي بوجـه الأحـداث التاريخيـة والانضواء لاجترار تعاليم أثرت تأثيراً مباشراً على بنية اليهود السيكولوجية والفكرية والإيحاءات الدينية المستمرة ومنها انطلق تصور مشترك كحل لمشكلتهم باللجوء إلى "الغيتوات" فأدى ذلك بهم إلى العنصرية الشوفينية وبالتالي إلى توقفهم أمـام تيـارات التغير ونواميس التطور(17).

وتمثل رواية"العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد" للكاتـب الصهيوني العنصري بنحاس سادية نموذجاً رمزياً للكتابة الأدبيـة الـصهيونية فيهـا يحاول الكاتب بث توحد صوفي في نفس قارئه بالأرض العربية عبر مقولة " الأرض التاريخية مستمداً رموزه والحدث في الحدث في القصة من الموقف الراهن المباشـر دون استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخيـة وتجـسد الشخصيات الثلاثة الرئيسية في القصة البناء الفلسفي الذي تقوم عليـه القـصة(18) والذي يرتبط بالشوق الصوفي للأرض والحلم التوراتي الذي يصوره أرض إسرائيل.

"قالت: شيء ما بداخلي يغني. لكن دون نغم

بماذا يغني؟

إنه يغني هكذا... العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد.

ماذا بعد ذلك؟

ليس بعد ذلك شئ. فما قلته يتكرر... ويتكرر للأبد"(19)

التوحد الصوفي بين الأرض والمستوطن

هذا هو التوحد الصوفي بين الأرض العربية والمستوطن الـصهيوني الـذي يحاول عبر أغنيته الاستحواذ عليها بصورة تزيف الواقع والحقائق التاريخية والتوحد هنا بين "افيجيل" الأرض. و "أفشالوم" الشعب اليهودي الذي تصلها به وشيجة الدم كما يقول الكاتب الصهيوني وهنا "التزييف الحقيقي في أبرز مظاهره" إذ أنه بنفي وجـود لشعب العربي في صورة فاضحة لا تتمشى وحقائق التاريخ ويستمر ذلك ليقول: إنها "الأرض" محروسة منه بلا إرادة منها أو منه"أي أن العلاقة هنـا قدريـة تستحـضر التراث اليهود "لنسلك أعطى هذه الأرض"(20).

ورغم مرور أحداث كثيفة أبعدت هذه العلاقة، إلا أنها تنتقل عنه، ففي أعماقها تتردد دائماً أغنية التوحد به، أغنية العشب الأحمر التي تـذوي فـي باطنهـا رغـم الأضواء والرياح الساخنة والدور القاتمة الغارقة في السبات والمتدخلة في حـروف اللغة العربية وهناك إشارة إلى وجود العربي، الذي رفض الكاتب الصهيوني جذريته فنعته باللون الباهت.

"عندما خرج افشالوم من الأزقة المتداخلة المتشابكة كحروف اللغة العربيـة. كانا قد وصلا إلى سوق، محنة يهودا، المقفرة"(21)

هناك تخيلات أدبية لما يقال بصراحة في وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات النفي لليهود هي لا يتأس من عودة افـشالوم فيهـا هـي "الكراكـي المهاجرة" طلائع الهجرة اليهودية تبشرها بقرب وصولها.

"مرت أسراب من الكراكي متتابعة متلاحقة. كانت هذه الأسراب فيمـا يبـدو قوام الجماعة المهاجرة الرئيس. أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكـن سـوى

طلائع للقوة الأساسية على فترات متباعدة كان يتردد صوت أشبه بنداء قصير. وفيما عدا كان السكون مخيماً. من أسراب الكراكي ما كان صغيراً يضم خمـسة أو سـتة طيور ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر. غير أنهم جميعاً كانوا يتحركـون علـى شكل رأسي صوب هدف لا يحيدون عنه"(22)

وهي صورة وضحها بن غوريون في رسائله حينما قال "وفلسطين ليـست إلا إحدى البلاد التي غزوها_ يقصد العرب_ أما أهل البلاد الأصليون فهم اليهود!! وقـد اعتبروها وطنهم عبر أجيال النفي والتشتت"(23) وقد يكون الكاتب اعتمد على قـول بن غوريون هذا فحرص في قصته على التسرع في الفعل وتكثيـف الهجـرة نحـو الأرض المقدسة التي يدعي _ زورا _أنها لهم "الليلة.. الليلة أسـتطيع" هنـا دعـوة حقيقية للإسراع بهذا الفعل. "لاحت الدموع في عينيها.. أمسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها. أحس برائحة جلدها وشعرها المسكرة كانت شفتاها ترتعشان وعيناها المشرقتان تطفحان بتعبير من الألم والرضا في نفس الوقت. وكانت بكل مـا فيها بتلك اللحظات جزءاً من حلم"(24)

إنه يقارن هنا بين الوجود العربي وطلائع الغزو الـصهيوني وارتبـاط ذلـك بالأرض تحت السارية العربية. والرضا لبداية الوجود اليهودي الذي باتت تحلم به.

"وفجأة بدأت ترتعش أراد أن يطمئنها فضمها إليه وجعـل يـداعب شـعرها وكتفيها العاريتين في رقة أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسـمعها تتمـتم بكلمات مختلفة. كلمات غريبة ربما قالتها في أوقات أخرى وطفت على سطح ذاكرتها المضطربة"(25) عله يشير هنا إلى الوجود العربي، وارتباط عرب فلسطين بلغـتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويعتبر ذلك دخيلاً عربياً على الأرض في فلسطين كما صور الكاتب. لكن افشالوم"الشعب" وهو راقد بين اليقظة والمنام تطالعه رؤيا التوحد بـ "افيجيل" التي التحقت بدار الدعارة وفقدت طهارتها لأنها تعيش في كنف العـرب ويعيش افشالوم بأمل تطهرها من الدنس.ويتجسد هذا التطهر في دمائها عندما تـذبح لتبعث من جديد أي عندما تغسلها الدماء من آثار العرب. الكاتب الصهيوني سـادية

يدعو هذا صراحة لقتل العرب، يدعو للمذابح الجماعية التي بها وحدها يسيطر اليهود على البلاد لتصبح الأرض ظاهرة خالصة للقادمين اليهود، وهو هنا يستحضر ما قام به "يوشع" عندما استطاع بالخديعة والمذابح الاستيلاء على "أريحا" من أهلها الكنعانيين العرب قبل آلاف السنين والذين لا زالوا يمارسونه حتى الآن باعتبار " أن الـشعوب غير اليهودية خارج القانون" (26) ويذكرنا هذا بحال بني إسرائيل بعد ظهور المسيح ثم بحال الذين دانوا باليهودية من الأقوام الأخرى. والذين صـاروا غالبيـة اليهـود وعاشوا في أوروبا الشرقية والوسطى فقد عاشوا في جو الأسفار وتلقيناتها ينظـرون إلى غيرهم نظرة استعلاء وكيد وكره ومكر وشر. (27) وخلال مـسيرة "أفـشالوم" و"ايفيجيل" في الطريق الطويل نحو اللحظة المرجوة لتحقيـق الرؤيـا يظهـر لهمـا الشخص الغريب المفزع، هذا الغريب " المقصود به العربي صاحب الأرض الحقيقي" يعترض المسيرة. ويظهر متلصصاً متربصاً في الظلام. "فجأة أفاقت ايفيجيل" وهبـت واقفة، جعلت تصيخ السمع وراحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئاً عـدا بـضع أشجار هنا وهناك و "أفشالوم" ينظر إليها مشدوها قالت في صوت خافت: أشعر أنـه هنا.

من؟ أنك مريضة بالأوهام يا ايفيجيل.

كلا ... أنه يختبئ ربما خاف إحدى الأشجار.

سأبحث عنه... قال "افشالوم" وهو ينهض من مكانه(28).

ورغم التزوير الواضح للتاريخ لأن العربي لا يواجه في الظـلام، إلا أن عنـصرية الكاتب أثرت على رؤياه فأسقط ما يدور في نفس اليهود على العـرب، فهـم الـذين يعملون في الظلام وهم الذين سرقوا فلسطين بالدسائس والتآمر. وصهيونيتهم هـي التي جعلت دور الدين بالنسبة لليهود "يختلف عن دور الدين عند الـشعوب الأخـرى وذلك بهدف جعل الوجه الديني للحياة اليهودية مصدراً للوعي الصهيوني الذي هدف قيام الصهيونية إلى استعمار فلسطين وما حولها"(29) بأية طريقة وهذا لن يكـون إلا بقوة لقد ظلت هي العامل الأكبر في تأكيد المقولة الصهيونية "الأرض التاريخية" وبكل

انعكاساتها على الأدب والأدباء، فها هي الكاتبة الصهيونية "روث الموجي" تدعو في قصتها" كان يمكن شراء مدفع بهذا المال" "لاعتماد هذه القوة من وقت قريب وزعوا عندنا منحاً مالية على الأدباء ألم يكن من الممكن شراء مدفع بهذا المال. يكفينا الخبز، عش الغراب من الكماليات تماماً مثل الحلوى"(30)

تدعو الكاتبة هنا إلى الحرب التي لا يمكن بدونها أن تتوحد بالأرض فالكاتبة "روث" في قصتها هي الأرض وميخائيل بطل القصة هو الشعب والأرض هي التي تطلبه وبأي ثمن لتتوحد به وعبر جو جنسي يبرز هذا التوحيد "كان في مقدوري أيضاً أن أقول له: أن الصلة الجسدية هي غالباً العدو رقم واحد ولأنها تؤدي بنا في الواقع إلى تحويل الحب(31) تحويل الحب من النظري إلى العملي، من الحياة في أوروبا وغيرها، من موطن اليهود إلى التوجه نحو فلسطين أب أنها تدعو لرفض الاندماج في المجتمعات الغربية والمواطن الأصلية لليهود في قصته " لا لون للخوف" التي تتحدث عن الحرب للكاتب جدعون تلباز قد يبدو للقارئ السطحي من تتبع أحداث القصة أن الكاتب يتألم للحرب وأنه يقف منها موقفاً راديكالياً. ولكن متتبعاً لأحداث القصة يؤكد عكس ذلك. إذ أن الموقف الراديكالي والموضوع للكاتب ومن الناحية الإنسانية على الأقل يتطلب توضيح حقوق الآخرين والآخرون- الفلسطينيون- ولكن الكاتب لا يتطرق إلى ذلك. أنه يتألم للقتلى اليهود الذين يذهبون للاعتداء على الغير لتحقيق مقولة الأرض التاريخية.

"كان الموت أسهل الطرق بالنسبة إليه وجدوه محترقاً ومختلطاً بجزئيات إحدى الدبابات كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهي جثة الدبابة لم يبق على أصله الأول سوى الأشلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب أما سائر الأشياء فكانت منتمية إلى الماضي. كالدودة المتحجرة أما الحاضر فقد كان الذباب، ذباب الجيل في بداية الوحشة النظيفة"(32)

ورغم الألم الذي يبديه الكاتب للقتيل اليهودي إلا أنه يظهر إعجابه ببراءة الطيار اليهودي المقاتل الذي يلاحق الأعداء "الأغيار" الذين يقلقون اليهود ويظهر

الكاتب بهذا المعنى فوقيته البغيضة وهو بهذا لا يخرج عن مقولات الـصهيونية فـي تفوق العنصر اليهودي الذي يستعمر الأرض ويجلب لها الخير على حد زعمه" لـن يجلب مجيئنا إلى غور بيسان أي ضـرر علـى عـرب المنطقـة، العكـس هـو الصحيح"(33) ويستدل الصهاينة على هذا بقول أحد الخونة قبل عام 1948 حسب ما أورد ذلك بعض الكتاب الصهاينة على لسان عربي من حوران: "إسمع.. أعمل فـي منطقتكم أكثر من سنة. وكذلك في منطقة حيفا وأرى التقدم وبناء البيوت عندكم وكل هذا بسبب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب المهـاجرين الـذين يبنـون البيـوت والحدائق، ومزارع الأبقار والشوارع والأرصفة إنهم بحاجة إلى العمل وكل عائلـة يهودية تستوطن فلسطين تعيل ثلاث عائلات عربية، هذا هو سبب تقدمكم هنا. وعدم تقدمنا في حوران لأنه لا توجد عندنا هجرة يهودية"(34).

هذه هي الصهيونية وهذا هو الاستيطان والغطرسة. عائلة يهودية تعيل ثلاث عائلات عربية، والعرب يرحبون باليهود في حوران "سوريا" وهذا كله لن يكـون إلا بقـوة. يقول تلباز في نهاية قصته وبعدها اختلفت جبلة المحرك من أذنيه وفتح الطيار عينيه واستقبلته أحضان حارة وربتات على الكتف وهو ينزل إلى الممر.

-هل لدى أحدكم سيجارة؟ سأل.

من كل جانب مدت إليه علب مفتوحة سحب سيجارة من إحداها وأشعلها لـه أحدهم جذب الطيار نفساً عميقاً ثم أطلق الدخان من رئتيه ثم ألقى السيجارة وداسـها بقدمه. وما زال كل هذا غير حقيقي ذلك أنه لم يبدأ في الإحـساس بـصلابة الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة"(35) يعني ضرورة الاستمرار في القتـل حتـى النهاية!؟.

في قصة" ش. دويفين" بعنوان" مأخذ الشيطان على فاوست" نرى نموذجاً فنياً مركبـاً لأدب مقولة "معاداة السامية" ودفع اليهود لهجرة إلى الأرض التاريخية فـي جانبهـا الوصفي وإذ أن المعروف أن الشطان في سفر أيوب(36) يلعب دور الشر. والـسفر من كتابات التأمل اليهودية المتناثرة بروح الحكمة والتفلسف اليوناني خلال فترة الحكم

اليوناني في الشرق وهو يناقش مسألة الشر في العالم ويطرح تساؤلات محددة حـول مبررات العذاب الإنساني الذي يلحق الأخيار من الناس، الشيطان في سـفر أيـوب يوعز إلى الرب لإنزال ضربات متلاحقة بأيوب لاختبار إيمانه لأن ذلـك سيكـشف زيف عقيدته ويستجيب الرب للشيطان ويأمره بالتصرف " أبسط الآن يدك مس عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجذف عليك"(37) هذا هو دور الشيطان في سفر أيـوب دور محرض القوى السماوية العليا على إلقاء العذاب بالناس ودوره في مسرحية "فاوست" كما يفهمه كاتب القصة دور الشرير الذي يغوي البشر ليعرض عليهم ممارسة الـشر والوقع في الخطيئة(38). فما الدور الذي ينيطه كاتب القصة هنا بالشيطان؟ يوضـح د0البحراوي في تحليله لهذه القصة" أن الكاتب أبرز الشيطان وجعل له دوراً أساسـياً فيها فهو الراوية ومقدم التقارير للذات الإلهية وبرغم شروره. إلا أن العـذاب الـذي أصاب اليهود جعله يرق لهم أي أن من يعذب اليهود اشد ضـراوة مـن الـشيطان نفسه"!(39)

"يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة، إنه يحاول أن يحد من انفعالاته لابـد أنـه سيثور معرباً عن موقفه بوضوح غير أنه لعجب الجميع، فيما عدا النائب، لا يفعل لم يجد أمامه سوى النائب ولكن يدو أن دهشته الكبيرة لم يكن بالقدر الكـافي لإخراجـه عن صمته.

سأل النائب عن الرجل الذي يتعذب من سنين في أو شفيتس قال النائب " أعني الرجل الذي لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب"(40).

أي أن الكاتب يريد أن يقول لنا أن هناك العديد من المعتقلين في سجون النازي ورغم هذا لا يهمه منهم سوى اليهودي ذلك "لا يكف ع الاستشهاد بـسفر أيـوب" أي التوراة وهنا محاولة رخيصة لغزو العقل الإنساني وشده للتعـاطف مـع اليهـودي المسكين وإبراز الأنانية التي يتميز بها اليهود وهذا يوضح احترام اليهود وعدم قتلهم أو اعتقالهم دون أي اعتبار إلى الآخرين، وفي أتون ذلك الموقف تبرز فوقية الكاتـب وغطرسته لتتضح الثقافة العنصرية للشعب المختار!! الذي يميز بالبطولة الفذة، حتى

الأطفال فيه يجابهون الألمان ويتخطون أسلاكهم الشائكة المنيعة وهذه لهجة " السوبر طفل" الإسرائيلي بكل تعاليها والتي تكثر في أعمال الكتاب الصهاينة مثـل كرميلـي وسروج وستير وغيرهم وقصة "ديندين" الطفل اليهودي المقاتل الذي يهزم الأعداء في كل زمان ومكان" (41)، في قصة "أنا مهاجر" يدعو أي.ش. مأمور اليهود للعمل في فلسطين لخدمة الصهيونية. "المهاجرين هو اليهودي الذي يسافر إلى إسرائيل لتكريس حياته من أجل الوطن ومصالحة، عندما سمعت هذا التعريف تذكرت يهوديـاً كنـت أعرفه عرف كلمة "حالوتس" رائد الهجرة_ بأنه كتلة الحديد الخام الذي يخلق للـوطن ما يحتاج إليه. لم يكن اسم ذلك اليهودي "ساشا" بالطبع وغن كان اسمه قريباً من هذا في جرسه "أوسيا" ترومبلدور(42) وهنا دعوة للاقتداء بمن يـسمون فـي الحركـة الصهيونية بالرواد الأوائل ومنهم هذا المدعو " ترومبلدور" ومن جانب آخـر دعـوة لصهينة اليهود الروس وعدم اندماجهم في مجتمعهم الروسي حيث ولـدوا وعاشـوا، لهذا يستحضر شخصية "ترومبلدور" الحالوتسي الأول "المهاجر" الذي حـارب فـي روسيا وفي الشرق، وفقد ذراعه وقرر أخيراً الذهاب إلى فلسطين للعمل والقتال فيها من أجل الصهيونية فهو "ساشا" الروسي، ولكنه استبدله بأوسيا ترومبلـدور وهكـذا تترجم مقولة الأرض التاريخية القاضية بحق الملكية المطلق للأرض العربيـة فـي فلسطين في شكل فني تتداخل فيه مقولة العـداء للـسامية الـساعي للقـضاء علـى اليهود(43) مع الأرض التاريخية لليهود، واليهود وحدهم.

العنصرية والتفوق

الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني على الصعيد الدولي لا يقـل عـن الـدور السياسي الذي قام به رواد الصهيونية السياسية الأوائل، والأثر النفسي الذي أحدثتـه روايات وكتابات "بنسكر وهرتزل وأحاد هاعام" الدبية لا تقل أهميـة عـن كتابـاتهم السياسية والأيديولوجية. لقد وقف الأدب السياسي الصهيوني أمام التسامح بقوة ومنـذ البداية مقاوماً أي تطلع جدي لحل المشكلة ليهودية، ممارساً التزوير وقلـب الحقـائق ومرتكزاً على أحداث الماضي لتبرير أحداث مستحدثة ليتعدى ذلـك الزمـان وذلـك

المكان مثيراً عداء الشعوب بسلوكيته الشاذة على الصعيد العملي والنظري وإذا كـان جام الغضب صب على العرب قديماً وحديثاً. فانهم ركبوا المركب تجـاه الـشعوب الأخرى فلم يسلم أحد من شعوب الأرض من سهامهم العنصرية الموروثة (44) ولما كان الأدب الصهيوني أدباً موجهاً فأنه بالتالي يعكس سياسة وفكـراً وفلـسفة تبناهـا الصهيونية جميعها وتعزيزها لتلعب دورها المرسوم والمخطط لها(45) وتشكل فكرة التفوق أحد المكونات الأساسية للفكر الصهيونية والتفوق الذي يحدث عنه الـصهاينة تفوق شامل (46) بالإضافة إلى أنه أبدى أي أنه ليس مرهوناً بفترة زمنية معينة تمتد منذ صراع اليهود مع فرعون ودخول ما يرتبط بذلك من أساطير وخرافـات قديمـة وغطرسة وتزوير متعمد لتاريخ المنطقة، لأن ربط هذه التفوق بمرحلة تاريخية معينة يؤدي إلى حرمان الحركة الصهيونية من استثمار هذا المفهوم أيديولوجياً ومن أجـل ترى الصهيونية أن بيجن مثلاً هو صهيوني نقي، فغن يكن المرء يهودياً يعني عنـد الصهاينة أنه متفوق بذاته ولذا يحسده الأغيار ويودون لو يزيحوه من طريقهم، فالذات اليهودية هي محور العالم ولا يهم أن يكون للأغيار أي نصيب، ويـذكرنا هـذا فـي الوقت نفسه بقول بن غوريون "لا يهمني ماذا يقول العـالم بـل اليهـود" (47). لأن الصهيونية في نظر اليهود جزء من إرادة السماء وأن اليهود قد توحدوا بـالرب(48) وأن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبـق عليـه التعبيـر السائد"لا وجه الشبه" ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الـصنف الأسمى تقبع بقية الأمم من الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف.وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما. وحسبما جاء في كتاب "هاجر" المقدس عنـدهم "فإن الجسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب وذلك مـن حيـث أكلهـم وشربهم وطينتهم وغن كنا نرى ثمة تشابها في الأجساد فما ذلـك إلا فـي المظهـر الخارجي فقط أما داخلياً فالرق بينهم كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى وما يصح على الجسم "المادة" يصح أيضاً على النفس" الروح" إذ أن أصل أرواح بني إسرائيل هـي مـن الـروح

المقدس ذاته" (49) ولهذا فإن الانتصارات اليهودية الحديثة كما يرى الصهاينة" ليست فقط لأفضلية إسرائيلية بل للمميزات أخلاقية، أي أن في اليهـود روحانيـة تميـزهم وتجعلهم يتفقون وينبغون أكثر من غيرهم"(50) من هنا استنبطت مفـاهيم سياسـية، التعصب إحدى ابرز سماتها. كما تقول الشاعرة العنصرية الصهيونية "أنا جرينو" في إحدى قصائدها التي تتعالى فيها على العالم:

قالت لي أمي بأني

ابنة لشعب بالأسفار .. والأغيار جهلة

حدثيني أن أكون بالمقدمة

لأني يهودية

قالت أمي "إنني ابنة شعب لا يقبل الضياع

واجي مواصلة الدرب.. درب أبي

لمواجهة الأغيار الأعداء

ولو كانوا كل العالم(51)

مقابل هذا الاستهزاء بالآخرين فإن هذا الأدب ما برح يضخم المميزات الذاتية المكونة لماهية الصهيونية. فهو باعث حضارة الأمم ودافع عجلة تقـدم الـشعوب وأسـاس المدينة. إن النظرية الصهيونية تعتبر بحق من أكثر النظريات الرجعيـة العنـصرية الشوفينية خطراً على الفكر التقدمي العالمي(52) وذلك من خلال جوهرها الذي يـنم عن معاداة الشعوب في العالم أجمع لأن "المفاهيم" الفلسفية التي تعتمدها الـصهيونية سلاحاً أيديولوجياً تكمن في جوهرها حقيقة العقيدة الدينية الوضعية الجامـدة للديانـة اليهودية وهي تتجلى في الأسطورة التي تتحدث عن اتحاد اليهود مـع ا والاعتقـاد باستثناء اليهود(53) والرجعية المعتمدة في هذا الكيـان لهـا طـابع أكثـر توسـعاً وعمقاً(54) ومن هنا كانت دعوات الصهيونية البحـث عـن أرض تـضفي صـفة الشرعية لكيانها بأي وسيلة حتى ولو كان القتل والاغتصاب أساساً لها، فـي مقطـع بارز للشاعر "غبرائيل اليشع" يظهر وضوح ما تكنه الحركة الصهيونية للإنسانية من

كره هاهو يقول:

لا تطلب الغفران كقط ساعة النزو.

هذا زمن الذئاب المغتصبة

لا التنسك والصومعة(55)

هكذا استطاع المنظرون الصهاينة النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني بالإيحـاء المستمر بشبح الدياسبورا " الشتات". وكان الأدب الوسيلة الممكنـة لاقتحـام نفـوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية فالأديب الصهيوني "حانوخ برطوف" يـرى أن التغير هو معرفة القتل والمشكلة هي المشكلة وجود يهودي. لكي يستطيع الوجود يتوجب عليه القتل، بهذا المنطق غمرت الكتب الأدبية أسواق الأرض المحتلة. وكلها تشيد بالجندي السوبرمان والجيش الذي لا يقهر في الوقت نفسه وبنفس القوة تحـاول الحط من القدرات العربية وتنتقص من مبادئها الإنسانية وتراثها.

في قصة "الينبوع" يفسر الكاتب الصهيوني "فشنر" أعمال أبطاله العدوانية فـي فلسطين بسبب الأعمال النازية في ألمانيا: اليهودي بات المفجوع بمقتل حبيبته سـارة التي لقيت مصرعها على يد النازيين بقتل العرب ثأراً من الألمان " كان متعباً ولكنـه أحسن جسده خفيفاً بصورة لا تصدق واستدار نحو الدبابتين هذا من أجلك يا سارة من أجلك"(56) وجوزيف في رواية لصوص الليل(57) يمارس الإرهاب فـي فلـسطين لماذا؟ لأن "دينا" قتلت في ألمانيا، أما إذا كان الكاتب مثالياً فقصته ستنضج ببطـولات خارقة وقدرة تفل الحديد، يمكن معها إدراجها ضمن الأساطير وقصة "ساعة واحـدة لإستر" الكاتب الصهيوني "كونراد برمش" تسير بهذا الاتجاه.

في قصة "خربة خزعة" يورد القاص "يزهار سمولنـسكي" أحاديـث كثيـرة ومتنوعة بين الجنود الإسرائيليين قبيل احتلال القرية وبعد احتلالها، ويمكن أن نفهـم من هذه الأحاديث نفسية الجندي الإسرائيلي " البطل !!" ورأيه في العرب من النواحي النفسية والاجتماعية والثقافية فيدرك القارئ ماذا تضمره هذه الشخصية مـن شـعور تجاه العرب.

مما لا شك فيه أن قصة "سمولنسكي" خربة خزعة هي صور متعددة انتزعهـا المؤلف مما وصل إليه من فظائع الحرب الفلسطينية وفيهـا تظهـر آثـار التربيـة الصهيونية للناشئة آنذاك وما حشدته فيهم من غطرسة وشعور بـالتفوق والتـسامي. والكاتب "عاموس عوز" في قصته" الرجل والأفعى" يبرر هذه الأعمال ضـدهم فلقـد جاء في قصته هذا النص : البدوي يشم رائحة الضعف من بعيد فإذا لاطفتـه بكلمـة طيبة أو ابتسامة يهجم كالحيوان المفترس يحاول اغتصابك حتى أنني هربت منه. أنا لا أرتجف من المياه الباردة بقدر ما ارتجف من الاشمئزاز. ما اشد اسوداد أصـابعه كيف أمسك بي من رقبتي فقط بالضرب وبالرفس هربـت منـه يجـب أن أغتـسل بالصابون" (58) إن صورة العربي في هذه القصة كما رسمها "عوز" حالات صراع بين " الإنسان المتحضر الذي يمثله عادة اليهودي ابن الكيبوتس والطبيعـة المهـددة بالخطر وممثلوها هنا هم " بنات آوي العرب والجبال"(59).

إذن هل يحق لهؤلاء العرب، في رأي الصهاينة، الحياة؟ بالطبع لا، وهنا تكون البطولة هي القتل، والقتل فقط ومن يقتل هو البطل، ففي قصيدة "ايوناثان غيفن" تحت عنوان "عدت من إجازتي" يقول الشاعر القاتل :

يجب عليك أن تقتل

حين تعود وتقص على والدتك

أشياء كثيرة وجميلة

أشياء جميلة(60)

لماذا القتال!؟

لماذا هذا السلوك من العرب!؟

لأن العربي حسب الأدباء الصهاينة لا يفهم سوى لغة واحدة، فهـو يحترمـك كلما عاملته بقسوة وفظاظة. القوة هي اللغة الوحيدة التي يجب أن يعامل بها، وإذا ما ارتفعت عه القوة وعومل بليونة فإنه يعتقد أنك تخشاه فيتمرد، إذن فالعربي في نظـر الكاتب العبري يجب أن لا يعامل عن طريق الند للند(61) وكثيراً ما نجـد أن هـذه

العبارة في قصص الأدباء الصهاينة "إن العرب لا يحترمون جاراً ضعيفاً. ويـضيف "يهوذا شربير" في قصته "القائد الأزل ليهوذا"(62) اعتداءات العرب المتكررة صباحاً ومساءً على اليهود الذين يسكنون على الحدود بين يافا وتل أبيب بأنها تسلية يتـسلى بها العرب " وكأنهم ليسوا أصحاب قضية" وهنا إشارة إلى أنهم قتلة همهم الاعتـداء فقط ويقول الكاتب: إن مجموعة من الشبان اليهود قرروا الانتقام ومهما كان الـثمن. وفعلاً توقف اعتداء العرب بل وتقدموا بالشكوى إلى السلطات البريطانية، وهذا الرأي شائع بين اليهود في فلسطين المحتلة، فلقد أجرى "يوحنا بيرس"(63) وهو أستاذ فـي جامعة تل أبيب استطلاعاً للرأي دل على شيوع هذه الفكرة بـين أبنـاء الطوائـف الشرقية بشكل خاص إذ أجاب 89% منهم بوجود مثل هذه الفكرة عن العرب، وتجدر الإشارة إلى أن كانت القصة لم يذكر الأسباب الحقيقية التي حفزت العرب لقيام بهـذا الهجوم سوى أنه كان انتقاماً للاعتداء على لص آثم " اللص هنا هو العربي" لم يذكر الكاتب لمن كانت هذه الكروم والمزارع وهنا تزوير حقيقي للتاريخ .

ويتبع شموئيل عجنون لإبراز هذا المعنى في قصته "من عـدو إلـى محـب" أسلوباً رمزياً فهو يتحدث عن صراع مع الأيام ذلك الصراع الذي بدأ عنـدما نـزل الكاتب في منطقة " تليبوت" إحدى ضواحي القدس حيث بني خيمته فيهـا: " قبـل أن تبني تليبوت كان يحكم كل البلاد ملك الرياح ووزرائه وعماله. رياح قوية تسكن في الجبل وفي السهل، والتل ، والبراري وتعمل ما تشاء، وكأن البلاد أعطيت لها وحدها فقط"(64) وتعترض الرياح سبيله وتسأله ماذا يفعل هناك فيجيب بأنه يتجول وتهـزأ منه الرياح فتهب وتوقع الأذى به وبخيمته ولا يدع "عجنون" الأسى يتسرب إلى نفسه ويعود ليبني بعزيمة ونشاط بيتاً قوياً ذا أساسات عميقة في المكان نفسه في "تليبـوت" وتأتي الرياح فلا تستطيع هدم البيت بل تهدم ما حوله وتخربه ويقوم عجنون بزراعة الأرض وتأتي الرياح لتفعل فعلها من جديد ولكنها تفـشل لأن الأشـجار وضـربت جذورها وصمدت جذورها وصمدت أمام الرياح ومنذ ذلك الحين أصـبحت الريـاح تزور الدار بصورة مهذبة وكذلك تعرفت أنا عليهـا ومنـذ ذلـك الوقـت أصـبحنا

أصدقاء"(65). هذه القصة إشارة واضحة للصراع العربي الصهيوني بتسلسله التاريخي فالريح هم العرب وقفوا في وجه الهجرة الصهيونية المبكرة " الخيمة" لكن ازدياد هذه الهجرة وضرب الخيمة أوتادها بتكوين دولة الكيان الصهيوني أفشلات الفعل العربي فكانت هزيمة 1948 " الأشجار ضربت جذورها وصمدت أمام لرياح" فلم تستطع الرياح هدم الدار عندما صارت متينة الأساس قوية محاطة بأشجار عميقة الجذور، وأن هذه القوة غلبت العرب وفرضت عليهم أن يحبوا صاحب البيت "إشارة إلى السلام المبني على القوة الذي يجب على العرب الاقتناع به" لأن دبابات الجيش الإسرائيلي كما قال ديان "هي التي تأتي بالسلام"(66) والأدب العبري يظهر العربي إنساناً مختلفاً لا يعرف يتصرف وأنه بعيد عن الثقافة والتحضر. " فموشيه ستابيسكي" يؤكد" أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تكون منعدمة بين العرب"(67) ويضيف" إن عادة الاستحمام تكاد تكون غير مألوفة عندهم باستثناء غسل بعض أعضاء الجسم من أجل الصلاة والوضوء" (68). ويدعى زورا أنه نقل عن امرأة أنها " أقسمت با أنها ولدت ستة أولاد دون أن يمس الماء جسدها" ولا يشعر "ستابيسكي" بالكذب عندما يقول إنه "لا يستبعد أن يبصق صانع القهوة في الفناجين كي ينظفها"(69)، في قصته "بلاد بنات آوى" يوضح "عاموس عوز" على لسان يهودي يدعى "متيتياهو" بعض تخيلاته التي هي صورة مخيفة لسيل جارف من القذارة "جمهور قذر غامق اللون، يقشر القمل والبراغيث وله رائحة كريهة، والجوع والكراهية بسبب جفاف وجهه تتوقد عيونهم توقداً جنونياً"(70).

وقد امتدت هذه الأوصاف لتشكل توجهاً تربوياً لأطفال الصهاينة بكل ما يخلقه من شعور بالاستخفاف المهين بالعرب. ويرى علماء الاجتماع أن الإسقاط الذي يدفعه الصهاينة ويلصقونه بالعرب يدخل في إطار ما يعرف بالاتجاه العرقي والذي يقصد به "اتجاه يتبناه الشخص حيال بعض أو كل أعضاء جماعة عرقية بشرط أن يتأثر هذا الاتجاه بمعلومات مفترضة حيال الأفراد والجماعات"(71).

وبناءً على ما سبق فإن القيم الصهيونية والتي تشكل معياراً لأصحابها وترتكز

على مجموعة نظم من المعتقدات في جانبها الأدبي تتمثل في المضمون النوعي مـن الاتجاهات كحالة مركزية تحدد سلوك الأفراد في المجتمع الصهيوني ورغم أنه قد لا يعي الشخص القيم التي تشكل نسقه على المستوى الشعوري وبالتالي فـإن التعبيـر الصريح عنها يكون مضللاً إلا أننا نرى في أعمال الصهاينة وبدون استثناء قوالـب من العداء ثابتة ضد كل ما هو عربي كالخيانة والقذارة والتخلف أي الهمجية بـشكل عام. إذن ينبغي أن ينتهي العربي المتوحش القذر ويبقى اليهودي المتحضر والمسالم الذي يعمر المنطقة ويبقي عليها سمات حضارية رفيعة، هذا التزوير انعكاس لصفات اليهود "السلبية" الكثيرة أبرزه الكتاب العالميون فقد وصف تشوسر اليهودي بأنه يحمل صفات سلبية مختلفة كالخائن وقاتل المسيح والمتوحش وغيرها. وقال مالو في رواية يهودي مالطا:" إن اليهودي مسبب لانتشار الأوبئة" كما أطلق نفس الـصفات علـى اليهود الأديب البريطاني وولتر سكوت وتكررت أسطورة شايلوك في رواية ايفينهـو وفي رواية أولفرتريست لديكنز كما لمسنا صورة اليهود عبر القناعات الثابتـة فـي أعمال برايت وانتوني ترولوب وداموريا. وغيرهم وجاء بحث لروينجر بـأن صـفة اليهودي في الأدب الإنجليزي ظلت ثابتة لم تتغير وأن التغيير الذي طرأ عليها كـان غير ذي أهمية وسيطرت عليها القوالب الثابتة (72) ورغم هذا تحـاول الـصهيونية إسقاط صفاتها على العرب وفي محاولتها ترسيخ هذه الفكـرة اصـطدمت بمقاومـة الشعب العربي الفلسطيني الذي لم تستطع أن تنفي وجوده كلية وأوقعها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز دعايتها على شخصية العربي القذر الذي يتنازل عن أرضه راضياً. ومن الأمثلة على ذلك شخصية "رشيد بك" في كتاب هرتزل "الأرض القديمة الجديدة" التي ترحب بالمشروع الصهيونية بما يعني أن العربي لا يستحق هذه الأرض(73).

وهذا ينسفه ما ورد في يوميات "يوسـف" فـايس" مـدير شـعبة الأراضـي والأحراش حول تخطيط وتنفيذ عمليات التشريد "وقد لاذ الأهلون بالصمت التام عـدا رجل واحد انبري قائلاً: ليس على وجه المعمورة كلها أفضل من ترابنا ولا أعدل من

مناخنا وأن حفنة تراب بين صخورها تساوي سهول العالم بأسره"(74).

كتب أحد طلاب المدارس العليا موضوعاً إنشائياً حول العرب فقال:"إن العرب يريدون مواصلة ما بدأه الألمان وقتل جميع اليهود في أرض إسرائيل". وقال تلميـذ آخر في وصف العربي: "وجهه غريب صغير، مثير للغضب، وشعر أخضر من بلاد ليست بلادنا" ومن الملاحظ هنا وجود عبارة "ذو شعر أخضر" وهي تدل على البعـد الهائل وانعدام الالتقاء والجهل" وكأن العبارة مقتبسة من أدب العلوم الخياليـة الـذي يصف مخلوقات غربية ومثيرة للرعب، تهددنا لكونها غريبة عنـا"(75) إذن الفكـرة الصهيونية توجه الأجيال اليهودية عبر كتّابها نحو عنصرية ضد العـرب يحـاولون غرسها في نفوس الطلاب. ففي سؤال من مجموع أسئلة امتحان "الإعانـة" لطـلاب "جفعون" عام 1971 جاء ما يلي:

"لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين أبداً. وبغض النظر عن عددهم الإجمـالي في البلاد، كان الكثيرون منهم مفكرون وحكماء ومبدعين وبالمقارنة معهم فإن العرب والمسيحيين الذين استقروا في هذا المكان لم ينتجوا في فلسطين أي شيء لـه أهميـة بالرغم من قدسية البلاد لأديانهم"(76)، وفي كتاب قواعد اللغة العبرية المقرر علـى مناهج الثانوية نقرأ عن العرب في صفحة 277: العرب سلبوا، وقتلوا (77)

ونقرأ عن اليهود في صفحة 117:" اليهود جلبوا الحضارة إلى الشرق الأوسط" وفي مقدمة كتاب دراسي أعده الدكتور "تفسروني" ورد التأكيد على أن "شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها، واكثر العناصر افتخاراً لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل" وجاء في وصف العرب وتحديد طابعهم " هذا العنصر الغريب فـي الـبلاد بطينتـه والدخيل على رسالتها وتطلعاتها يعيش الآن فوق ترابها ويستغل خيراتها. ولابد مـن أن نحاربه كما حاربنا من سبقه من الغزاة والأجانب الذين استولوا على الـبلاد فـي العهود الغابرة ونهبوا ثرواتها"(78) وبالتالي فهؤلاء العـرب غربـاء فـي العـرف الصهيوني يجب طردهم أو قتلهم. وهذه حقيقة الفكرة الصهيونية.

في ملحق صحيفة "هآرتس" ينشر شاعر صـهيوني يـدعى "الكـور" بتـاريخ

2/7/1982 قصيدة له بعنوان " لو كنت قائداً لجيشنا الأسطورة"(79) "لو كنت قائـداً لمنطقة بيروت المحاصرة و المختنقة لصرخت في وجه كل أولئك الـذين يطـالبون بإعادة المياه ويصرخون ويتألمون ويطلبون إعادة الـدواء والطعـام إلـى المدينـة المحاصرة".

ولا يتوقف "الكور" عند حد الصراخ فهو مزاج مختلف وعمله يتطلب أكثر من ذلك، القتل، لكنه يطالب بأكثر من وسيلة " لو كنت قائداً لجيشنا العظيم لزرعت الموت والدمار في كل المزارع والشوارع في كل المساجد والكنائس"(80). فالفلسطينيون في نظرة شعب زائد أو فائض عن حاجة البشرية لذا يجب إلغاؤه فلا وجود له في وطنه وهذا يذكر بمقولات منظري الصهاينة هرتزل وجابوتنسكي كتجسيد قانون لأحد أبرز أشكال الصهيونية وهو العنصرية التي تقتضي فلسفتها القضاء على حقـوق ووجـود الأمم الأخرى(81). والشاعر هنا يتقمص شخصية "يوشع" في تدميره لأريحا فيتخيل الدماء تسيل أمامه فيسعده المنظر لذا يطالب المزيد ليس للمحاربين بل لجميع أفـراد الشعب. وهنا يمكن القول أن الأمثلة التي أوردناها تثبت بـدون شـك نظـرة الأدب الصهيوني العنصري ضد العرب بما يتنافى مع الدور الإنساني الذي يستحق الحصول على جائزة "نوبل" (82) فهو أدب ميكافيللي بكل أبعاده تخلى عـن واجبـات الأدب الضرورية "الحق، والخير، والجمال" وآثار الالتصاق بالتوراة التي جعلـت مفهـوم المطلق والجوهر في خدمة الأخيار(83) وبالتالي فقد جـاء أدبـاً مـصطنعاً يرشـح بالكراهية والحقد إلى أبعد الحدود.

البراءة الزائفة والأحزان الموضوعية

يقع دارس الأدب العبري أسيراً لحالة من الحيرة والدهشة لدى اطلاعه علـى اتجاهات هذا الأدب بعد حرب أكتوبر1973 ومحاولة إيجاد علاقة انعكـاس وتـأثر تربط بين الاتجاهات العامة في هذا الأدب وبين التغيرات التي أحدثتها الحـرب(84) فلقد لحقت بالنموذج الفكري الصهيوني الذي يصوغ الموقف مـن العـرب والأرض العربية ارتعاشه أثارت موجه المراجعات الفكريـة فبـدأت تظهـر فـي المـصادر

الصهيونية في أساسها أيديولوجية عنف وأنانية قومية أم كانت أيديولوجية تسعى إلى العدل وتنشد التفاهم مع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب العربية ؟ وراحت تطرح توصيفات للوضع الأيديولوجي السائد قال عنه أحد الصهاينة "أنا لا اعتقد أن دولة إسرائيل أو الصهيونية جواب شاف على قضية الشعب اليهودي"(85).

من تحليلنا لنصوص ما بعد حرب أكتوبر نرى الاستجابة الأدبية الصهيونية وما تلاها من ارتعاشات في قاعدة المقولات الزائفة بمثابة إضافات كمية لم تبلغ القدر الكافي لإحداث تحول كيفي في أوضاع الحياة الإسرائيلية سواء في مستوى الوجود المادي أو مستوى الوعي فيها. أصبحت المقولات الصهيونية بين مد وجزر ترتبط بالعلاقة الجدلية بين الرفض العربي وحلم القبول بها.

ومن هنا استمرت في الأدب الإسرائيلي حتى الآن تلك الاستجابة المكونة من شعبتين "شعبة التأمل والتوجع الموضوعي، وشعبة البراءة الزائفة في تفسير ما حدث في إطار المقولات الصهيونية(86) ولأدب تعبيرات وأحاسيس ذاتية وانعكاسات للمجتمع على نفس الأديب الذي يتكلم لغته ويحيا ظروفه. ومعاناة الأديب جزء من معاناة الجمهور ولكن الإضاءات الإنسانية مفقودة في النتاجات الأدبية الصهيونية فهي إما اسقاطات مرضية تستهزئ بقيم الغير أو انضواء واجترار لتواريخ معينة، إنها أكثر تجسيداً لمعاناة المستوطن.

بناءً على ما سبق أو المفترض على الأقل أن تكتسب صورة العربي في الرؤية الأدبية ملامح مختلفة فلا يعود ذلك القاتل المتعطش للدم اليهودي دون دافع سوى غريزة معاداة السامية، وأن تتغير بالتالي في هذه الرؤية صورة المحارب الإسرائيلي ذلك الإنسان " المسالم" الذي يضطر إلى القتال والبلاء المجيد فيه ضد موجة الخطر الجديد الذي بثه العرب، في قصيدة "الحرب المقبلة" للشاعر الصهيوني "يعقوب باسار" التي كتبت عام 1962 يتصور القارئ أن الشاعر رافض للمقولات الصهيونية وأنه متمرد ضد أصول السياسة الصهيونية:

وفي قاع العيون جملان في لون الليل البهيم

يرشف كلاهما من فم الأخر
مياه الرعب الخضراء ذلك لأننا نستنبت في تأن وثقة
زهرات الحديد في الحرب المقبلة
ما بين حجرات النوم وحجرات الأولاد(87)

إذا ما تنبهنا إلى هذه الفقرة من القصيدة وإلى صورة الجملين الأسودين اللذين يتبادلان الحقد ويرشف كل منهما من الآخر مياه العرب لاكتشفنا أن الرؤية التي تحكم الشاعر رؤية موضوعية لا تتجاوز الاستجابة لوقع الآلام التي تتأمل أصول الصراع ودوافع إثارته فليس الجملان سوى طرفي الصراع والشاعر يختـار رمـز الجمـل للإشارة إلى كل منهما على أساس تصوره أن العرب الساميين المنحدرين من أصول صحراوية لا يجابهون اليوم سوى العبريين الساميين المنحدرين من نفس الأصـول. من جانب أخر أستطيع الادعاء بل التأكيـد بـأن عنـصرية الـشاعر وارتباطاتـه الأيديولوجية الصهيونية تبرز في التعبير المستلهم من الصحراء بمعنى ارتباط اليهود بهذه المنطقة وجذريتهم فيها، وهذا تزوير للتاريخ فالوجود اليهودي في المنطقة كـان عابراً ولفترة قصيرة جداً ليس لها وزنها بالمطلق في التاريخ وهـذا يلغـي بـالطبع تعريف الصهيونية للقومية اليهودية القائل بعدم تجريدها من الأرض. لأنه لو تم ذلـك لكان هذا قضاء على طابعها المميز (88) الذي يستهدف الوجود العربي كله ومع مـا في طرح الشاعر الصهيوني من خطأ تاريخي حيث أن الصهيونية ليست تعبيراً عـن امتداد سامي سلالياً أو حضارياً أو عرقياً، فإن الشاعر رغم براءته الزائفـة ينتـصر لهذه الصهيونية، فهو في كونه وضع الطرفين في وضع متساو "الجملان\ط فكلاهمـا يبادل الآخر الحقد والرعب. لكن عدم توضيح الشاعر من المعتدي عليه يجعل حزنه موضعياً دون أن يشير إلى الطرف صاحب المسؤولية في ذلك (89) ويحاول الشاعر الإرهابي أن يلبس جلد حمل ويبرز براءته وأنه ضد الحرب والقتل، ولكن ليس كـل القتل فهو يحزن لقتل الصهاينة فقط لأنه يزور التـاريخ بـإبراز أن أرض الـشعب الفلسطيني له.

وضع الأقلية العربية من خلال الإنتاج الأدبي الإسرائيلي

في دراسة أجرها أحد أساتذة الاجتماع في فلـسطين المحتلـة علـى طـلاب المدارس الابتدائية خرج بالنتيجة التي تقول أن 1066 طالباً قـابلهم فـي مقـابلات مفتوحة وتتراوح أعمارهم بين 14-9 سنة أيدوا الإفناء الكلي للعرب المدنيين المقيمين في إسرائيل في حالة أي صراع مسلح مع الدول العربية (90) وفي مثل هـذا الجـو النفسي يمكننا أن نتصور الجو الإرهابي الخانق الذي تعيش فيه الأقلية العربيـة فـي فلسطين المحتلة. والرغبة في الإفناء التام ليس مجرد تفكير صبياني بل عقيدة. وليس أدل على ذلك من أن الصهاينة يعتبرون مرتكب مجزرة الحـرم الإبراهيمـي مـن الشهداء والقديسين.

وتقوم حرب أكتوبر ويتحرك الأدباء الصهاينة لإبراز براءة الذئب الـصهيوني ويصبح السلام مخرجاً، ولكن أي سلام هو المرغوب. الشاعرة الـصهيونية "حـدفاه هربكابي" تبين ذلك فتقول:

لذا ... فإني أقول

الحزن هو مجرد حزن والألم ليس سوى الألم

حتى الجبال يمكن تحريكها

رغم قدرتها على الرفض

تريد الشاعرة أن تحرك الجبال العربية وتزحزحها لتتسنى لها الحياة هادئة مع رجلها على حساب الآخرين.

في قصيدة تحمل عنوان "أغاني أرض صهيون" كتبها الشاعر يهودا عميحـاي عـام 1974 يمزح الشاعر بين الآلام الصهيونية المدعاة وضرورة إنهاء هـذه الآلام عـن طريق الاستيلاء على الأرض العربية " والاحتفاظ بأرض فلسطين عام 1948" مبرزاً مقولة أحد المستوطنين الأوائل " ترومبلدور" بشكل إيحائي ليتبين ضـرورة التمـسك بذلك. وهذه القصيدة تتميز بتركيب الرؤية والبناء الـشعري فهـي تقـدم المقـولات الصهيونية في حالة التشابك والاتساق الهندسي الداخلي. وهذه هي حالة المقولات في

نسقها الفلسفي: (91)

لعل الكلمات الأخيرة التي لفظها "ترومبلدور"

ما أحلى الموت في سبيل أرضنا بنو الوطن الجديد

مثل نخل الحقل في مجموعات مجنونة

حتى ولو لم تكن هذه كلماته

أو أنه قالها ثم اختفت

لظل مكانتها محفوراً كالكهف

فاق الملاط والأحجار صلابة

هذا هو وطني

الشاعر هنا يجتر قول "هرتزل" عن الدولة المرتجاة "اللاتينية" على قاعـدة التمـسك بالأرض حيث يدعى أن اليهود هم الذين عمروها فهي صحراء بدونهم ومقفرة بدون جهودهم وهنا ترديد غير مباشر لمقولة "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب" بكل مـا فيها من زيف وتضليل وخداع وتآمر.

الوطن المتعين الذي يراه الصهاينة والذي اكتسب ملاط بنائه صلابة وتماسكاً يفوقان صلابة وتماسك الأحجار " مقولة الأرض التاريخية الممزوجة بالوجد اليهودي الكلي" حيث يمارس اليهودي حياته العادية على حساب الآخرين بالاستبسال حتى الموت لأن كنوز هذه الأرض "فلسطين" فليست من المعادن الطبيعية بل من عظام الموتى اليهود الذين قاتلوا في سبيلها ليحققوا لها الوصول إلى عصر "المسحاء". "عصر الخـلاص اليهودي المطلق" الأمر الذي يعني أن الطرف الآخر في المواجهة ليس سـوى ذلـك العدو اللاسامي الذي يحاول أن يقطع طريق شعب في التزاوج مع أرضـه. وهـذه ليست سوى نفس الرؤية التي تغص بها المقولات الصهيونية.

بعد الحرب 1967 ومروراً حتى الانتفاضة الفلـسطينية 1987 انبثقـت عـن الأدب الصهيوني تطلعات وتوجهات متباينة حسب الظـروف والمتغيـرات، فهـي تـدعو للاغتصاب والقتل بعد كل انتصار صهيوني وتدعو إلى السلام المزيف مغلفة ببـراءة

غير حقيقية تعتمد على الإحباط الذي يعانيه المستوطنون الصهاينة فيجترون آلامهـم دون أن يتخلوا تماماً عن المقولات الصهيونية، ويمكننا رصد حركة تأثر المعنويـات وملاحظة الحالة النفسية الصهيونية المنعكسة على الأدب بعد الانطـلاق للانتفاضـة المظفرة في فلسطين والتي يسفح بها الأطفال بقوة الغطرسة الـصهيونية. فهـا هـي الدلائل تؤكد مدى تأثير القدرات النضالية للأجيال الفلسطينية الجديدة مما خلـق فـي الجانب الصهيوني انتكاسه حقيقة. فالحجـارة تـزداد معهـا الآلام، فتـذكر بـالآلام القديمة(92) وقد رسمت الشاعرة "أنا نغرينو" مسيرة هذه الأزمة النفسية في قـصيدة لها بعنوان "البداية" تقول فيها:

وقرضت أشعار نجيب متعددة

حتى لم يبق لي ما أقوله(93)

إذن هنا حالة نفسية متأزمة. قرف من القتل المتبادل، وقتل الأطفال. لكن دون التخلي عن جوهر الصهيونية. ونرى هذا بوضوح في قصيدة الـشاعرة الـصهيونية "داليـا رابينوفش"، في قصيدة لها بعنوان "حجارة" تقول فيها:

بين اعتقال واعتقال

وربما ضربة هراوة

وربما رأس مجروح ويد مكسورة

كل شيء جائز بالنسبة لهم

أيها الأولاد. الأولاد. الأولاد

عودوا إلى البيت أيها الأولاد

كيف ستعيشون بلا استراحة(94)

ماذا تريد الشاعرة أن تقول؟ هل هي تتألم هنا من أجل الأطفال الفلـسطينيين؟ يبدو أن الأمر كذلك إذا نظرنا إلى القصيدة نظرة سطحية لكننا إذا ما تعمقنا في بنيانها الداخلي نجد أنها تستبق الأحداث فترثي وجود الكيان برمته. فلقد أصبحت الانتفاضة هاجساً مرعباً لكل الأجنحة الصهيونية بل "دقت طبول القبيلة في نفوس أولئك الـذين

كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم تقدميون ومتنورون".(95)

إذن فالشاعرة تدعو الأطفال ليستكينوا حتى لا يـصابوا بـالجراح. وتلتقـي أجسامهم الغضة مع الهراوات الغليظة لجنود الاحتلال. وكان أجدر بالشاعرة أن تدعو إلى انسحاب هؤلاء الجنود بل وإلى تقويض المجتمع الـصهيوني إذا كانـت تـدعي التقدمية والإنسانية وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا فرغ اليهود مـن صـهيونيته فهـل يحدث هذا ؟ بالطبع لا يمكن لأن الصهيونية مرتبط بالتوراة والأفكار التلمودية التـي هي أساسها وبالتالي فإن الشاعرة تعالج إذن ظاهرة مجتزأة من سـياقها الاجتمـاعي والسياسي وكأن الأمر يتعلق بلعبة خطرة يمارسها الأطفال على حساب العودة إلـى البيت والاستراحة ولكن أي بيت ؟ وأية استراحة!؟

قصة الأسير

لا شك أن قصة الأسير من أشهر قصص البراءة الزائفة "ليزهار سمولنسكي" تتحدث هذه القصة عن راع عربي يدعى " حسن أحمـد" أسـرته فرقـة عـسكرية صهيونية بينما كان يجلس تحت شجرة متفيئاً ظلها في يوم صيف قائظ ويرقب قطيـع أغنامه باطمئنان ويوضح الكاتب كيف كانت المعاملة سيئة "شتم، إهانـات، ضـرب، سخرية" وتوضح القصة الصراع النفسي عند الجندي الذي طلب منه نقل الأسير إلى معسكر قريب. هذا الصراع المتماوج بين الواجب والإنسانية الجندي يخاطب نفسه في حوار داخلي: "يجب أن توقف السيارة وتطلق سراح هذا الأسـير، وهكـذا سـتكون النهائية نهاية مختلفة". لكنه يصحوا إلى نفسه ويتساءل: "كيف أستطيع ليس الأمر في يدي..لا..لا..هذا غير صحيح ليست صاحب الأمر أنا مجرد رجل ينفذ الأوامر وليس على ذنب فيما أصابه".(96)

"سمولنسكي" في هذه القصة يريد أن يضرب عصفورين بحجـر(97) يغـذي القارئ بالقيم الإنسانية للدعاية الصهيونية والتمسك بالواجبات العسكرية في وقت واحد وإن كان في نهاية الأمر قد رجح الدافع العسكري على الروح الإنسانية. من جانـب آخر نجد أن سمولنسكي الذي يدعى الإنسانية لم يستطيع أن ينزع من نفـسه صـفة

التعالي التي أصبحت طابعاً عاماً في الدب العبري فاختار للقصة بطلاً ساذجاً" عربي طبعاً" الأمر الذي يظهر كثيراً في الأدب العبري.

عن هذه القصة يقول غسان كنفاني "إنها محاولة لتصوير ما تـردده وسـائل الإعلام عن البطولات اليهودية الخارقة، عن البطل العربي في القصة ما زال يختـار بعناية ودقة ليؤدي دوره في الموازييك الصهيوني إنه تقريباً، بهلول "سـاذج" فثمـة حرب وهو خارجها تماماً وبكلمة أخرى إنه العربي غيـر القـادر علـى مواجهـة خصمه"(98) أما الدكتورة "حياة جاسم" فتقول عنها:"لم يكن هناك شر في العالم يحذر من شرور آتية".(99)

وبشكل عام فإن سمولنسكي يوجه النقد لأصحاب الادعاءات الصهيونية ولكـن هـذا التجاوب مع العقلانية لا يغير صورة العربي عنده فهو عدو لا يزال جبانـاً وأخـرق أمام شجاعة الصهيوني. وبوسع جندي صهيوني واحد أن يعبث بمجموعة من الجنود العرب ويسخر منهم والأسير العربي هنا يستدر عطف الكاتـب لـسذاجته لا لعدالـة قضيته. إن تجاوبه مع الشخصية العربية تجاوب ظاهري وسلبي ولا يخرجـه عـن دائرة الولاء للصهيونية، سمولنسكي يعاني صراعاً مريراً لإطـلاق سـراح الأسـير العربي ولكن ولاءه للصهيونية. يتغلب على نداء العدالة في نفـسه فيرسـل الأسـير العربي إلى حتفه(100) وهو ما ينسحب على معظم أعمال سمولنسكي ففـي قـصته "خربة خزعة" التي يتحدث فيها عن قرية عربية احتلها فرقة من الجنود الإسرائيليين عام 1948 في هذه القصة يدور حوار بين الكاتب ومجموعة مـن الأفـراد الـذين يؤمنون بآرائه من جهة وجماعة أخرى من الجنود ممن يؤيدون الحرب والاحـتلال والطرد والقتل. من جهة أخرى ومن ثنايا القصة يصور الكاتب مختلف الآراء تجـاه العرب لدى فئات متعددة من الإسرائيليين(101) يقول "سمولنسكي": "وشاهدنا امـرأة عربية مع بعض رفيقاتها وكانت تمسك بإحـدى يـديها ولـداً فـي الـسابعة مـن عمره"(102) هذه النزعة الإنسانية ينسفها سمولنسكي تماماً عندما يكرر في ثناياهـا الإشارة المستمرة إلى ما حل باليهود في العهد النازي ويدعى أنه خجل أمام المـرأة

العربية " لقد شعرت بالخجل أمامها وأشحت بنظري عنها ولقد رأينا فيها امرأة لبؤة. عبرت تقاطيع وجهها عن صبر واحتمال أنها مستعدة لتحمل المشاق. وتأبى أن تنهار أمامنا على الرغم مما حل بها ولقد لمسنا ما يعتمل في نفس طفلها أن تقاطيع وجهـه تدل على ما سيكون في المستقبل، الطفل الضعيف الذي لا يستطيع غير البكاء سيكون أفعى سامة".(103)

ادعاءات إنسانية زائفة

عجيب أمر سمولنسكي الذي يدعى الإنسانية أنه لا يريد الطفل الذي سيـصبح رجلاً أن يقاتل الذين انتزعوا أرضه، ويواصل سمولنسكي في قصته القول "وبعد قليل تحركت السيارة الثالثة. أي جمود يسيطر علينا وأية لا مبالاة كأننا لم نكن لاجئين أبداً وكأننا مهاجرون فقط لكن ما هو المخرج!؟"(104) سمولنسكي هنا يدعى أنـه ضـد التهجير وطرد الفلسطينيين لكنه لا يقدم على عمل يمنع ذلك سـوى أن يـذهب إلـى النازحين ويقول لهم عودوا إلى بيوتكم ولكنه لم يفعل هذا إذن ما الفائدة من سرد هذه الأفكار وما فائدة وقوفه مكتوف اليدين. إنها البراءة التي تظهر زيفها إذ أنه لا يختلف مع معارضيه ولعله شاء أم أبى، شريكهم في عملية التهجير(105) في قصة "على حد رصاصة" بقلم يتسحاق أورباز"(106) نجد فكـرة مـشابهة للفكـرة التـي أوردهـا سمولنسكي في "الأسير" غير أن أحداث القصة كتبت بعد حرب سيناء عـام 1956. وهي كذلك تدور حول حياة جندي عمل في قطاع غزة وفي سياق هذه القصة يـأتي الجندي إلى أحد المغاور في تلك المنطقة فيجد عربياً مسلحاً ولكن هذا العربي سرعان ما يلقي بندقيته. ويبدأ بالتوسل إلى الجندي الإسرائيلي ويصل به الأمر إلـى تقبيـل قدميه كي لا يقتله. وأخذ يزعم في توسله أنه يحب اليهود وتستمر القصة "وعندما كنا جالسين نهض إبراهيم فجأة وأخذ يركض ولكنه اصطدم بالشجرة وسـقط وأمـسكت بالغوزى "البندقية" لكي أفعل شيئاً بهذا العربي. وفجأة رأيت أفعى سامة".(107)

رغم أن الكاتب هنا يود أن يلمح بأن هذا العربي قد لا يكون جيداً فقد يكـون نافعاً. إذ أنه حاول إنقاذ اليهودي من الأفعى. إلا أنه "كاتب" لم يستطع أن يهضم ذلك

في عقله الباطن فأظهر فوقيته وعنصريته وكأن هذا العربي شيء مهمل كأي جمـاد مثلاً "وأمسكت بالعوزى لأفعل شيئاً ما بهذا العربي" أي رغم الموقـف الـذي يبـدو إنسانياً في هذه القصة إلا أن الكاتب لم يتحرر من نزعة سادية نحـو العـرب كـأن يهودي الأسير العربي نحو قدمي الجندي يقبلهما، ويعلق أحد الكتاب على هذه القصة فيقول " أنه من جهة واحدة يصعب على الكاتب أن يعامل الأسير معاملة إنسان يبـدو له أن هذا الإنسان بدون صفات إنسانية أنه مجرد حيوان".(108)

وهكذا تفتضح البراءة الصهيونية والأحزان الموضعية لبعض الكتاب لكن صهيونيتهم تدفعهم في النهاية للانتصار لتربيتهم الفوقية وغطرستهم ضد العرب فهم إنسانيون مع اليهود فقط. أما العرب الجهلة فلا داعي لذلك.

كتبت الروائية الإنجليزية ماريا إدجورت عام 1817 رواية بعنوان "هارنجتون" قدمت فيها شخصية يهودية تتمتع بصفات طيبة. إلا أن الكاتب الصهيوني" بنامين دزرائيلي" يرد عليها بروايته "دافيد ألوري" عام 1833 بإعطاء بطله الصفات التي امتازت بهـا الصهيونية: العنف، العنصرية، العظمة والإيمان برب الجنود (109) بهـدف إيقـاظ الشعور القومي الحربي لدى اليهود، كي يتذكروا ذلك الرب المحارب الذي كان يقاتل معهم في حروبهم ومجازرهم في فلسطين. إن إعادة التذكير "برب الجنود" من شـأنه أن يثير تلك الفئة المحاربة التي لم تعرف في حياتها الاستقرار. إلا من خلال الحرب ضد الشعوب أو من خلال الخضوع والسبي. وهذا ما لاحظناه في تاريخ بني إسرائيل واليهود ومنهم المقهورين الذين تبنوا هذه العقائد ليكونوا محاربين وليكون اله الحرب ورب الجنود متناسباً مع تطلعاتهم الحربية والعسكرية(110) إن هذا التعلق المنـسي لابد أن يثير اليهود ويستثيرهم للقفزة مرة أخرى والتحفز لعدوان. إذن فالاغتـصاب والقهر والاضطهاد تشكل جوهر الفكر الصهيوني ومنطلقاته الأساسية "فالذئاب" سادة الأرض لا الإنسانيون المتسامحون.

ولا غرو في ذلك فسلسلة تاريخهم تروي تعطشهم للدواء إذا لم يجدوا مـن يقتلونـه أسقطوا حقدهم على أنفسهم إلى درجة وصلوا بها إلى قتل أنبيائهم. في زيـارة لهـا

لمنطقة الجليل تتوقف "جولدا مئير" فجأة. وتترجل من سيارتها أمام شاحنة تشير إلى اسم قرية عربية. كتب عليها الاسم بالعبرية والعربية فتأمر مرافقتها بحزم بطمس الاسم المكتوب بالعربية وإبقاء الكتابة العبرية قائلةً: "لا مكان للعرب أو العربية في دولة اليهود"(111) وهذا يوضح أن كل ما هو عربي مكروه عند اليهود أو غريب غير مفهوم. وإسرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام وهذه الدائرة الخارجية هم العرب بلا ريب وهي تحارب الدائرة الداخلية المشعة بالنور أي إسرائيل بمعنى أن إسرائيل هي الممثل للحضارة في الشرق العربي، وما العرب إلا أعداء الحضارة الإنسانية (112) وهكذا كان النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني، وكان الأدب الوسيلة الممكنة لاقتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية. فالأديب الصهيوني "حانوخ برطوف" يرى أن "الوجود الصهيوني لكي يستطيع البقاء توجب عليه القتل"، وقد لخص الكاتب الصهيوني "موشيه شامير" أهداف الأدب الصهيوني في المرحلة السابقة، فكان البطل فيه عاملاً ضد الظلم النازي عبر صور لا تخلوا من الغزل وها هو الشاعر "شمعون هالكن" يناجي هذا البطل وأمثاله فيقول:(113)

هلا كنتم كالقدماء تحدياً
يا حراس المزامير المقدسة
وليكن بعدها ما يكون
أنتم يا أحرار الجيتو تخلفون الأغيار
وراءكم في المحيطات
ومهما تريدون يكون
تتعلمون منذ الصغر
القطاف من الأمم وليكن ما يكون...
فهذا طريقنا ليس إلا ...

البطل في الأدب الإسرائيلي

يأتي دور البطل الصهيوني في رفض الاندماج الذي يرضي التركيب العضوي للبنية

الصهيونية والعقل الصهيوني المتزمت، ولقد وضح "هس" ذلك حين قال: "وقد يصبح اليهودي موطناً في بلد يأخذ جنسيته، لكنه لن يقنع الأغيار أبداً بانفصاله عن قوميتـه" (114) وهذه كانت وظيفة الأدب: زرع بذور الأفكار والرغبات الجديدة التي بـدأت تأخذ فاعليتها بالعداء الألمان،وهنا يصبح الأدب الصهيوني دون رسالة تخدم البشرية. بل هو منظومة من النتاجات يمكن إدراجها تحت اسم "الأدب العنصري" الذي يحمـل بين طياته الازدراء للآخرين والدعوة إلى العنف والاغتـصاب واحتقـار الـشعوب صراحةً. ويتضح هذا العداء للشعوب في قصيدة نشرتها صحيفة "دافار":

ليل الألمان طويل ونور عمرهم ضئيل

فنحن خالقو ألمانيا بيد حديدية فتية

ونحن قادرون على صنع نعشها بلا اعتراض

أرض ألمانيا طوع يدنا وروحها ترتعد

بعد الجبروت كأس ستجرعه مراراً(115)

وهنا تظهر صورة البطل الصهيوني بقدر ما لديه من رغبة في الانتقام. فهـو عـادة مجازف وخارق لا يعرف الشفقة ولا يملك حساً أخلاقياً أو إنسانياً بل صوراً وكوابيس تسيطر على قواه العقلية ناتجة عما سمع به من مجازر لحقت باليهودي وتدفعه لاتخاذ الموقف ذاته ضد العرب إلا أن هذه الرؤيا وهذا المنطق يحتم على الكاتـب تبريـر التزام أبطاله لهذه الأخلاقية وهو الذي يدعي أنه عانى أهوال المعتقلات والإبادة ممـا يدفعه للوقوع في التناقضات. لذا يصبح هذا البطل على رأي "بياليك":

لا يقيم صداقات فإرثه الألم

والقلب يضمر العواصف

والعاصفة دم،(116)

هذا القلب الصهيوني هو الذي انتزع شعر العربية الفلسطينية "خديجة" وهـو الـذي سحق السجناء في "كفاريونا" وقام بالعديد من المذابح، ويسحق البيوت كل يوم (117) على قاعدة أن إسرائيل "هي أرض لنا". والعرب الذين يعيـشون فيهـا إذا ضـايقونا

نطردهم، ولو رجعنا إلى ما كتب "دايان" عام 1967 نرى أشكال الأدب الـصهيوني كما ركز على إبراز الشخصية الإسرائيلية المحاربة وكأنهـا "الـسوبرمان" الـذي لا يختبئ ولا يؤسر لا يهرب، وقد تراود لشاعر بعض الأفكار هنا أو هناك ولكن بطلـه دائماً يحب القتل. فما هو يوضح ذلك بقوله:

أرى العيون الميتة الصامتة

أرى حكمة الدولة

حكمة الحرب في أفواه المجانين

الحساب سنجريه فيما بعد

أما الآن فأنا القاتل

قد يعتقد قارئ النص أن الشاعر يحتج على القتل ويدعو لمحاسبة الطغمة العـسكرية المحركة للسياسة الصهيونية ولكن يتناسى أنه شارك في القتل. وكـان يـستطيع أن يرفض المشاركة برفض قتل الأبرياء ولكن عنصريته أبت عليه ذلك.

"مناحيم بيجين" كان طموحاً لتثبيت قيادته عبر مباشرته مذبحة دير ياسين فتفاخر بقتل 245 رجلاً وامرأة وطفلاً في هذه المذبحة. فأفكار هرتزل ما زالت حيه في فلـسطين المحتلة، فالقتل طهارة عند اليهودي وهذه " نعمة شمير" توضح ذلك:

لو أنهم تلاميذ مجتهدون

لكانوا استخدموا الدبابة من مسافة قريبة

ودمروا البيوت والشوارع ولم يتركوا أحداً

وبهذا يكونون قد حافظوا على طهارة السلاح(118)

وإذا لم يكن القتل فاحتجاز الضحية في قريته أو منطقته ومنعه من مغادرتها للقيام بأي يعمل كان، لفترة غير محددة وقد كثر بصورة خاصة اسـتعمال هـذه القيـود ضـد مواطنين عرب لهم ارتبط بمنظمات سياسية أو لهم نشاط اجتماعي أو ثقافي لا يرضى عنه الحكم العسكري.(119)

من المحزن والمأساوي أن نحاول فهم المسألة اليهودية والصهيونية وإسـرائيل فـي

الأدب خارج سياق التاريخ العام وبمعزل عن النظام العـالمي. فالـصهيونية تـستمد خصائصها من خصائص النظام السائد في العصر الـراهن وبالتـالي فـإن فـضح خصائص هذا النظام فضح لخصائص الصهيونية، وعندما نتصدى لبعض المقـولات الملفقة والخاطئة التي فرضتها القوة الغاشمة وأنتجتها الأوهام والأخطاء فإن ذلك يعني حكماً التصدي للمقولات الصهيونية(120).

لم يرث اليهود العهد القديم فقط، بل أيضاً تاريخياً طويلاً من اللاشعور الجمعي. بكل محتوياته ومكوناته وعقده النفسية " الشعور بالذنب"، وعقدة أوديب، الشعور بالدونيـة والتعالي...الخ وفلسفتهم وكتبهم زاخرة بالأقوال التي تدلل على تلك الحـالات. فـي التوراة يمكن الاطلاع على مئات الكلمات مثل: السيطرة، القتل، التعالي، الشاذ، القذر، النجس وكلها كلمات معروفة في العيادات النفسية ويرى المسيحيون أن الشعور بالذنب عند اليهود ناتج عن الجريمة التي ارتكبوها بحق المسيح بينما يرى "فرويد" أن السبب وراء ذلك كان قتلهم موسى، فالقتل غير المبرر وغير المتسامي بحد ذاته يشكل سبباً سواء أكان المقتول المسيح أم موسى أم الشعوب، أما الخلود فتبلورت فكرتـه عنـد اليهود نتيجة الأحداث الصعبة التي زجوا أنفسهم في أتونها وهام بها اليهودي تفاديـاً للتحلل المحتمل في المجتمعات. من هنا أصيب اليهودي لعقد نفـسية بالغـة حيـث السقوط الفجائي من الشعور بالعظمة إلى الدونية. فعلى عاتقهم تقع مـسؤولية إنقـاذ البشرية إلى اعتبار "الغوييم" حيوانات في خدمة "شعب ا المختـار". هـذه العقـدة اللاشعورية تستحث تكراراً المشاهد عبر التسارع وهذا ما تتبناه الصهيونية السياسية وقبلها الصهيونية الأدبية لإعادة تربية الأجيـال وفـق الـسلوكية المرضـية هـذه والمنطلقات الميتافيزيقية التي لا تخضع للمنطق العلمي. وبات الأدب مقتصراً علـى طرح هذه الأفكار. ففي قصيدة نشرتها" معاريف" بتاريخ 10/5/1978 نقرأ الآتي:

اعتمر الخوذة استعداداً لمسيرة الدم

جائلا بعينين إلى النار الحمقى

امتشاق السيف جزء من آدميته

لرعشة الفرح واحالة الحرب إلى سعادة(121)

إن الصهيونية سبقت "النيتشوية" بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفـوق. لرجـل النقي الذي هو غاية في حد ذاته خلق العالم من أجله، إذن فالبطل الـصهيوني هـو المحارب الذي يعتمر الخوذة ويمتشق السيف والدبابة ليجعل العالم من أجلـه، ولقـد وضح "بيجن" أن عادة حمل السيف إنما هي عادة يهوديـة قديمـة وليـست ميـزة صهيونية، وهذا الأمر يوضح أن التاريخ الصهيوني تاريخ عسكري ملفق استخدمت في تلفيقه براعة شيطانية لا يمكن إنكارها، فاليهود أكثر حشداً، والمفاجأة دائماً معهـم رغم أن في التاريخ اليهودي لم توجد في أي حرب ولا في أي معركة ضـمن هـذه الحروب "مواجهة" بالمعنى الصحيح(122) على هذه القاعدة سارت الصهيونية الدبية فأصبحت القصائد التي تتضمن مفهوماً سياسياً في الشعر الـصهيوني باسـتثناء ردة الفعل النفسية لا تخرج عن الأطر العامة التي حددتها المسيرة الصهيونية. فكلها سواء الصراحة منها أو الرمزية لا تتخلى عن الهدف الاستراتيجي، فكان يجب على البطل تنفيذ هذه الثوابت التي يطرحها "ديدي منوس" عندما جسد مبادئ "كامب ديفيـد" فـي قصيدة "الغيبوبة الساحرة":

كذلك تذكر الأساطير

مجرى أحداث وأمور، ومواقف

دمر"بيت الملكة" قبل الإذن

رغم اليأس والبكاء

بكامب ديفيد تكمن الحياة

هناك "إذا لم تحكم الرغبة"

فسيفرض السلاح نفسه

دونية العربي مقابل الصهيوني

"يهودا بورلا" قاص صهيوني يظهر البطل في قصته " زوج في شعبه" مخلصاً لقضيته يقدم كل شيء من أجلها. يتجلى عن المكسب والمال في سبيل إنجاح مهمتـه

"فلقد قبل جدعون المهمة المناطة به، شراء الأسلحة، دون نقاش، وقام بتنفيذها علـى أحسن وجه وحكمة"، بينما يظهر لنا العربي غبياً يتراجع بـسهولة أمـام المغريـات المادية، ومع أنه يعرف كما ذكر "بورلا" فـي قـصته "أن الـسلاح سيـصل إلـى الهاجاناة"(123) بورلا هنا يتفق مع "سمولنسكي" في قصته "في ظل البيارات" الـذي أورد على لسان إحدى العائلات اليهودية التي تعيش في بيروت "إنك تستطيع شـراء العرب بالمال، لأن المال عندهم هو كل شيء"(124)، وهنا تزوير حقيقـي للتـاريخ، ففرق كبير بين العربي في مروءته وبين اليهودي في جبنه وشحه القاتل. وليس غريباً ما أوضحته الآداب العالمية من هذا الأمر وأبرزها "قصة تاجر البندقية"

والبطولة عند الصهاينة قاعدة عريضة تمتد لتصل للأطفال أيضاً. فلقد برزت لهجة " السوبر طفل" الإسرائيلي. بكل صلفها ووقاحتها وعنفها واستخفافها في أعمال الكتاب الصهاينة "كرميلي،وعوديد، ووان سترنغ، وستمير، فكل أعمال هؤلاء تمجـد بطـل اليهود كبطل أسطوري، حتى كلاب اليهود أفضل من كلاب الرب. فالكلبة "غريـت" توصل الورقة لمعسكر الجيش بل وتبلغ عن نشاط القـوات الـسورية(125) أي أن اليهودي يرى في كلاب أفضلية على العرب(126) ويرى هؤلاء الكتاب أن اليهـود عندما يبدأون بإطلاق النار يصاب الجنود العرب بالهلع ويركنون إلى الفرار".(127)

خاتمة

وهكذا يتضح لنا أن الاستيطان والاستيلاء على الأرض منذ البدايات الأولـى لهجمة الصهيونية واكبتها حركة أدبية وفكرية نشطة تدعو لامتلاك الأرض محاولـة تزوير التاريخ بأن هذه الأرض بدون سكان.وأن الصهاينة الرواد هم الذين عمروهـا بعد أن كانت مستنقعات وصحاري مليئة بالحشرات والأمراض. وما رواية شـموئيل عجنون " بالأمس الأول" إلا صورة واضحة للصهيونية الأدبية المبكرة.

الاستيطان هذا وبالمفهوم الصهيوني لا حدود له، فهو قديم جديد ومتجدد تحكمه عوامل القوة واستغلال الظروف العالمية بما في ذلك الاتكاء على حليف قوي يمكـن أيضاً استبداله في الوقت المناسب. وفي هذا المجال ها هي الصهيونية تعمل كل يـوم

على تهيئة الظروف الملائمة لابتلاع المزيد من الأرض عن طريق العدوان المتكرر هنا وهناك وبمساندة الإمبريالية الأمريكية المعادية للأقطار العربية تمشياً مع السياسة الثابتة التي تقوم على فرض الأمر الواقع. وقت شكلت هذه الحملة الاسـتيطانية ذروة خطيرة لهذه السياسة التوسعية العدوانية دون أدنى اعتبار للمواثيق الدولية أو قرارات الأمم المتحدة التي تدين سياسة ضم الأراضي بالقوة. لتمرير سياسـتها الاسـتيطانية ولخلق الجيل الإسرائيلي المشوه فكرياً بزرع الأفكار السامة والهدامة في عقله علـى أساس أن هذه الأرض للإسرائيليين فقط. ومن عليها من سكان من غي الإسـرائيليين غرباء وبقايا مستعمر قديم.بل تطرقت الصهيونية الأدبية للشخصية العربيـة مبـرزة إياها في أدنى مراحل الانحطاط البشري الجسماني والسلوكي. وكان العرب من بقايا الحلقات المفقودة في كائنات علم التطور.فالعربي جاهل، سارق، جبان،سيىء، يـشبه الخنزير في تناوله للطعام، دموي وقاتل، وغريب الملامح شعره أخضر وأشعب يحب القتل والنساء ويغتصب الأطفال.ورجل هذه صفاته الأجدر به أن يموت. هذه المفاهيم تزرعها الصهيونية في نفوس الأطفال كل يوم، وتحقن بها أفكارهم وعقولهم. وتتشكل منهم بلدوزر الفعل العدواني القادم ضد العرب، بل وضد أنفسهم أيضاً.

هوامش..

-1الصهيونية حركة عنصرية، ترجمة عدنان كيالي، المؤسسة العربيـة للدراسـات والنشر،ط 1979،1،ص 137.

" -2شؤون فلسطينية"، العدد 47، يوليو 1975،ص 115.

"-3سيكولوجية الاستراتيجية الصهيونية ومفهوم إسرائيل للسلام "،د0 ملاك جرجس، طرابلس 1891،ص117.

-4انظر: الحركات الهدافة"، مسعود كريم وخليل حسونة، دار المدينة طرابلس،1994، ص187.

" -5ثقوب في الثقافة الأخروية"، أنطوان شحات ط1، ص 10.

" -6شخصية العربي في الأدب العبري"، أنطوان شحات،1986،ص 13.

"-7الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث (1985-1948)"، غانم مزعـل، ط 1، 1986، ص47.

"-8العنف والسلام،دراسة في الاستراتيجية الصهيونية إبراهيم العابد،م.ت.ف. مركز الأبحاث، آذار 1967 ، ص 13.

-9الشخصية العربي في الأدب العبري"، مصدر سابق، ص 14.

-10الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث 1985-1948،غـانم مزعـل، ط، 1986،ص47.

-11أرميا "13:17".

"-12مشاريع الاستيطان اليهودي"، د0 أمين عبد ا محمد عالم المعرفة، فبراير/شباط 1970ن ص84.

" -13الفكرة الصهيونية- النصوص الأساسية"، د0 أنيس صايغ، مركـز الأبحـاث، بيروت، 1970، ص84.

-14سفر التكوين "7:12"، ويتكرر هذا الوعد في"13:15"،"17:18".

"-15التضليل الصهيوني البشع"، ترجمة إبراهيم الراهب.

للمزيد انظر AHAD HAAM- Natonalism and the Jewish Ethic New Yor ,. 1952.P.130

-16سيكولوجية الاستراتيجية الصهيونية، د0 ملاك جرجس طرابلس،81، ص158، انظر كتاب:العنف والسلام، إبراهيم العيد.

"-17الصهيونية بين النظرية والتطبيق"، ترجمة هاشم حمادي، ص23.

"-18قصة العشب الحمر يشتعل".أوردها: "الأديب الصهيوني بين حربين"، المـصدر السابق، ص 13.

-19المصدر السابق، ص 52.

-20المصدر السابق، ص 52.

-21نفس المصدر، ص 119.

"-22العشب الأحمر يشتعل"، ص 116.

"-23رسائل بن غوريون"، ترجمة دينا عبد المجيـد دار الجليـل، ط1989،1، ص 214.

" -24العشب الأحمر يشتعل" ص 117

-25المصدر السابق، ص 125.

-26الصهيونية بين النظرية والتطبيق"، ص21-20

"-27العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الإسرائيلي الحـديث"،ج1، محمـد عـزة دروزة، دار الكلمة للنشر 1979، ص61.

" -28العشب الأحمر يشتعل"، ص 113.

" -29سيكولوجية الاستراتيجية الصهيونية"، ص 13.

" -30كان يمكن شراء مدفع بهذا المال"، روث الموجي، نقلاً عن الأدب الـصهيوني بين حربين" ص 172.

-31نفس المصدر، ص 169.

" -32قصة لا لون للخوف"، جدعون تلباز، نقلاً عن السابق، ص 224.

"-33الشخصية العربية في الأدب العبري"، غانم مزعل، مصدر سابق، ص 32.

"-34القرية العربية- ستابيسكي"، عن غانم مزعل، ص 194.

" -35لا لون للخوف"، جدعون تلباز، مصدر سابق، ص 235.

-36سفر أيوب "11-7".

-37المصدر السابق، "6-2".

" -38الأدب الصهيوني بين حربين"، البحراوي، مصدر سابق، ص 140.

-39نفس المصدر، "ص.ن".

-40نفس المصدر السابق، ص 149.

"-41وجه قبيح في المرآة"، آدير كوهين، ترجمة غازي السعدي، دار الجليـل، ط1، 1989 ،ص 128.

"-42قصة أنا مهاجر"، ص154.
" -43الأدب الصهيوني بين حربين"، مصدر سابق، ص125.
" -44الأدب الصهيوني الحديث"، جودت السعد، ص 36-35.
-45التربية الصهيونية"، حسن الباش، ص 65.
" -46بنية ومشاكل التجمع الاستيطاني في فلسطين المحتلة"، حبيب قهوجي، ص39.
"-47رجال الدولة الأحياء في الكيان الصهيوني"، ناهض منير الريس، ط1، 1986، ص79.
-48فلسطين والكتاب المقدس"، عمر التومي الشيباني، ص 37.
" -49الصهيونية فكراً وهدفاً وممارسة"، ص 292-291.
" -50الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث"، غانم مزعل، ص 49.
" -51القصيدة عن كتاب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع"، جودت السعد، ط1، 1981، ص 36.
" -52الصهيونية نظرية وممارسة" – مجموعة من الكتاب- دار الطليعـة، بيـروت، 1979، ص5.
"-53الصهيونية العالمية –نشأتها وطبيعتها رياض أحمد، ص 66.
" -54دولة إسرائيل – خصائص التطور السياسي والاقتصادي"، ص 52.
-55نقلاً عن "الأدب الصهيوني الحديث"، ص 40.
" -56في الأدب الصهيوني – غسان كنفاني"، ص 40ن وما بعدها.
-57المصدر السابق، ص 45.
" -58قصة بنات آوى" عاموس عوز، نقلاً عن "الشخصية العربية في الأدب العبري"، ص 175.
" -59دراسات حول أدب عاموس عوز، نوريس غريتش"- مترجم – ص 93.
"-60القصيدة نقلاً عن :" التربية الصهيونية"، حسن الباش، ص 49.
"-61الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث"، غانم مزعل، ص97.

"-62قصة : القائد الأول ليهوذا يهواش يبسر".

" -63علاقات الطوائف في إسرائيل"ن أورده مزعل، ص94.

" -64قصة: من عدو إلى محب" شموئيل عجنون،ص23.

-65نفس المصدر السابق، ص27.

" -66الصهيونية العالمية" رياض أحمد، مصدراً سابق، ص23.

" -67الشخصية العربية"، غانم مزعل، ص24.

-68نفس المصدر السابق، "ص.ن".

" -69وجه قبيح في المرآة"، أدير كوهين، مصدر سابق، ص 62.

" -70قصة بلاد بنات آوى"، عاموس عوز.

" -71الصهيونية بين النظرية والتطبيق"، مصدر سابق، ص 112.

" -72الشخصية العربية، غانم مزعل، المصدر السابق.

" -73وجه قبيح في المرآة، مصدر سابق.

-74نفس المصدر السابق.

" -75الشخصية العربية في الأدب العبري"، مصدر سبق ذكره، ص 41.

" -76الصهيونية فكراً، وهدفاً وممارسة"، مصدر سابق ص34.

" -77الشخصية العربية في الأدب العبري"ن المصدر السابق، ص23.

-78نفس المصدر السابق.

" -79هآرتس- قصيدة: لو كنت قائداً لجيشنا الأسطورة كور"، بتاريخ 2/7/1982.

-80نفس المصدر السابق.

" -81الشخصية العربية"، ص36.

" -82التربية الصهيونية" حسن الباش، مصدر سابق، ص29.

" -83الشخصية العربية في الأدب العبري"، ص21.

-84نفس المصدر، ص 36.

" -85الأدب الصهيوني بين حربين"، مصدر سابق، ص20.

-86نفس المصدر السابق، ص21.

-87نقلاً عن: الأدب الصهيوني الحديث"، جودت السعد، ص85.

" -88الدولة والدين في إسرائيل"، د0 أسـعد رزوق، بيـروت، ايلـول /سـبتمبر، 1968،ص32.

-89الأدب الصهيوني بين حربين"، ص 35-34.

"-90الصهيونية –هدفاً وفكراً وممارسة"، ص30.

" -91أغاني أرض صهيوني"، يهودا عميحاي.

" -92قصيدة البداية- أنا جرينجو".

" -93قصيدة حجارة- داليار اكيبوفتس".

" -94أبجدية الحجارة"ن محمد على اليوسفي، ط1، 1968،ص31.

" -95أربع قصص"، مزهار سمولنسكي، ص 134-133.

" -96الشخصية العربية في الأدب العبري"، مصدر سابق، ص57.

" -97في الأدب الصهيوني – غسان كنفاني"، ص204.

" -98الآداب صورة العربي في الأدب العبري"، العدد2-1، يناير 1981، ص43-42.

" -99الشخصية العربية في الأدب العبري"، ص60.

" -100أربع قصص"، سمولنسكي، ص 106، نقلاً عن مزعل.

-101المصدر السابق، ص162.

-102المصدر السابق، ص 111.

-103المصدر السابق، ص160.

" -104القصة العربية في الأدب العبري"، غانم مزعل، ص 63.

" -105قصص عبرية عن حياة العرب". ص327-326.

" -106الشخصية العربية في الأدب العبري"، مصدر سابق،ص67.

" -107الأدب الصهيوني الحديث"، جودت السعد،ص 35.

"-108العقائد الوثنية في الديانة اليهودية"، حسن الباش ط1، 1990، ص166.

" -109الصهيونية والاستعمار والإمبريالية"، عمر الشهابي، ص59.

" -110الشخصية العربية في الأدب العربي الحديث"ن ص173.

-111عن "الأدب الصهيوني الحديث"، جودة السعد، ص43.

" -112الفكرة الصهيونية"، د0 أنيس صيانغ مركـز الأبحـاث، بيـروت، 1970، ص23.

-113نقلاً عن: الأدب الصهيوني الحديث"، ص43.

-114المصدر السابق ص 33.

-115عن " التربية الصهيونية"، حسن الباش، مصدر سابق، ص 64.

-116نفس المصدر السابق، ص46.

" -117العرب في إسرائيل"، صبري جريس، ص 55.

" -118الأدب الصهيوني الحديث"، ص73.

-119نفس المصدر السابق ص 75.

-120نفس المصدر السابق،ص82.

" -121رجال الدولة الأحياء في الكيان الصهيوني"، مصدر سابق، ص 37.

" -122الأدب الصهيوني الحديث"، ص116.

" -123رواية زوج في شعبه"، يهوذا بورلا، ص303، وما بعدها.

" -124في ظل البيارات"،موشيه سمولنسكي ص38.

" -125خربة خزعة" يزهار سمولنسكي، ص69.

" -126أربع قصص"، يزهار سمولنسكي،ص70.

" -127الأدب الصهيوني بين حربين"، د0 إبراهيم البحراوي،ص180.

الباب الثالث:

النزعات وأدب الأطفال

الفصل الأول:
وجهات نظر معكوسة

لا يمكن للفراغ أن ينتج شيئاً. فحين نلحظ مغالاة في لحظةٍ تاريخيةٍ محددة، فلا يعني ذلك أنها وليدة تلك اللحظة، بل تكون امتداداً لسنوات طويلة من التداخلات التربوية التي تتعلق بالدين وعلم الاجتماع والاقتصاد والممارسات اليومية.. الخ.

وفكرة إسرائيل عندما قامت، استندت إلى مجموعة من المفاهيم المحددة، لكنها صبت في نهاية الأمر في اتجاهين، الأول يرسخ للفكرة الصهيونية العنصرية، والثاني يحاول هدم التراث الإنساني الذي حققه الفلسطينيون عبر تاريخهم الطويل.

وتعدى الأمر، هؤلاء الفلسطينيين، ليشمل كل ما هو عربي ابتداءً من القرآن، وانتهاءً بأخر طفل يولد في أية بقعة عربية!

ولأن إسرائيل تعمل دائماً من خلال منظومة مفاهيم استراتيجية، فإن الطفل هو أولى دعامات هذه المنظومة، وبالتالي فإن القيم التي يتم زرعها فيه، هي التي ستحدد طبيعة تعامله مع أعدائه (العرب) حينما يصل إلى سن يؤهله لدخول الجيش ثم السياسة بعد ذلك.

وهذا الكتاب يلقي نظرة على إسرائيل من هذه الزاوية، فما الذي تقدمه إسرائيل لأطفالها..؟

وربما أن هناك أهمية إضافية لهذا الكتاب تتجاوز ما يطرحه في هذا الشأن، وتكمن هذه الأهمية في أن كاتبه إسرائيلي، مما يجعل الأمر ـ موضوعياً ـ لا يدخل في باب التجني على إسرائيل كما اعتادت أن تقول كلما افتضحت لها ممارسة ما.

ملاحظة: لا يعني استعراض هذا الكتاب أن ما فيه صحيح بنسبة100%، ولكن ما يهمنا هنا هو الجانب المعرفي البحت.

في مقدمته لكتاب وجه قبيح في المرآة يقول كوهين: كتب الشاعر الأمريكي

أرتشيبالد ماك ليش في إحدى قصائده الأبيات التالية التي رافقتنا طيلة الفترة التي قمنا خلالها ببحثنا حول الإنسان العربي ومكانته في أدب الأطفال الإسرائيلي:

"إن الجنود الذين قضوا وهم في ربيع الشباب، لا يستطيعون الكلام، وعلى الرغم من ذلك فهم يسمعون في البيوت الهادئة من الذي لم يسمعها أفواههم صامتة، لكنها تتحدث نيابة عنهم في ساعات الليل وعند بزوغ الفجر.. إنهم يقولون: لقد كنا شـباباً ومتنـا، نرجو أن تتذكرونا.. إنهم يقولون: لقد ضحينا بحياتنا، ولكن أحداً لا يعلم ما هي الفائدة من حياتنا التي ضحينا بها. إنهم يقولون: إن حوادث موتنا لا تهمنا، بل تهمكم أنـتم، ومغزاها وكأنها من فعل أيديكم .. إنهم يقولون: إذا كانت حياتنا ووفاتنا قد حدثت من أجل السلام ومن أجل الحياة الجديدة، وإذا كانت حياتنا قد انقضت سـدى، فـنحن لا نستطيع قول ذلك.. وواجبكم يحتم عليكم أن تقولوا ذلك. إنهم يقولون: إننا نترك لكـم حوادث موتنا، فامنحوها المعنى الذي تستحقه..

بهذه القصيدة يبدأ كوهين كتابة ليطرح التساؤل الكبير: هل سنستطيع مـنح المعنـى لموت الآلاف الذين سقطوا هنا في "أرض إسرائيل" منذ بدء الاستيطان اليهودي؟ وهل كانت حياتهم ووفاتهم من أجل السلام ومن أجل الحياة الجديدة، مـن أجـل إقامـة علاقات من التآخي والتعاون وحسن الجوار، أم أن حياتهم راحت سدي وأن الكراهية ستستمر والعداء سيسود، وأن الموت في الحروب التي لا نهاية لها سيظل إلى مـالا نهاية؟

ويقول كوهين إن بحثه هذا جعله يطلع على 1700 كتاب للأطفال صدرت في إسرائيل في أعقاب حرب حزيران 1967، وقد وجد من بينها 520 كتابـاً تـضمنت إشارات إلى شخصية العربي، وقد قام بدراسة هذه الكتب بدقة متناهية من ناحيتي الكم والنوع. إلا أنه يعترف أن هذا البحث ليس محايداً بالرغم من سعته لـذاك، غيـر أن هدف البحث المؤكد هو التطرق لمغزى المعطيات وتحليلها ومحاولة إيجاد إمكانيـات المعالجة التربوية، ويختتم كوهين مقدمته:"ولو نجح هذا البحث فـتح عيوننـا وفـي الكشف عن زوايا الرؤية المضللة والمشوهة التي ارتسمت في الأذهان مـن خـلال

وصف العلاقات بين اليهود والعرب، فإننا نكون قد أدينا رسالتنا".

من الواقع إلى الأدب

بعد استكمال البحث الذي يدور حوله الكتـاب "العربـي فـي أدب الأطفـال الإسرائيلي" قام كوهين باستطلاع مرافق للبحث للتعرف علـى نظـرة الأولاد فـي المدرسة الابتدائية نحو العربي، لمعرفة ما إذا كان الأدب الأطفال الذي قرأوه تـأثير على نظرتهم للعرب وعلى فهم جوهر النزاع معهم ومدى استعداد التلاميذ للعيش مع العرب في حياة سلام وصداقة، اشترك في الاستطلاع 250 تلميذاً من الصف الرابـع والخامس والسادس في مدرسة الكرمل بحيفا، وقد أثارت نتائج الاستطلاع سلسلة من الحقائق التي تستحق الاهتمام والدراسة:

-1أن مستوى الخوف من العربي في أوسط التلاميذ كبير للغاية، فقد وصـف 75% من التلاميذ العربي على أنه الشخص مختطف الأطفال والقاتل والمخرب والمجـرم وما شابه ذلك.

-2كان وصف العربي مشابهاً لما اعتادت كتب الأطفال على وصفة، فقد قـال 80% من الأطفال إن العربي شخص يعيش في الصحراء ويرتدي الكوفية ويرعى الأغنـام وله وجه مخيف وقذر وله ندوب في وجهه..الخ.

15% -3كان لهم موقفاً متوازياً وصادقاً نتيجة علاقتهم المباشرة بالعرب.

-4النظرة الإيجابية للعرب لم تتعد 20% وكانت محكومة بالفائدة التي نحققهـا مـن علاقاتنا مع العرب، فيما انطلقت بعض المواقف الإيجابية من موقع التسامح المتعالي ولم تعتمد على تفهم أو صداقة شخصية، فقط 10% من المواقف عبرت عن نظـرة مباشرة تعتبر العربي إنساناً دون لتعاطف معه من خلال موقف متعال.

-5رفض 90% منهم حق العرب في "البلاد"، أو التعايش المبني على المساواة.

-6الأولاد القادمون من خارج إسرائيل في السنوات الأخيرة عبروا عن تفهم وانفتاح أكثر للمساواة والتعايش.

7- عبر بعض الأولاد عن أسباب النزاع بعبارات مثل: إنهم يريدون قتلنا وطردنا من "البلاد" واحتلال مدننا ورمينا في البحر.

8- عبر 45% من الأولاد عن رغبتهم في السلام مع العرب، لكن 32% فقط عبروا عن قناعتهم بإمكانية تحقيق ذلك، ولكن معظم الراغبين في السلام يعرّفون السلام أنه يتمثل في تسليم العرب بالوجود اليهودي في "البلاد" وتحقيق السيادة على كافة أرجاء "البلاد".

9- تطرق 58% من الأولاد إلى أن كتب الأطفال أثرت عليهم فـي رسـم صـورة الإنسان العربي، ومعظم هؤلاء ذكروا أن التأثير كان على المستوى السلبي للأحداث والشخصية، وقليل منهم تطرق إلى كتاب جعلهم يغيـرون مـن نظـرتهم للعربـي ويشعرون بالاطمئنان عند القرب منه.

الغربة، النزعات، وحالات النزاع

إن حالة الحرب أو التهديد المتواصل بشن الحرب هي من العناصر الرئيـسة لزعزعة التامة للقيم لدى الإنسان، ومن المهم التعرف على العلاقة الخاصة القائمـة بين الحرب والقيم في إسرائيل بالذات التي لم تتوقف عن ممارسـة الحـروب مـع جيرانها العرب منذ إقامتها.

ويستشهد كوهين هنا بتعليق كتبه عكيبا آرنـست سـيمون: "إن الإسـرائيليين يبذلون كل ما في وسعهم لإعداد الطلاب اليهود وتهيئتهم ليوم غد الذي قد تنشب فيـه الحرب، بينما لا يبذلون أي جهد لتهيئة الطلاب اليهود لبعد غد الذي قد يجاب السلام في منطقتنا، على الأقل التي نتحمل نحوها مسؤولية مباشرة".

ويقول تسفي لام "إن الحرب تفرض نفسها على وعي الإنسان وتوجه معظـم تصرفاته". إن إلقاء نظرة على كتب الأطفال في إسرائيل منذ إقامة الدولة، يظهر لنـا بأن هذه الكتب تنظر إلى العربي بمنظار الظروف الحربية، وبالتالي لا تهيئ القـارئ اليهودي لإقامة علاقات من حسن الجوار والتعاون مـع العـرب، وحـين وصـف إيزنشتدت في كتابة "الاجتماع السياسي" أصناف الأعداء وأصناف الحروب، فقد كان

أكثر هذه الأصناف تطرفاً هو العدو الذي تكون الحرب بالنسبة له ليست هدفاً للتوصل إلى سلام بل للقضاء على العدو، وهذا النوع يشكل نموذجاً يمثل الغربة والإجرام والتهديد والخطر على وجود المجتمع، والنوع الثاني من الحروب هي التي تكون وسيلة لتحقيق إنجازات.

غير أن كوهين يقول إنه من الصعب إدراج الحرب بين العرب واليهود ضمن هاتين النظرتين، إذ تحدث العرب عام 1948 عن حرب إبادة، وتحدث اليهود عن حرب دفاعية، وقد تبين من تحليل كتب الأطفال بأن تلك الكتب قد صورت العدو بالا إنسانية والانحطاط والوحشية وشككت في إمكانية إقامة علاقات من السلام أو الثقة المتبادلة معه، فليس من العبث

قول الرئيس المصري أنور السادات: إن 70% من النزاع العربي_ الإسرائيلي هو في المجال النفسي.

وعندما يصور العدو على أنه يسعى للقضاء على جميع الإسرائيليين الذين ولدوا في إسرائيل أو هاجروا إليها، وإغلاق أبواب البلاد في وجه الهجرة اليهودية، فهل هناك مجال للتفاهم معه؟ وعندما يكون الخوف من تعذيب الفدائيين مصدراً لاستعادة ذكريات العهد النازي وتعذيبه لليهود فهل يمكن البدء بحوار والسعي لبناء جسور من التفاهم؟

وحتى لو بذلت جهود جبارة فإنه لا أمل في التوصل إلى نتيجة طالما أن الكراهية مغروسة في القلوب والرغبة في الفتك والقتل والدمار مسيطرة على عقلية الأطفال اليهود المتأثرين بالوصف الذي تضمنته الكتب للإنسان العربي والأدب العربي، إن هزيمة العرب في حرب 1948 قد أوجدت شخصية أدبية لليهودي السافل الذي نجح بمكائده في استغلال طيبة قلب العربي وسلبه جزءاً كبيراً من أرضه وحوله إلى لاجئ يعيش في الخيام تحت رحمة الأمم المتحدة، ولكن هنا أيضاً لم يتحول الوجود الإسرائيلي إلى كابوس يلاحق العرب مثل كابوس واقعهم الجديد كلاجئين، وحنينهم للوطن والرغبة في استعادته. لهذا فإن شخصية الإسرائيلي كانت هامشية

بالمقارنة مع معاناة اللاجئ العربي ورغبته في الانتقام. وبعد حرب حزيران 1967 وظهور منظمة فتح ونشاطاتها "الإرهابية" حاول الأديب العربي فهم شخصية اليهودي في ضوء عقائديات "فتح" وأصبح الإسرائيلي كابوساً يجب التخلص منه والقضاء عليه.

إن الأدب العربي حافل بالكراهية نحو اليهودي ويدعو إلى الفتك به "هنا يسوق كوهين بعض الأمثلة مستقاة من تحليلات لكتاب يهود وإسرائيليين"، ويؤكد الأدب العربي على استغلال الكارثة التي تعرض لها اليهود وتنفيذهم لوسائل النازية ضد العرب، كما يؤكد أن اليهود ضللوا من قبل الصهيونية والتوراة وأنهم يحاولون إقامة وطن لهم على أرض سلبية وليس لهم أخلاق أو مبادئ أو أرض أو لغة خاصة بهم، وأن الإسرائيليين يشكلون امتداداً للاستعمار الأوروبي وأساليب الفتك بالشعوب.

هناك كتب أطفال عديدة تتمسك بنظرة "لا يوجد عدو طيب" وتعمل باستمرار على تلطيخ سمعة العربي بأسلوب التباهي الأعمى وإغلاق جميع أقنية الاتصال، وإن خطر مثل هذه الكتب يزداد حدة بسبب العزلة القائمة بين الشعبين والجهل التام وأسوار الآراء القديمة وطبقات متراكمة من الكراهية وانعدام الحوار.

إن التحليلات العلمية للأدب القومي لدى الشعوب التي تعيش حالات من النزاع تكشف بأن مثل هذه الأوضاع تؤدي حتماً إلى تشويه رؤية أطراف النزاع لبعضهم البعض، ولا ينفرد بها أدب الأطفال الإسرائيلي وحده.

ويقول علماء النفس إن النزاع بين الشعوب هو حرب ظلال، وكل طرف يناضل ضد شخصية العدو كما هي مترسخة لديه. وقد ساهم العالمان النفسيان بتلهايم وجانوفيتش في مناقشة تشويه شخصية الطرف للطرف الآخر الذي يعيش معه حالة صراع وأوضحا بأن التشويه هو نتيجة لصراع داخلي ودافع يحاول المرء بوساطته حل النزاعات مع نفسه بأن ينسب صفاته للآخر.

لقد تحدث عاموس إيالون مع المصرية سناء حسن حول الصفة الثابتة لدى الإسرائيليين نحو العرب وأكد: أننا لا نعتبركم أبناء الشيطان أو نازيين متوحشين، بل

نميل إلى اعتباركم مخلوقات عديمة القيمة والإنسانية، وإننا نصف أي عمل سيء وغير ناجع بالعمل العربي، وعندما نريد أن نقول لشخص ما "لا تكن غبياً" فإننا نقول له "لا تكن عربياً".

إن هذه العبارات المألوفة التي تحفل بها كتب الأطفال والكتب التي لا تتطرق للعرب بشكل مباشر، تنطوي على خطر كبير وتؤثر كثيراً على القناعات وتحتل مكاناً دائماً في النفس.

من بين الحالات المتطرفة التي تتجلى فيها سيطرة الرأي السائد حول العربي هي الحالة تفقد فيها الشخصية العربية اسمها ولا يطلق عليها اسم، بل توصف بالرجل "ذي الندبة" والأعور"، و"ذي الوجه القبيح"، وهنا يفقد العربي كل هوية شخصية وتسيطر النظرية السائدة ولا تبذل أي محاولة لمنحه أية صفة إنسانية.

إن كثيراً من الباحثين الذين حللوا نشأة المعتقدات السائدة، يكثرون من الحديث حول الغربة وانعدام الاتصال كعنصرين رئيسين، وأشار الباحث ريتر أن هناك شعوراً خفياً بالخوف من كل ما هو غريب، وينتج عنه شعور بالكراهية والعداء بشكل تلقائي، إن هذه العبارة تتفق تماماً مع نتائج بحثنا الذي شمل 520 كتاباً من أصل 1700 كتاب تمت دراستها، ووجدنا فيها تطرقاً للعربي، وسيطرت عليها النزعة العدائية والنظرة القومية والشعور بالتفوق على العربي والشك والعداء نحو العرب عامة.

إن كتب الأطفال يمكن أن تكون إحدى وسائل اللقاء كمصدر للمعلومات التي تبلور الصورة العامة وتفتح الحوار مع الإنسان وتخلق التعايش، ولكنها يمكن أيضاً أن تؤدي عكسياً.

لقد بحث هذا الوضع المعقد في أعمال أوستروفيل وغرينباوم اللذين حاولا دراسة موقف اليهود الإسرائيليين إزاء العرب بأساليب باحثة وقالا: إن حقيقة اعتبار العرب الذين يعيشون في الدول العربية أعداء "لدولة إسرائيل" وفي نفس الوقت تعيش في "الدولة" أقلية عربية، فإن ذلك يشكل مشكلة صعبة بالنسبة للغالبية اليهودية

التي كانت في يوم من الأيام أقلية، وأضافا بأن اليهودي في طبعه يعارض القناعـات القديمة كما يعارض التمييز، ولكنه، من جهة أخرى، مضطر بسبب الظروف التـي يعيشها للنظر إلى الأشخاص حسب انتمائهم القومي.

إن الخطوة الأولى نحو القضاء على القناعات القديمة وبنـاء نظـرة صـادقة ومباشرة ومنفتحة، تحتم علينا أن نتعلم العربي، ونتعرف عليه حتى لو وقف أمامنـا الآن (كعدو) يجب أن نعترف بأن الطرف الآخر هو إنساني ونحاول إجراء حوار معه لا تسيطر عليه الرغبة في إخضاعه، بل لإجراء حوار إنساني تام معه.

في تحليلنا للقناعات الثابتة التي تصور شخصية العربي في كتب الأطفال فـي إسرائيل قد استعنا بالبحث الذي وضعه إدغار روزنبرغ بعنوان: "من شيلوك وحتـى سوانغالي"، وقد تضمن هذا البحث تحليلاً للشخصيات البارزة في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر، وتوقف قليلاً عند الشخصيات اليهودية الرئيـسة فـي الروايـة الإنجليزية\ن كما راقب جذور القوالب الجاهزة بالنسبة لليهود في الأدب الإنجليـزي منذ بداية انطلاقته.

إن خرافة الشخصية اليهودية السلبية هي ذات جـذور قديمـة للغايـة تبـدأ بهورودس قاتل الأطفال ويهودا القريوتي واليهود قتلة المسيح وما إلى ذلك.

عن القناعات الثابتة هي ذات مغزى سلبي بالنسبة لشعب معـين، ويمكـن أن تكون أرضا خصبة للعداء والكراهية، ونستطيع، ونستطيع القول أنه لولا الوهم الذي أقنعنا به أنفسنا حول القوالب الثابتة إزاء العرب، ولو لم نعتبرهم في قناعاتنا كبدائيين ومتخلفين وغير موهوبين ومقاتلين سيئين وفارين من ميدان المعركة ويمكن دحـرهم بسهولة، لما أفقنا فجأة في حرب أكتوبر وكأننا في كابوس مرعب أصابنا ونحن غير مستعدين ومتوهمين بأننا نستطيع خلال أسبوع دحر جميع الجيوش العربية وتـدمير قواعدهم الجوية وطردهم حفاة الأقدام في رمال الصحراء.

أن كتب التاريخ والأدب تؤدي دائماً إلى تأليف كتب الأطفال وخاصة الكتـب التي تحكي قصصاً تاريخية وبيوغرافية، إن كتب التاريخ التي يتداولها الطلاب تحكي

عن تاريخ لا يستطيع عامة الشعب التفاعل معه، وإنه يجب تمكين الطلاب بمساعدة معلميهم من كتابة التاريخ بشكل آخر وعلى أساس مصادر ووثائق تاريخية مستمدة من الشعب، من تاريخ الشعب الذي هو الأساس في الكيان القومي، من هنا ننتقل إلى الأدب وأدب الأطفال، وهنا نجد أيضاً كتباً تتحدث عن الزعماء وتصف الحروب والانتصارات وتلطيخ سمعة الأعداء حسب قناعات ثابتة وحسب النظريات العرقية التي تعمي الأعين حول الشعوب الأخرى.

وقد اكتشفنا من خلال بحثنا بأن الصفوف التي تضمن طلاباً يكتبون أعمالاً أدبية تنظر إلى العرب نظرة معتدلة بعكس الصفوف الأخرى المتأثرة بالقناعات الثابتة والآراء القديمة والنظرة السلبية والمتعالية نحو شعب آخر أو أقليات عرقية.

لقد كانت القناعات الثابتة لدى اليهود إزاء الشخصية العربية قائمة قبل قيام "دولة إسرائيل" وتجاب في كتاب أليعازر شموئيلي الذي ألف عام 1933 وتضمن وصفاً سلبياً للشخص العربي، وكان لهذا الوصف أثره الكبير على القراء اليهود.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ألا يوجد عربي واحد ليست له ندبة في وجهه أو ليس له شاربان أو ليس بعين واحدة؟

طبيعة العرب وطباعهم

إن الأعين التي تزرع الرعب، ومواصفات العربي في جزء كبير من الكتب اليهودية تعتمد جميعها على القناعات الثابتة، ولكن هذه القناعات تسيطر أيضاً على وصف السلوك العربي والعلاقات الإنسانية والمواصفات والمقاييس واللباس والمهن والثقافة والمكانة الاجتماعية والإطلاع على مجريات الأمور في عصرنا.

ومن دراسة 520 كتاباً للأطفال، يستنتج كوهين بأن الصفات الجيدة للعربي في هذه الكتب لم تتعد 23.8% والباقي صفات سلبية، ويقول: وجدنا في تلك الكتب أوصافاً للعرب من بينها: لصوص، مخربون، رجال عصابات، وجواسيس، معتدون على المقابر اليهودية،قناصة، مختطفو طائرات، عملاء دول أجنبية وما إلى ذلك.



ويعرض كوهين بعد ذلك نماذج من العبارات التي وردت في تلك الكتب.

ويقول كوهين في نهاية العرض: إن إجمال هذه الأوصاف قد قدم لنا صورة كاملة للقناعات الثانية السلبية التي تحفل بها كتب الأطفال الإسرائيلية وهي صورة تشوه الشخصية الحقيقية العربي وتعمق الهاوية التي تفصل بيننا وبين جيراننا.

إن إحدى الصفات المميزة للقناعات الثابتة في بلورة الشخصيات هي الانجراف السريع والسهل للتعبير عن الاستهزاء. وإن الكتابة التي تتخذ مواقف متطرفة من الشخصيات كالأسود مقابل الأبيض، سرعان ما تقف ضد جانب واحد، تهاجمه وتسخر منه. وقد كان تسفي لام على حق عندما أكد بأن انتفاء صفة الإنسانية عن العدو هي محاولة للقضاء عليه بمخيلتك قبل المعركة وذلك بسلب صفته الإنسانية أو التقليل من إنسانيته لكي لا يمنعك ضميرك ومشاعرك من القضاء عليه فعلاً في المعركة.

إن من بين الادعاءات التي تتردد ضد القناعات الثابتة في كتب الأطفال هو أن المؤلف لم يقصد أبداً خلق شخصيات سلبية أو تلقين الأطفال قيماً معنية، لكن هناك سلسلة طويلة من الإجابات على هذا الإدعاء الرائج نذكر بعضها.

-1إن البلورة القناعية متوفرة ليس للأطفال الصغار فقط بل ولكافة الأعمار.

2-وجدنا القناعات الثابتة المبلورة في جميع الأعمال الأدبية، ليس في القصص فقط.

3-يجب عدم تجاهل التأثير الكبير الذي تتمتع به كتب المغامرات.

4-أتضح أن الأدباء أنفسهم يعترفون بوجود نوايا تربوية في كتبهم.

إن استخدام العبارات المهنية والأوصاف البذيئة هو أحد الوسائل الرائجة في نفي الصفة الإنسانية، واستخدام هذه العبارات تردد كثيراً في كتب الأطفال الإسرائيلية، ومن بين هذه العبارات إطلاق أوصاف الحيوانات على العرب ، وقد وردت في كتب الأطفال شتائم شبه أدبية "مغتصبون وطماعون" والحق يقال إن بعض هذه الشتائم لم توجه للعرب كافة ولكن كثرة ترددها يخلق الشعور بالاستخفاف المهين بهم.

لقد وضع مؤلفو الكتب في إسرائيل عبارات في أفواه أبطال قصصهم تنم عن

الحقد والكراهية نحو العرب، كما وضعوا عبارات في أفواههم تنم عـن الاسـتخفاف والاستهزاء بالعرب. وقد تحدثت قصص الأطفال الإسرائيلية عن العرب ووصـفهم بالبدائيين الذين يؤمنون بالخرافات والشياطين والأرواح ويرتعدون خوفاً مـن أرواح الأموات، وعندما تتحدث هذه الكتب عن تعرض العرب واليهود للأشباح فهي تظهـر العرب بأنهم جبناء وترتعد فرائضهم من الخوف من الأرواح بينما تظهر اليهود بأنهم لا مبالين ولا يؤمنون بالخرافات.

الواقع وعناده اللانهائي:

أن أدب الأطفال الإسرائيلي الذي يصف الاستيطان في "البلاد" بـراً وبحـراً، يمكن اعتباره أدباً قصصياً تاريخياً يعيد أحداث فترة ويحيـي شخـصيات تاريخيـة ويحكيها بمقاييس القصة التاريخية والقصة الشخصية.

هناك أهمية بالغة لدراسة الأسلوب الذي اتبعته كتب الأطفال في إسرائيل فـي سرد التاريخ عبر القرن الماضي الذي تخلله نضال من أجل بناء "الدولة".

لقد أكد يهوشفاط هركابي بأن العرب يصبون جام غضبهم علـى الـصهيونية التي وصفت من قبلهم بأنها حركة لا أخلاقية لأنها تسعى للاستيلاء علـى أراضـي الغير، ويؤكد الناطقون العرب بأن إقامة "دولة إسرائيل" كانت جريمة دولية منقطعـة النظير وإذا كان قد حدث في السابق أن هزم شعب فأن قوميته ظلت قائمة على أرضه أما في فلسطين فقد محيت القومية العربية الفلسطيني. لقد وجهـت أصـابع الانتقـاد للصهيونية لأنها خططت منذ البداية لتنفيذ هذه الجريمة ولكنها أخفت نواياهـا تحـت ستار من الشعارات الإيجابية مثل: إيجاد حل لمشكلة اليهود ومنحهم ملجأ معترفاً بـه بموجب الأنظمة والقوانين الدولية وإقامة وطن قومي ولكن الصهيونية تعمدت تجاهل المغزى السلبي لهذه الشعارات وهو أن تهويد "البلاد" يعني إزالة طابعها العربي وأن حل مشكلة اليهود خلق مشكلة عربية. وفي الواقع فإن مطالب الـصهيونية بحقـوق تاريخية هي مطالب غير أخلاقية وتستحق الإدانـة إذ لـو أن هـذا المبـدأ حظـي بالاعتراف لأصبح العالم في فوضى ولطالب السويديون بحقوقهم في صقلية وطالـب

العرب بأسبانيا ولكن الصهيونية فضلت مصالح اليهود وضحت في سبيلها بمصالح العرب وعاملت العرب على أنهم قوم متخلفون ولا قيمة لهم ولهذا فإن الصهيونية هي حركة عنصرية. وقد تمثلت عنصريتها بإبراز تفوق اليهود على سائر سكان "البلاد" والترويج لعبارة"عمل عربي" والاستخفاف بالفلاح العربي والاستهانة بمكانته الاجتماعية ومن هنا فإن الصهيونية هي الدنس بذاتها ونعتها بأقذع أنواع النعوت.

إن من غير الممكن تجاهل عظم الكراهية والألم والعنف والغضب التي تحفل بها الكتب العربية والكتب الدراسية والنشرات التعليمية العربية، ولكن ما كان يجب تقليد تلك الكتب وتبني أساليبها في كتب الأطفال اليهودية، وليس هناك ما يبرر العمل الذي تقوم به كتب الأطفال اليهودية في تشويه الشخصية العربية ورفض اللقاء مع العرب.

لقد توصلنا إلى نتيجة مفادها أن كتب الأطفال الإسرائيلية تفتقر إلى العمق التاريخي، وقد لمسنا ذلك على وجه الخصوص في كتب الأطفال التي صدرت بين السنوات 1967، 1987. لقد تردد في كتب الأطفال العبرية وصف العرب بالدمامة وغيرها من الصفات السلبية كما تضمنت تلك الكتب وصفاً مسهباً للاعتداءات العربية على المستوطنين اليهود وإدخال قطعان ماشيتهم إلى حقوق اليهود ومعارضتهم لتجفيف المستنقعات واعتدائهم على المزروعات، كما صدرت كتب عديدة خصصت لوصف الأحداث التي وقعت في سنوات العشرين والثلاثين، وتحدثت تلك الكتب بإسهاب حول العصابات العربية التي اعتدت على المستعمرات اليهودية والسيارات وعابري السبيل، وأكدت بأن تلك الفترة كانت في غاية الصعوبة، ولكنها أسفرت عن إقامة المستوطنات، وكانت جميعها قصصاً تتحدث عن البطولة والجرأة والشجاعة التي يتجلى بها السوبرمان اليهودي.

عن خطورة تلك الفترة وكثرة الاعتداءات والهجمات لم تكن المؤلفين من وصف الواقع بتجرد ونزاهة، وقد نجد لهم العذر في ذلك بسبب الخوف والعداء الذي يشوه الرؤية أحياناً ويجعل اللقاء مع العرب لقاء مواجهة، لكن المؤلف ميلو أوهل

حاول إنصاف العرب لكنه لم يستطع الخروج عن الإجماع اليهودي فيما يتعلق بالنظرة نحو العربي، وهي نظرة نحو عدو وقاتل ومخرب ومعتدٍ على المستعمرات.

لقد كانت نقطة الضعف في العديد من كتب الأطفال الإسرائيلية تكمن في نظرتها الثابتة نحو العربي، وفي شموليتها التي لا يعتمد على أدلة دامغة ووصفها الذي يتكرر باستمرار.

كيف نخوض الحرب

إن عشرات كتب الأطفال التي صدرت في إسرائيل منذ حرب حزيران 1967 قد خصصت فصولاً عديدة لوصف أحداث تلك الحرب وأحداث الحروب الأخرى التي خاضتها إسرائيل في السنوات التي أعقبت قيامها، والسؤال: هل كانت هذه الكتب أمنية في سرد الحقائق التاريخية لتنسج منها قصصاً روائية؟ وهل كانت الحروب حتمية الوقوع وستسفر عن إحلال السلام المنشود وإقامة علاقات من حسن الجوار أم كانت حروباً سببها الكراهية المبنية على الاستخفاف بالعدو ووصفه باللا إنسانية والشعور بأن الحرب مستمرة إلى الأبد؟ [هنا يستعرض كوهين كتاب من جزئين عن موشيه ديان للمؤلفة غليلا رون بيدر كمثال على ما سبق].

إن وجود كتب تطرح الأسئلة للبحث عن الطريق والتفكير وخلق الشعور بحيوية الحرب وحتمية وقوعها يحول دون تراكم التأثيرات السلبية التي تخلقها الكتب التي لا تطرح الأسئلة وتحول دون التفكير، وكثير الأطفال أكدت على وحشية العدو، وفعلت ذلك في خلق صور متطرفة للغاية للعدو.

إن المشكلة لا تكمن في طرح الحادث العابر بل في الحوادث المتراكمة، في الكتب يعتمد الطرح على القناعات الثابتة في وصف وحشية العرب وتعطشهم للدم ورغبتهم في اكتساب الغنائم، وأصبحت هذه الصفات من العلاقات المميزة للعرب عامة.

إن معظم كتب الأطفال التي تتحدث عن الحرب هي كتب سطحية للغاية

وتهدف إلى تلطيخ سمعة العرب والسخرية من جبنهم ومن أسلوبهم في القتال والإكثار من وصف وحشيتهم والإشارة بالمقاتلين اليهود بطولتهم وجرأتهم وحـيلهم وسـرعة بديهة الأطفال الإسرائيليين. "يستعرض كذلك هنا بعض الروايات التي تؤكد ما ذهب إليه".

عندما تصمت المدافع وتهدأ المعركة، يبدأ في التغلغل في النفس شعور يمقـت الحرب ويفكر ببناء الجسور بدلاً من نسفها، ويعود الشعور بالإنسان، لكن مؤلفي كتب الأطفال في إسرائيل لم يولوا أهمية واهتماماً بهذا الشعور نحو الإنسان.

لقد اتخذت كتب الأطفال الإسرائيلية موقف الاسـتعلاء اليهـودي والتخلـف العربي، فقد جاء في العديد من كتب الأطفال بأن العربي كعدو يجب محاربته، وأحياناً بدون اسم وبدون هوية شخصية، بل كعدو فحسب، فالعربي هو عدو ولا يوجد فـرق بين عربي وعربي.

لقد وجد الكثير من المؤلفين متعةً في وصف مباهاة الـضابط العـرب التـي سرعان ما تتحول إلى خوف وخنوع عندما يواجهون الاختبار، وسـوف لـن نجـد المجال الكافي لعرض عشرات الأمثلة للولد الإسرائيلي الخارق القوة الذي يهزم جميع الجيوش العربية والمجموعات السرية والشجعان والبحارة الذين يتمتعون بقوة خارقة وذكاء لا مثيل له، ويظهرون عجز القيادات العربية. لقـد أكـدت كتـب الأطفـال الإسرائيلية بأن المقاتل الإسرائيلي أفضل من المقاتل العربي، وأن الدبابة الإسرائيلية أفضل من عشر دبابات عربية، لقد ادعت هذه الكتب بأن العرب يتصرفون بوحشية، ليس نحو بني البشر فحسب، بل ونحو الحيوانات أيضاً، وصورت العرب بكل ما هو أسود ومروع وفظيع وعنيف، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: ألم تكن لحالة الحرب التي عاشها العرب تأثير على عنفهم ووحشيتهم؟ وهل تطرفهم تطرف نظري يفتقـر إلى الحقائق؟ وهل كان من الضروري والممكن والمستحب إخفاء جميـع الأعمـال المروعة التي وقعت وحوادث الاغتيال والقتل والحروب المدمرة؟

إن بين 520 كتاباً تمت دراستها وعثرنا فيها على وصف للعلاقات بين اليهود

والعرب وجدنا 26 كتاباً تحفل بحنين إلى الماضي البعيد، وتحـدثت عـن علاقـات صداقة بين جيل الآباء أو الأجداد وعن جلوس الجد فريدمان مع أبو صالح والتحدث عن الحرب السيئة، ولكن عندما أنتهي الحنين، خاض الأبناء والأحفاد حروباً جديدة.

إن أقوى رسالة للسلام لا تتحقق بالشعارات المفتعلة ولا تأتي كثمرة لوضع إيجـابي أو صورة إيجابية نستهويها، بل تتحقق بالرسالة التعليميـة التـي تختـرق حـواجز الأوضاع المريرة، إن تحطيم القوالب الجاهزة والقناعات الثابتة لا يتأتي عن طريـق خلق صورة كرتونية مضادة بل ربما بقوة تلك الكلمات المعدودة "إنني لا أكرههم".

لقد حاول بعض المؤلفين تخفيف حدة الخوف والمخاوف من اللقاء بين اليهود والعرب، وساروا في الطريق السهل المتضمن وصف الأعمال الخيرة التي يقوم بهـا العرب، وكثيرون منهم وصفوا الأولاد التائهين في الطريق الـذي يـصادفون فيـه مضرب خيام بدوي أو قرية عربية ويحصلون على معاملة ممتازة رغـم المخـاوف التي تتملكهم من الاتصال بالعرب، ولو أن كتب الأطفال الإسرائيلية اكتفت بعـرض وصف حقيقي للواقع وإبراز اللقاءات الإنسانية وبلورة قصة لا يكـون فيهـا اللقـاء مغتصباً أو يحمل صفة الإيجابي والسلبي لما كان هناك مجـال لازدهـار القناعـات الثابتة.

إننا لا نطالب بما هو إيجابي، بل بما هو إنساني، ولو تجرأنا علـى الـسؤال: لماذا جاء القالب الجاهز الإيجابي، بأي ثمن؟ هل هي ضريبة شفهية وكتعويض عن ضمير سيئ وتهدئة المخاوف ورغبة دفينة ورسالة تعليمية وآمال تتغلغل في القلوب؟ إنها كلها مجتمعة ولكن في هذه اللحظة لا نصادف الإنسان بل المخلوقات التي صنعها خيالنا ومخاوفنا أو رغباتنا الدفينة.

شجرة المعرفة.. جيدة وسيئة

إن مجموعة كبيرة من قصص الأطفال قد أظهرت نظرةً إنسانية وإيجابية نحو العرب، وحاولت إظهار علاقات حسن الجوار في الماضي والحاضر وتحطيم الحدود الوطنية والنظر نحو العربي كإنساني وليس كعدو مهدد ومخيف، وإظهار الرغبة في

السلام والكراهية نحو الحرب، ولكن كتباً قليلةً منها حاولت تجاوز العلاقة الإيجابيـة واللقاء الودي والعلاقات الموضوعية والإيجابية والغربة في التعايش جنباً إلى جنب، وليس مع بعض، إلى محاولة فهم العربي ومواجهة عالمه ومشاعره ومـشاكله فيمـا يتعلق "البلاد"، وليس النظر فقط إلى مظهره الخارجي وضيافته ومساعدته في الشدة.

إن من بين 520 كتاباً خضعت للدراسة وتضمنت وصفاً للعلاقات بين اليهود والعرب عثرنا على 40 كتاباً فقط تضمن محاولة لوصف واقعي ومنطقـي يتجـاوز الوصف الذي يعتمد على القناعات الثابتة والمعادلة، أما البقية الباقية من الكتب فقـد أبرزت التفوق اليهودي والتسامح اليهودي المتعالي نحو العرب.

إن المواد التي كتبها أولاد تشكل حافزاً هاماً للغاية لكتابة الأدبية لدى الأولاد الـذين يقرأون هذه المواد لأن هذا الإنتاج قد كتبه أولاد مثلهم. وعندما حللنا كتب الأطفـال التي وصفت الحروب التي خاضتها إسرائيل، أردنا أن نقرأ التوسل للسلام في أعـين القادة، وصية السلام التي كتبها القتلى، والرغبة في الـسلام مـن أفـواه مـشوهي الحروب، ولكن قصص الحروب ونشوة الانتصارات والإنجازات غطت على الصوت الإنساني وتغلبت عليه. إن تحليل الكثير من قصائد السلام قد أظهر بأن إسرائيل ضد جيرانها، وقصائد قليلة فقط تطرقت لذكر العرب عامة، وبدلا من ذلك، فقد بدا السلام من خلال تلك القصائد كشيء منشود ومأمول.

وينهي كوهين كتابه قائلاً: "إن من بين الأخطاء الرئيسة، أو نقاط الضعف التي ارتكبتها كتب الأطفال الإسرائيلية هي التركيز على عروبة العـرب، ولـيس علـى إنسانيتهم، على اعتبار أنها تمثل "القضية العربية"، وفعلت ذلك في أغلـب الأحيـان بشكل متطرف، ومشوه للحائق، للقد كان وصف العربي في كتب الأطفال الإسرائيلية وصفاً لشخصيات بدائية وغريبة وبعيدة عن العلم والمعرفة تستحق الإهانة والرفض، ولكنها في الواقع شخصيات إنسانية ومتسامحة تستحق التضامن معها وتتفهم قـضايا الآخرين وتمد يداً إنسانية للمساعدة.

في قلب الصورة الجماعية للعرب التي ترسمها لنا كتب الأطفال الإسـرائيلية

تترعرع أزهار جميلة، ولكن أشواكها كثيرة وكثيرة جداً، بينما الأزهار قابعة وسـط الأشواك التي تطوقها حتى عنقها".

الفصل الثـاني:
(أ) عسكرتاريا ا لتمع وإشكاليا تا

لا يوجد شبيه للمجتمع الإسرائيلي في لباسه ثوب العسكرية. هذا الأمر لا يقتصر فقط على أن جميع الإسرائيليين رجالاً ونساءً من القادرين على حمل السلاح (باستثناء مجموعات صغيرة من المتدينين الأصوليين) يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية، وأن إسرائيل تحولت فعلياً إلى مجتمع مسلح بحيث أن خدمة الاحتياط هي خدمة دورية دائمة، بل يتعدى ذلك في حقيقة أن إسرائيل كدولة لم تكن لتقوم لولا الاعتماد على القوة العسكرية. والاستيطان اليهودي على أرض فلسطين منذ الهجرات الأولى ترافق مع إنشاء ميليشيات وعصابات مسلحة لتكريس عملية الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وإقامة التجمعات اليهودية عليها كأمر واقع بقوة سلاح الإرهاب. فأنشأت منظمات مثل هاشومير (الحارس) والهاغاناة (الدفاع) والبلماح (القوات الصدامية) والأرغون (المنظمة العسكرية الوطنية) وليحي (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل). وقد ساعدت بريطانيا خلال وجودها الانتدابي في فلسطين المنظمات اليهودية في التدريب والتسليح.

وعلى خلاف ما هو دارج في السياسة الدولية حيث توضع الاستراتيجية الأمنية في خدمة السياسة الخارجية للدول، في إسرائيل يعتمدون العكس. وكما قال موشيه ديان الذي شغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش ووزير الدفاع "إسرائيل ليس لديها سياسة خارجية وغنما سياسة دفاعية فقط" (1) وإسرائيل التي ارتبط قيامها بإلحاق الضيم والظلم بالشعب الفلسطيني وبشعور الأمة العربية بالغبن والقهر، ترى أن وجودها في هذه المنطقة مرتبط باستمرار تفوقها العسكري ودوام حالة الردع التي تمنع العرب من القضاء عليها. ويمكن القول أن إسرائيل مستعدة دائمة لشن الحروب إذا ما شعرت أن هناك تآكلا في قدرتها الردعية أو في شعور العرب بهذه القدرة. والاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية قامت على مبدأ نقل الحروب إلى خارج إسرائيل والعمل على إنهائها بسرعة تجنباً لحروب طويلة الأمد أو الحروب استنزافية.

وقد جرت صياغة المفهوم العسكري الاستراتيجي في إسرائيل بناءً على المحـددات التالية:

-1القلة العددية الإسرائيلية بالقياس إلى القوة البشرية العربية، وهـو مـا لا يـسمح باستمرار التعبئة العسكرية الشاملة لفترة طويلة في إسرائيل.

-2صغر مساحة إسرائيل الجغرافية .

- 3إمكانية تدخل القوى الكبرى لوقف القتال قبل أن تتمكن إسرائيل من تحقيق أهدافها في الحرب .(2)

وتذرعت إسرائيل بصغر المساحة الممنوحة لها في قرار التقسيم للقيام بحروب عسكرية هدفها توسيع هذه المساحة والحصول على حدود "يمكن الدفاع عنها".وكـان رفض إسرائيل الدائم للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة يأتي في إطـار هـذا التبريد. والمؤسسة العسكرية كانت دائماً لا تريد التخلي عن أية قطعة أرض يجـري احتلالها بحكم أن الأراضي الإضافية المحتلة توفر ميزات أمنية لإسرائيل لا ينبغـي التخلي عنها إلا بعد ضمان عدم تعرض إسرائيل لأية مخاطر. وفي هذا السياق يجدر التذكير بأن الجيش الإسرائيلي عارض الانسحاب من سيناء حتى في إطـار اتفاقيـة كامب ديفيد، ولو اعتمد مناحيم بيغن على موقف المؤسسة العسكرية لما حصل الاتفاق أصلاً. وهذا تقريباً نفس المبرر في رفض قيام دولة فلسطينية غربي نهر الأردن على اعتبار أن هذه أن هذه الدولة ستكون تهديداً استراتيجياً خطيراً لدولة إسرائيل التي لا عمق لها، والتي تشرف عليها الضفة الغربية التـي تـتحكم بالـساحل الإسـرائيلي والمجتمع المركزي والكثيف لسكان إسرائيل. ولا شك أن بنـاء المـستوطنات فـي المناطق المحتلة يهدف إلى السيطرة على النقاط الاستراتيجية أمنياً، هذا بالطبع عـدا الاستمرار بالسيطرة على مخزون المياه الجوفية وتجزئـة الأراضـي الفلـسطينية ومواصلة التحكم بها، والقدرة على فصلها إلى جزر كما هو الحال في هذه المرحلة.

عُصاب جمعي يعطل التسوية

الرؤية الإسرائيلية للسلام كانت ولا تزال تقوم على تـسليم الفلـسطينيين والعـرب

بحاجات إسرائيل الأمنية. ويمكننا ملاحظة أن اتفاقية كامب ديفيد على سبيل المثـال تضمنت بنوداً مهمة تتعلق بمنع انتشار الجيش المصري شرقي قناة السويس ووضع قوات متعددة الجنسيات للإشراف على تنفيذ مصر لهذا الـشرط فـي حـين يـسمح لإسرائيل بأن تنشر ما تشاء من قوات في أي مكان في فلسطين.نفس الشيء ينطبـق على اتفاقية وادي عربة مع الأردن، حيث تمنع دخول أية جيوش عربية للأردن.

أما فيما يتعلق بالسلام مع الفلسطينيين فهناك إجماع إسرائيلي على رفض قيام دولة فلسطينية كاملة السيادة تمتلك جيشاً وتستطيع التصرف بحرية بمواردها بما فـي ذلك التحكم بحدودها ومجالها الجوي والبحري. صحيح أنهم في إسرائيل يقرون بمبدأ قيام الدولة الفلسطينية، وحتى أريئيل شارون رئيس الحكومة الحالي مـستعد للقبـول بذلك. ولكن هناك اشتراطات إسرائيلية كثيرة تفقد هـذه الدولـة المعنـى الحقيقـي للاستقلال، حيث يتعدى الأمر مسألة تسليح الدولة،إلى تقييد حتى اتصالاتها ومعاهداتها مع دول أخرى. كل هذا يجرى في إطار الحرص على أمن إسرائيل وعدم القبول بأن تكون هذه الدولة تهديداً لها. بالنظر لقربها الجغرافي أو بالأحرى تدخلها الجغرافي مع الدولة العبرية. لهذا حرص رؤساء الحكومات الإسـرائيلية الـذين تفاوضـوا مـع الفلسطينيين على إشراك الجيش في تحديد بعض بنود الاتفاقات، وخاصة تلك المتعلقة بالمسائل الأمنية، وهي بالمناسبة كثيرة وتكاد تطال كل شئ.

ولم تتغير العقلية الأمنية الإسرائيلية حتى في ظل الاتفاقات مع الدول العربيـة ومع م.ف.ت.ف. واستمرت إجراءات الاحتلال الأمنية التي عطلت تنفيذ قسم كبيـر من الاتفاقات، وامتنعت إسرائيل عن مواصلة الانسحابات، وتواصل إغلاق المنـاطق إغلاق المناطق الفلسطينية، وتأخر كثيراً افتتاح الممر الآمن الجنوبي فـي حـين أن الشمالي لم يفتتح خلافاً لما تنص عليه اتفاقية المرحلة الانتقالية، وعقدت الإجراءات والتقييدات الأمنية استخدام هذا الممر إلى درجة أنه لم يعد أمناً للفلـسطينيين وكـان واضحاً أن القيادات الأمنية الإسرائيلية ليست معنية بحـدوث انفـراج حقيقـي فـي الأوضاع ويمكن أن يقود إلى سلام حقيقي.

وشكل اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية مناسبة جيدة للجيش الإسرائيلي ليستعد مكانته في المجتمع والحياة الإسرائيلية، خصوصاً وأنها جاءت بعد أن قامت إسرائيل بالانسحاب من طرف واحد من جنوب لبنان فيما اعتبر أنه هزيمة عسكرية إسرائيلية، بعد فشل الجيش الإسرائيلي في مواجهة عمليات المقاومة اللبنانية وفي منع صواريخ الكاتيوشا من الوصول إلى التجمعات اليهودية في الشمال. وهذا يفسر نقل القوات الخاصة التي عملت في لبنان وتسمى "أغوز" إلى المناطق الفلسطينية. فهذه القوات المهزومة عليها أن تنتصر على الفلسطينيين وترد الاعتبار لنفسها، وهذا ينطبق على وحدات الجيش الأخرى. كما أنه يفسر القسوة المبالغ فيها التي استخدمها الجيش ضد المتظاهرين الفلسطينيين منذ الأيام الأولى للانتفاضة وسقوط هذا العدد الكبير من الشهداء والجرحى الفلسطينيين. وأيضاً أعمال التجريف والتدمير واقتلاع الأشجار ، واستخدام الطائرات والدبابات والبوارج الحربية في قصف الأهداف المدنية وفي أعمال تصفية النشطاء والقادة الميدانيين.

تطرف قيادات الجيش

عدا عن رد الاعتبار للجيش بعد الهزيمة التي مني بها في لبنان، هناك أسباب عديدة تفسر لماذا يبدو الجيش الإسرائيلي متطرفاً أكثر من المستوى السياسي أحياناً. من بين هذه الأسباب الحصول على مكانة لا تقل عن مستوى مكانة السياسيين من الصف الأول. يعلم قادة الجيش أنه في حالة الحرب فقط ينتبه الناس إلى ما يقولون ويفعلون. لذا فإن لهم مصلحة في اندلاع حروب ينتصرون فيها وتستمر لفترة لا تمحى بسرعة من أذهان الجمهور. وبالنسبة للجيش فالانتفاضة الفلسطينية تعتبر مثالية كي يكون فيها للقيادات العسكرية وزناً يعادل وربما يفوق السياسيين فاجتماعات الحكومة ولجان الكنيست ولجان الكنيست ووسائل الإعلام تعتمد كلها على التقديرات الصادرة عن المستوى العسكري والتي تفسر الوضع القائم واحتمالات المستقبل وسبب آخر للتطرق هذا يكمن في مواقف قيادات الجيش السياسية. معروف عن رئيس هيئة الأركان الحال، شاؤول موفاز، ونائبه موشي يعلون ومسؤولي شعبة الاستخبارات في

الجيش، عاموس مالكا وعاموس غلعاد، أنهم يمينيون في توجهاته الـسياسية، ونفـس الموقف يتخذه قائد سلاح الجو دان حلوتس. وهؤلاء يحاولون الحصول على الحظوة لدى الأحزاب اليمينية التي قد ينضمون إلى قيادتها بعد خروجهم من الجيش.

وهناك سبب إضافي يتعلق بمحاولة ابتزاز الميزانيات من الحكومة. في البداية تحدثوا في الجيش عن احتمال أن تمتد المواجهات مع الفلسطينيين إلى عام وأن هناك إمكانية لاشتعال الجبهة اللبنانية، وإمكانية التصعيد إلى حرب أوسع. وعليه فإن هيئـة الأركان قررت تكثيف النشاطات الضرورية لاستكمال الفجـوات فـي الاحتيـاطي الحرب. ويقدر الجيش تكلفة هذه الاستعدادات بنصف مليار شيكل وتكلفـة العمليـات الميدانية في العام القادم بمليار شيكل. (3) بعد ذلك طالب الجيش بمبلغ 3.8 مليـار شيكل ميزانية إضافية لعام 2001. وقد صادقت الحكومة على إضافة مبلغ 2 مليـار شيكل للجيش بعدما أشاع أجواء الحرب وبعد أن قرر رئيس هيئة الأركان الاسـتعداد لحرب شاملة. ولم يكتف رئيس هيئة الأركان بهذا المبلغ على اعتبـار أن "العـلاوة المصادق عليها لا تكفي ولا تستجيب لمتطلبات تصعيد الوضع".(4)

وقدر الجيش تكلفة اليوم الواحد للقتال في المناطق الفلسطينية بمليـون شـيكل وطالب الجيش بميزانية فورية إضافية تبلغ نصف مليار شيكل. بعد ذلك طلب الجيش 3 مليار شيكل. وأعرب رئيس شعبة الاستخبارات عاموس مالكا، في لقائه بأعـضاء لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، أن "الإرهاب سيزداد في الفترة القريبة. وعليه تطلب الأجهزة الأمنية 2 مليار شيكل إضافي لمواجهة الوضع ولـضمان اسـتمرار أدائها السليم" .(5)

وأخير توقعت التقديرات العسكرية الإسرائيلية أن تستمر المواجهة حتى عـام 2006 وقد وضعت شعبة الاستخبارات خطة لبنـاء القـوة العـسكرية الإسـرائيلية المطلوبة في السنوات الخمس القادمة. بمعنى أن التقديرات مرتبطة بالميزانيات التـي يحتاجها الجيش لتنفيذ خططه أكثر من ارتباطها بمجريات الأمور على الأرض. حيث من الصعب توقع استمرار الانتفاضة والمواجهات لهذه الفترة الطويلـة مـن الـزمن

خصوصاً وأنه ستجرى انتخابات في إسرائيل وقد تتغير الحكومة وتستبدل بحكومـة أخرى تنتهج سياسة أخرى، أو ربما تحدث تدخلات دولية توقف التدهور في الوضع في هذه المنطقة... الخ.

تبدى تطرف قيادات الجيش ليس فقط في التقديرات التشاؤمية بشأن اسـتمرار المواجهة لفترة طويلة واحتمال حدوث حروب تمتد إلى خارج فلسطين، بل أيضاً في المواقف التي تصدر عنها بشأن بعض القضايا المتعلقة بالاتفاقات. على سبيل المثال، رفض رئيس هيئة الأركان شاؤول موفاز الحل الوسـط الـذي تقـدم بـه الـرئيس الأمريكي بيل كلينتون بشأن التسوية النهائية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية. وقـال موفاز إن إن "المقترحات الأمريكية بها عيوب كثيرة. فالتنـازل عـن غـور الأردن سيمس بقدرة الجيش في الدفاع عن العمق الاستراتيجي لدولة إسرائيل وبقدرته على مواجهة المخاطر من الشرق. كذلك تسليم مناطق في حلوتسا سيمس بقدرة سلاح الجو في التدريب، والخطة المقترحة ستحول أحياء يهودية في القدس إلى جيوب في منطقة فلسطينية يصعب الدفاع عنها".(6)

وقدم الجيش رده على مقترحات كلينتون في إطار وثيقة طرحها موفـاز فـي اجتماع لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست وتضمنت البنود التالية:

-تعديل حجم المنطقة التي ستسلم للفلسطينيين وخلق مناطق فاصلة تمنع فيها حركـة الجنود الفلسطينيين المسلحين.

سيطرة إسرائيلية كاملة على المعابر بهدف مراقبة إمكانية إدخال وسائل قتاليـة إلـى مناطق الدولة الفلسطينية وفرض تجريدها من السلاح.

من الأفضل أن يكون الغور بكامله تحت السيادة الإسرائيلية، وإذا لم يكن ذلك ممكنا لاعتبارات سياسية فإن الأمر يتطلب سيطرة على الأقل في المناطق أساسية من الغور لاعتبارات سياسية فإن الأمر يتطلب سيطرة على الأقل في مناطق أساسية من الغور. ثمة أهمية تنفيذية واستخبارية لأن تكون السيطرة على المجال الجوي للمناطق بأيدينا

.

موضوع مكافحة الإرهاب لا يظهر في اقتراح كلينتون من الأفضل تقنين ذلك في اتفاق.

يجب تحديد تدرج في الجدول الزمني ومن الأفضل تمديد فترة تنفيذ الاتفاق واشتراطه بالوضع الأمني والإقليمي.

يجب منح الأمريكيين دوراً قيادياً في القوت الدولية ووصف دور القوات في موضوع التجريد من السلاح.

يجب الأخذ بعين الاعتبار كل العبر التي استخلصت منذ بدء الانتفاضة مثل عدم إفشال السلطة الفلسطينية للعمليات وغياب التعاون الأمني وغير ذلك.(7)

هذا الموقف يشبه تماماً موفاز من معارضة الانسحاب من جنوب لبنان، وموقف الجيش من معارضة الانسحاب من سيناء. وعلى غرار ما صرح به ضابط المدرعات الرئيس العميد أودي شيني بأن إقامة الدولة الفلسطينية لن تهدئ الوضع في المناطق وإن ثمة ضرورة للسيطرة العسكرية على الأراضي الفلسطينية.

وقال شيني إن "سيطرة الجيش على الأملاك والأراضي الفلسطينية من أجل أن يأتي عرفات إلى المفاوضات القادمة من موقع المتراجع"(8) أما نائب رئيس هيئة الأركان موشي يعلون فقد صرح إن "المعركة التي تدور اليوم هي الأهم منذ حرب الاستقلال"(9) ويعتقد العميد(احتياط) آفي ايتام بأن "على إسرائيل أن تمس مباشر بالقادة الفلسطينيين على اعتبار أنهم هدف شرعي".(10) من ناحية أخرى عارض رئيس الأركان موفاز ونائبه يعلون استئناف المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية بدون وقف إطلاق النار. واعتبر قرار بارك باستئناف المفاوضات بدون وقف النار من جانب الفلسطينيين بمثابة جائزة للعنف وخطوة من شأنها تشجيع الفلسطينيين على مواصلة القتال وتشجيع حزب ا وسورية أيضاً.(11)

وبلغ التطرف في الجيش الإسرائيلي حداً يجعل قائد كتيبة مدرعات (العميد يوآب غلانت) يصف الفلسطينيين بـ"الكلاب" والسلطة بـ"أصحابه الذين لا يستطيعون السيطرة عليه".(12) وإلى درجة تجعل قائد الكليات في الجيش اللواء يعقوب عميدور

يطلب من إسرائيل عدم شطب مصطلح "حرب الخيار" من قاموسها. وقال أن الحرب هي أمر سيئ جداً ولكن في بعض الأحيان يكون لا مناص منها.

ويرى يعلون أن الانتفاضة تصعيد مخطط وموجـه. والفلـسطينيون ينـوون تصعيد الوضع على الأرض رداً على الانتخابات في إسرائيل (بعد فـوز شـارون). (13) وفي مناسبة أخرى قال يعلون إن "الاتفاق مع الفلسطينيين لن يؤدي إلى وقف أو إنهاء النزاع. وأي اتفاق يوقع، يعني فقط وقفاً مؤقتاً"(14) ويضيف نائب رئيس هيئـة الأركان "إن الجيش لم يستخدم كل خطه التي أعدها للرد على التصعيد في المواجهـة مع الفلسطينيين" و"من خلال معرفتنا للقدرات العسكرية فإن المواجهة تحتاج إلـى رد مختلط سياسي – عسكري – اقتصادي – إعلامي ودبلوماسي"... وإن" العنـف مـن جانب الفلسطينيين هو نتاج قرار مبادر اتخذه رئيس السلطة الفلسطينية عرفـات وإن الفلسطينيين محبطون من عدم قدرتهم على كـسر معنويـات المجتمـع الإسـرائيلي بواسطة العنف".(15)

رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية عاموس مالكا ركز على أن الرئيس ياسر عرفات يمثل المشكلة وأن إعلانه عن وقف النار هو " خطوة تكتيكية" وأنه يحمل قنبلة في يده حيث يشكل لعبة بالمتفجرات تهديداً لاستقرار المنطقة وللاستقرار الداخلي في جزء من الدول المجاورة. وهو يمتنع عن عمد عن معالجة مشكلة "الإرهاب" بصورة جذرية. وستخدم الإرهاب كوسيلة مركزية للتحقيق أهدافه.(16) وصرح مالكا في لقاء مع أعضاء لجنة والأمن أ، "عرفات يستخدم كل المناورات الممكنة من أجـل عـدم التوصل إلى وقف إطلاق نار مطلق إذا لم يضمن مقابل ذلك تحديد جدول زمني للحل الدائم. وهو يلعب بحجم اللهيب".(17)

وصرح مسؤول في جهاز الأمن أن "عرفات مرتاح من اسـتمرار العمليـات وإراقة الدماء". (18) ويوصي مصدر أمني بإزاحة ياسر عرفات وهذا جاء في وثيقة أمنية تحت عنوان "عرفات: ذخر أم عبء" ونصت على أن " عرفات هو زعيم غير صادق خائن وخطير" وهو "كاذب مزمن" وجاء في الوثيقة أيضاً أن عرفات هو "فنان

في الدعاية والإعلام". وبعد اختفائه سينشب صراع شديد في السلطة الفلسطينية حول السيطرة بين أوساط أمنية علمانية وبين أوساط إسلامية أصولية، وسيشغل الـصراع الفلسطينيين بشؤونهم الداخلية لفترة طويلة. وتعتقد الوثيقة أن الأوساط المنية العلمانية ستنتصر بفضل قوتها العسكرية وستركز على ضمان سلطتها.(19)

ومن جانبه رئيس هيئة الأركان تدرج في مواقفه اليمينية المتطرفة إلـى حـد وصف السلطة الفلسطينية بكيان إرهابي. (20) وعندما تم سؤاله في المجلس الوزاري المصغر عن إمكانية ابتداع اختراع جديد في مواجهة إطلاق قذائف الراجمـات فـي غزة، رد بأن الفلسطينيين لا يتأثرون من المروحيات لهذا سيرتهم شدة قبضة سـلاح الجو الإسرائيلي (المقصود استخدام طائرات أف 16 الحربية).(21) وأكد موفـاز أن أغلبية الأجهزة الأمنية في السلطة متورطة في "الإرهاب" وأن وقف إطلاق النار الذي أعلنته السلطة هو مسرحية فلسطينية، وأن "الإرهاب والعنف مستمران".(22)

وقال موفاز إن "ثمة يداً واحدة توجه تنفيذ العنف والإرهاب ضد إسرائيل" وإن "الصورة واضحة جداً، وهناك قرار استراتيجي فـي الـسلطة الفلـسطينية بـإحراز الأهداف الوطنية عن طريق الإرهاب والعنف إلى درجة أننا نشعر في الأيام الأخيرة بالتصعيد من أجل تدويل الصراع في المنطقة". (23) ويكفي موفاز فخراً أنه أصـبح عضواً في القائمة السوداء التي تعدها المنظمة العالمية "صحفيون بلا حدود" مع مـن يوصفون بأعداء الصحافة نظراً لأن جيش الاحتلال قام بجرح 30 صحفياً معظمهـم مصورين خلال السنة الماضية.

تدخل الجيش في السياسة

تقترن معظم التقديرات التي تصدر عن شخصيات الجيش برؤيـة أصـحابها السياسية. الأمور في الجيش الإسرائيلي لم تعد تقتصر على المهنية البعيدة عن كـل تأثر بالسياسة وفق عقيدة الجيش. تسييس الجيش جاء نتيجة طبيعية للرؤية الإسرائيلية العامة في تحديد أولويات الاستراتيجية. ولما كان الأمن هو الوسيلة وهو الهدف فمن

الطبيعي أن يلعب رجال الأمن دوراً سياسياً بارزاً. وقد تجلى هذا الدور في الـسابق ولكن برز بوضوح خلال المفاوضات السياسية خاصة عندما كان آمنون شاحك رئيساً للأركان. كان مطلوباً من الجيش المشاركة في المفاوضات وتحديد وجهة نظره مـن الاتفاقات ومن زواياها الكثيرة. وكان واضحاً أن شاؤول موفاز يتبنى وجهـة نظـر سياسية يمينية وعارض موقف غهود بارك الذي لم يمنحه الحرية اللازمة لعمل مـا يراه مناسباً ضد الفلسطينيين لأن الأخير محكوم باعتبارات سياسية تقتـضيها. كمـا عارض موفاز المفاوضات مع الفلسطينيين دون أن يتوقف إطلاق النار تماماً. وفـي عهد شارون شعر موفاز بالراحة لتوافق الآراء بينه وبين شارون ليس فقط من مسألة استئناف المفاوضات ولكن أيضاً من إطلاق يد الجيش في استخدام المزيد من العنف والإجراءات القمعية والعدوانية ضد الفلسطينيين.

تدخل الجيش في السياسة تبدى من خلال إصدار الجيش كتاب "أبـيض" ضـد الرئيس عرفات وقادة السلطة، يتحدث عن الفساد وعن دور السلطة فـي التحـريض ضد إسرائيل وعن العمليات الفلسطينية ضد الإسرائيليين وغير ذلك.

وقد تحفظ وزير الخارجية شمعون بيرس من هذا الكتاب. وجاء مـن مكتـب وزارة الخارجية أن" وظيفة الجيش هي الدفاع عن الدولة وليس الانشغال في كتابـة كتب أو مهام إعلامية".(24)

وقام الجيش بترويج "قاموس مصطلحات" بين أوساط الدعاية في إسرائيل ومن المصطلحات القديمة التي استبدلت بجديدة. مصطلح "الانتفاضة" استبدل بـ "مواجهـة مسلحة". وكلمة "إغلاق" أصبحت "منع الدخول إلى إسرائيل".
و"إطلاق نار ردعي" مقابلة "إطلاق نار تحذيري". و"عمليات انتقام وعقاب" أصبحت " خطوات أمنية و"التصفية". عمليات إحباط موضعية"... الخ. كما اقترح الجيش علـى الحكومة تسهيلات ضريبة للمستوطنين على ضوء الوضع الأمني الصعب. (25)

الكاتبة الصحفية ياعيل باز ملميد قالت في مقال لها (معـاريف 3/4/2001) إن رئيس هيئة الأركان فضل شارون على باراك وإنه كشف عن مواقفـه الـسياسية

بصورة مخالفة للعادة والعرف السائد في الجيش في مقابلة تلفزيونية حيث تحدث عن أنه يعمل بصورة أفضل في "مكافحة الإرهاب" في عهد شارون أكثر مما كـان فـي حكومات سابقة لأنه توجد مفاوضات... وتضيف ياعيل بأنه حين يصف رئيس هيئـة الأركان السلطة الفلسطينية بأنها كيان إرهاب فهذا تصريح سياسي ينطوي على أبعاد عملية. وكذلك فإن موقفه من تقديرات باراك بشأن احتمال حـدوث حـرب شـاملة واتهامه إياها بأنها جاءت لخدمة اعتبارات انتخابية. يعبـر عـن موقـف سياسـي وحزبي.(26)

نفس الموقف تحدث عنه الصحفي عكيفا الدار الذي قال إن تحذير موفاز بـأن "أفكار كلينتون تهدد أمن إسرائيل الوطني (للتذكير – رئيس هيئة الأركان مـسؤول عن الأمن العسكري. أما الأمن الوطني فليس من ضمن صـلاحياته) رئـيس هيئـة الأركان كان الشخص الذي ادعى أن الاعتبارات السياسية تدفع إلى خسارة عدد كبير من المصابين. وقال بأنه لا شروط للتسوية الدائمة، وممثلوه قـاتلوا حتـى اللحظـة الأخيرة ضد الانسحاب. أنه يتمارج بشكل مدهش مع استراتيجية رئيس الحكومة كل واحد منهما يقوم بدوره في الحرب ضد ما تبقى من السلطة الفلسطينية".(27).

كما أن موفاز تحدي المستوى السياسي عندما قرر الجيش أن ينفذ خطة توسيع الحكومة وعندما كان رئيس الحكومة في زيارة لروسيا مما اضطر رئيس الحكومـة شارون للتذكير بأن هناك حكومة وهي وحدها صاحبة القرار وبالتـالي قـام بإلغـاء خطوة موفاز والجيش. وكذلك قام موفاز بانتقاد الحومة علانية عندما عارض قـرار المجلس الوزاري بإخلاء حي أبو سنينة في الخليل، قام الناطق باسم الجيش بإصـدار بيان يؤكد أن هذه الخطوة تمنع الجيش من حماية أمن المستوطنين في الخليل. وتعقيباً على هذه الحادثة التي استدعت وزير الدفاع لتوبيخ موفاز وتذكيره بأن الحكومة هـي المسؤولة عن الأمن، قال عكيفا الدار عندما عين رئيس الأركان أكد للجميـع أهميـة إبعاد الجيش عن السياسة. ومن المحتم أن يكون موفاز مؤمنا حقا بأن احتجاج جـيش الدفاع العلني على الانسحاب من تل أبو سنينة هو مسألة عـسكرية وليـست مـسألة

مخصصة للسياسيين ... كان بإمكان شارون أن يعلم موفاز درسـاً أو اثنـين فـي تسييس السياسيين، وكان بإمكان باراك أن يضم إلى مجموعة الأوسمة التي يحملهـا وسام إدخال السياسة للجيش. إلا أن المشكلة الحقيقية مع موفاز ليست في الأمور التي يقولها بل في الأمور التي يفعلها والجعبة التي ثارت بعد هجومه الأخير على الحكومة إفادته كثيراً، ولا غرابة إذا في أن المستوطنين ووزير الترحيل وقفوا إلى يمينه. قبل اندلاع الانتفاضة بأشهر كثيرة فعل المستوطنون في المناطق الخاضعة لموفاز كل ما يحلو لهم. فقد اقتحموا أراض فلسطينية أمام سمع وبصر الجيش وبحمايتـه اقتلعـوا الأشجار وأخافوا الرعاة. وموفاز يفاخر بشكل خاص لأنه توقع انـدلاع الانتفاضـة سلفاً وأصر على أن تقوم الحكومة بتزويده بميزانية خاصة لحمايـة المنـشآت فـي المناطق. (28)

وقد أعلن موفاز أن هدف العمليات العسكرية في المنـاطق الفلـسطينية هـو التلويح للسلطة الفلسطينية وعدم التسبب في انهيارها. وقد انتقده وزير الدفاع بنيامين بن اليعيزر على هذه الأقوال ودعاه إلى عدم "الحديث بالشعارات".(290

وحول انشغال الجيش بالسياسة كتب المستشرق غاي بخور أنه "يوماً نقرأ في الصحف عن تقديرات شعبة الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي حول مكانة عرفات كشريك وبشأن جدوى أو عدم جدوى استمرار المحادثات معه، بشأن ضرب أو الامتناع عن ضرب السلطة الفلسطينية. ومن المشكوك فيه أن يكون لدى الجـيش تفويض للانشغال بالمسائل السياسة من هذا القبيل. ولكن في كل الأحـوال يطـرح الجيش نظرية واضحة: عرفات هو الذي بادر إلى موجة الاضطرابات، وهو يسيطر عليها سيطرة كاملة وبكبسة زر يمكنه أن يوقفها، بل إن نائب رئيس الأركان اللـواء يعلون ينظر باحتقار ظاهر إلى كل من يعتقد خلاف ذلك".(30)

ويقول ايتان هابر (مدير مكتب رابين): "يتضح أكثر فـأكثر أن التقـديرات والمـواد الاستخبارية للجيش الإسرائيلي هي المستند للقيادة السياسية ووفقاً لها يقدم كل قرارات للقيادات المدنية. وتكاد تكون هيئة الأركان قد سيطرت على الحكومـة ومنـدوبوها

يوجهون الصحافة ويظهرون كل مساء أمام عدسات التلفاز وكأنهم انتخبوا من شعب إسرائيل، ويقول الوزراء بأن "الورقة اليومية" لشعبة الاستخبارات هي قناة المعلومات للمعطيات وأساس القرارات أيضاً... على شارون أن يكون قلقاً بعض الشيء من العقلية السائدة اليوم في هيئة الأركان في محاولة لإيجاد صوت شاذ في جوقة الجنرالات".(31) ويضيف مئير شتيغلتس إلى سابقيه أن "جهاز الأمن لا يؤمن بالحلول السياسية للتهديدات الاستراتيجية. هكذا كان في عهد بيغن. لحسن حظنا آمن بيغن بالسلام ونجحن مع بعض المساعدة من وزير دفاع سابق، في صنع هيئة الأركان من تصفية التسوية السياسية باسم الأمن. أما أوسلو فلم يحالفه مثل هذا الحظ التاريخي، ولا تبدو في الأفق أية جهة يمكنها أن تمنع موفاز وحلوتس ويعلون وأشباههم من أن يضيفوا إلى وليمة الحمام المشوي وجبة كبرى من القتال الذي لا مفر منه. (32)

ويتحدث وزراء في المجلس الوزاري عن أ،هم يجدون أنفسهم مسؤولين عن عمليات للجيش الإسرائيلي رغم أنهم لم يتلقوا تقريراً مسبقاً ولم يجر حولها بحث معمق. وأحياناً كثيرة يضطرون إلى الاطلاع على تفاصيل العملية من الصحافة.(33) ومن ناحية أخرى قال رئيس الشاباك السابق عامي أيلون إن "الوسط العسكري يمارس الضغط على المستوى السياسي ويضعفه". وانتقد أيلون الطريقة التي يفهم بها الجيش الأحداث في الساحة الفلسطينية. وحسب رأيه يركز ضباط الجيش أكثر من اللازم على الاستخبارات السرية بدون الانتباه إلى النشرات العلنية. وقال إنهم لا يقرأون في الصحف الفلسطينية من مقالات وأبحاث أكاديميين فلسطينيين وقصائد وهم لا يعرفون المجتمع الفلسطيني.(34)

تدخل الجيش في السياسة حصل أكثر في عهد شارون لأنه منح الجيش حرية تصرف. وقد أكد شارون مراراً أن "للجيش حرية عمل مطلقة وقد أزيلت كل القيود. ثمة للجيش حرية عمل واسعة جداً أكثر من أي تصور. ليس ثمة قيد"(35) غير أن هذه الحرية لا يريدها الجيش بهذه الصورة خوفاً من تحمل المسؤولية. أنه يريد حرية

التصرف عندما تشاء قيادته ذلك بما في ذلك التدخل في الأمور الـسياسية. وللتـأثير على المستوى السياسي عمد الجيش إلى الكذب في بعض الحالات كما حصل عنـدما أطلقت قذيفة مدفعية على خيمة وقتلت ثلاث نساء فلسطينيات في منطقة غزة. وحـين استجوب أحد الضباط الكبار في لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست حـول نـوع القذيفة التي أطلقت لم يقل الصحيح. بينما قال النائبان يوسي سريد وران كوهن مـن ميرتس أن القذيفة من نوع "فلاشت" وتحتوي على 5000 سهماً فولاذيا صغيراً تنتشر في دائرة واسعة في مكان الانفجار. وقد قال الضابط المذكور أنها قذيفة مـن نـوع "ماينخ"، وعاد الجيش واعترف بأن الضابط أدلى بتقرير كاذب.(36)

والجيش يضع الخطط التي تبدو في ظاهرها عسكرية ولكنها في الواقع سياسية مثل خطة فصل المناطق الفلسطينية بعضها عن بعض في ما يقرب مـن60 وحـدة، وكذلك خطة خلق منطقة عازلة شرقي الخط الأخضر. وهذه الخطط وغيرها تفرض وقائع سياسية وتؤثر على المفاوضات والأوضاع الجيوسياسية في المنطقة.

تقديرات أمنية في خدمة أهداف الجيش

منذ بداية الانتفاضة صدرت تقديرات أمنية متناقضة عـن الجهـات الأمنيـة المختلفة وبالذات عن الجيش ممثلاً في شعبة الاستخبارات العـسكرية وبـين جهـاز الشاباك. حيث أن شعبة الاستخبارات أكدت في كل تقديراتها على أن ياسر عرفات " يسيطر على حجم اللهيب"، وهو الذي يوفر الدعم للمنظمات المختلفة للقيام بعمليـات. وهو يتحكم في الوضع تماماً ويستطيع السيطرة على كل مجريات الأمور بما في ذلك وقف "العنف". أما في جهاز الشاباك فيتحدثون عن أن عرفات "فوجئ من الانتفاضة وحاول السيطرة عليها، ثم انضم إليها عندما أدرك الأحداث أكبر من قدرته. ويـسود الاعتقاد في أوسط الشاباك بأن عرفات لا يسيطر على النيران. إنه سيدفع الثمن مـن أجل وقف العنف، وفي هذه الأثناء لا يفعل شيئاً". وهو "لا يسيطر على ما يجري على الأرض ولا يعلم بالتفاصيل". وفي شعبة الاستخبارات يجمعون ما يعتبرونه أدلة على تورط الأجهزة الفلسطينية فيما يسمونه "العنف والإرهاب" وهذا يؤكد مسؤولية الرئيس

عرفات عما يحدث وقدرته على ضبط الأمور.(37)

مع ذلك يقول ضابط كبير في الجيش "عملياً علينا الاعتراف بأننا لم نحل لغز كيف تجري عملية توزيع المهام وسط القيادة الفلسطينية أثناء المواجهة ليس لدينا معلومات ثابتة تؤكد، بهذا القدر أو ذاك، درجة عمق تدخل عرفات نفسه في الإرهاب".(38) وهناك تقديرات تقول إن السلطة تنهار في حين تقول تقديرات أخرى إن السلطة ليست على وشك الانهيار.

آخر تقديرات شعبة الاستخبارات العسكرية التي نطق بها عاموس مالكا تقول إن "عرفات بقي رمزاً ولكنه كزعيم يفقد فعاليته. ويتحدث مالكا عن وجود انتقادات كثيرة لعرفات في الأوسط المقربة منه، وأن اللحظة التي يفقد فيها عرفات زمام الأمور في السلطة باتت قريبة. وهذا التقدير معاكس تماماً للخط الذي دأبت الاستخبارات العسكرية على التمسك به وهو تحكم عرفات المطلق بما يجري داخل مناطق السلطة. ويذهب مالكا بعيداً في تقديراته عندما يحدد أن خليفة عرفات هو أحد قادة الأجهزة الأمنية الثلاثة وهم محمد دحلان وجبريل الرجوب وأمين الهندي. ويقول رئيس قسم التخطيط في الجيش اللواء عاموس غلعاد أن جهاز الدفاع يجمع على أن إسرائيل لا تستطيع التوصل إلى التوصل إلى تسوية سياسية تنهي الصراع مع عرفات. فيما يكرر موفاز الادعاء بأن استراتيجية عرفات كانت ولا تزال طريق الإرهاب.

ويتحدث الكاتب الصحفي عوفر شيلح عن الازدحام الاستخباري في المناطق الفلسطينية حيث يوجد الشاباك والموساد وأمان. ولكن هذه الأطراف التي تتولى جمع المعلومات تنقسم على نفسها مثل الأسود والأبيض في إحدى القضايا الأساسية جداً: سيطرة عرفات في مناطق السلطة وبالتالي قدرته على تحريك الأحداث والإشراف عليها ووقفها.

القائد يستطيع الاستنتاج من كل جواب استنتاجات متناقصة (عرفات يسيطر إذا هو المسؤول عن الاضطرابات ولذاك ليس شريكا. أو يمكن القول إن سيطرته هذه

تحديداً تجعله الشريك الممكن الوحيد، ونفس الشيء ينطبق في الحالة المعاكسة) وهذا حقه الكامل. ولكن عندما لا يكون لدى القائد الإسرائيلي حتى جواب متفق عليه حول مثل هذه المسألة الأساسية فعلى أي أساس يمكنه أن يقرر؟(39)

وهناك من يخشى انهيار السلطة الفلسطينية على اعتبار أن هذا سيؤدي إلى فوضى في المنطقة، وتصعيد فوري في الوضع الأمني. وحسب تقرير أمني قدم للمستوى السياسي فإن هناك عدة سيناريوهات لتطورات الأوضاع في المنطقة: السيناريو الأخضر الذي بموجبه يحل الهدوء ويتحسن الوضع الأمني من خلال استئناف المفاوضات السياسية، والسيناريو الرمادي الذي يستمر فيه العنف بصورة متواصلة. و"المسار الأحمر" الذي تنهار فيه السلطة الفلسطينية ويهرب عرفات من المنطقة. حسب التقارير فإن عرفات يعيش ضائقة صعبة وبمعنويات متدنية جداً. واستنتاج جهاز الأمن في هذه المرحلة هو أنه يجب اتخاذ خطوات لتعزيز مكانة عرفات وعدم المس بقاعدة وجود السلطة الفلسطينية وبعرفات نفسه.(40)

الخلاصة

واضح أن هناك ارتباكاً في الرؤية الأمنية الإسرائيلية للوضع على الجبهة الفلسطينية. ومع أن هناك اتفاقاً على محاربة السلطة الفلسطينية والاستمرار في العدوان على الشعب والأرض الفلسطينية. إلا أن لا أحد في إسرائيل يستطيع التنبوء متى يمكن أن تنتهي المواجهة. والقناعة الإسرائيلية الراسخة الآن هي أنه لا يوجد حل عسكري للصراع وأن كافة أشكال الضغوط والممارسات الإجرامية الإسرائيلية لا يمكنها أن تخلق لدى الفلسطينيين من يخضع ويتنازل تحت الضغط.

الجيش الإسرائيلي يحقق نجاحات في عمليات تصفية المطلوبين وفي أعمال هدم البيوت وتجريف الأراضي الزراعية واقتحام المدن والقرى والمخيمات ومواصلة القصف والحصار والعزل والفصل، ولكنه لم يستطع أن يرفع من الروح المعنوية للإسرائيليين الذين يعانون من ضائقة لا تقل عن ضائقة الفلسطينيين بل هي أكبر نسبياً بالنظر إلى أن الفلسطينيين تعودوا احتمال المعاناة، بينما الإسرائيليون لا يمكنهم

التفكير في وضع كما يسميه شارون "حالة طوارئ أمنية واقتصادية".

ولم تستطع إجراءات الجيش وكل أدواته ومعداته الخفيـة والثقيلـة أن تمـنح الإسرائيليين الأمن الذي يعتبر البقرة المقدسة ليهود إسرائيل.

هذا بالطبع عدا عن الآثار النفسية التي تترتب على الأفعال العدوانيـة علـى جنود الجيش أنفسهم. فهناك دلائل على ازدياد حالات الانتحار في الجيش بعد اندلاع الانتفاضة على الرغم من محاولة الجيش نفي الصلة بين المواجهة فـي الأراضـي الفلسطينية وبين عمليات الانتحار. كما أن هناك اخفاقات عسكرية لا يجري الإعـلان عنها. ومقاومة شديدة في بعض المواقع وعمليات نوعية لاقتحـام مواقـع عـسكرية حصينة تجعل الجنود غير آمنين في مواقعهم. وفي تقرير صدر عن الجيش في شهر آذار الماضي يتضح أن 600 جندي احتياطي لم يمثلوا للخدمة في المناطق الفلسطينية بالإضافة إلى الذين يعلنون رفضهم العلني لتأدية الخدمة هناك. وقد وصل عدد هؤلاء حتى آخر شهر 7 حوالي 17 جندياً.

وقد قال اللواء يهودا سيغف رئيس قسم القوى البشرية في هيئـة الأركـان إن واحداً من كل ثلاثة جنود احتياط يستجيب لدعوة.(41) وهناك مشاكل عويصة لـدى جنود الاحتياط عدا المشكلات النفسية والخوف من المواجهة. ولاشـك أن انخفـاض الحافزية للخدمة في الجيش وخاصة في المناطق الفلسطينية سـيزداد مـع تواصـل المواجهات ومع وقوع المزيد من الخسائر في الصفوف الإسرائيلية.

وهكذا وعلى الرغم من سيطرة قادة الجيش على طريقة اتخاذ القرارات السياسية في إسرائيل إلا أنه لم تعد للجيش مكانته المعنوية السابقة لدى الجمهور الإسرائيلي، الذي وإن كان يدعم الجيش إلا أنه لا يثق بقدرته على توفير الحماية والأمن له.

الهوامش

1- دليل إسرائيل العام.
2- المصدر السابق .
3- هآرتس، 24./10/2000
4- يديعوت، 26./11/2000
5- يديعوت، 5/3/2001.
6- معاريف، 19./12/2000
7- معاريف، 10./1/2001
8- معاريف، 1./11/2000
9- معاريف، 27/11/2000.
10- معاريف، 10/1/2001.
11- هآرتس، 29./12/2000
12- يديعوت، 25./1/2001
13- معاريف، 16./2/2001
14- معاريف، 16./5/2001
15- هتسوفيه، 21/5/2001
16- هآرتس، 8./6/2001
17- هآرتس، 20./6/2001
18- معاريف، 10/6/2001.
19- معاريف، 11/6/2001.

25 - معاريف، 10/12/2000
26- معاريف، 3/4/2001.
27- هآرتس، 17/5/2001.
28- هآرتس، 16/10/2001.
29- هتسوفيه، 14/5/2001.
30- يديعوت، 7/11/2001.
31- يديعوت، 15/7/2001.
32- يديعوت، 11/7/2001.
33- هآرتس، 18/5/2001.
34- يديعوت، 12/1/2001.
35 - يديعوت، 3/5/2001.
36 - معاريف، 13/6/2001.
37 - هآرتس، 23/4/2001.
38 - المصدر السابق.
39 - يديعوت، 20/10/2000
40- ماعريف، 7/8/2001.
41- معاريف، 9/7/2001.

-20هآرتس،1/3/2001
-21هآرتس، 24/4/2001.
-22يديعوت، 1/7/2001.
-23هتسوفيه، 1/8/2001
-24هآرتس، 18/4/2001.

الفصل الثاني (2)

(ب) د وغرافيا و دیات

قبل أن ينتهي العام المنصرم بأيام كانت إسرائيل على موعد مع نفسها في مراجعـة هي الأولى من نوعها منذ قيامها لأجراء تقييم واختبار مدى قدرتها علـى مواجهـة

التحديات التي تواجهها سواء على الصعيد الخارجي أم على الصعيد الداخلي، حيث اجتمع لأول مرة هذا الحجم من القيادات والمفكرين والباحثين الإسرائيلي والزعامات التنفيذية في فندق "دان أكاديا" في هرتسيليا في مؤتمر استمر لعدة أيام لفحص ميزان المناعة والأمن القومي لدولة إسرائيل كما أطلق عليه منظموه.

المؤتمر الذي ضم نخبة رجال الدولة في كافة المجالات عقد للإجابة على السؤال الذي كان الهم الأكبر لإسرائيل منذ نشأتها وأعيد طرحه من قبل كل القيادات الإسرائيلية، وهو هل لدى إسرائيل من المناعة ما يكفي لمواجهة التحديات المحدقة.

وقد تفرع السؤال في ذلك المؤتمر إلى أسئلة احتاجت لإجابات مفصلة عن قدرة إسرائيل على مواجهة الصواريخ بعيدة المدى، والانتفاضة خاصة وأن المؤتمر عقد بعد أشهر ثلاث من بدايتها وكان من الواضح أنها مرشحة للاستمرار وكيف ستواجه إسرائيل هذا الوضع الجديد بالرغم من أن المبادرين لذلك اللقاء الكبير قد خططوا له قبل الانتفاضة بكثير وتساؤلات عن سياسة الردع والمفهوم الأمني الإسرائيلي والمشكلة الديموغرافية.

المؤتمر عقد بعيداً عن وسائل الإعلام مفهومة حيث تبلور إسرائيل استراتيجيتها وخططها للمستقبل بمنأى عن الإعلان وتتحول معظم النتائج والاستخلاصات إلى الجهات الأمنية، حيث طغى الحضور الأمني المكثف هناك، رئيس الأركان الجنرال شاؤول موفاز ومعه العديد من جنرالات الجيش وكبار رجالات الأمن وقادة الأجهزة الاستخبارية، شعبة الاستخبارات العسكرية "أمان" وجهاز الأمن العام "الشاباك" و"الموساد" هذا بالإضافة إلى شخصيات سياسية واقتصادية وإعلامية ورؤساء سابقين للوزراء ومفكرين.

المجتمع ومخزون القوة

لهذا فقد ظلت كل الحوارات والنقاشات والأوراق التي قدمت بعيدة عن المراقبين إلى أن بلور المنظمون الأفكار التي طرحت خلاله في وثيقة واحدة بعد ثلاثة أشهر من المؤتمر تضمنت توصيات كثيرة حول استراتيجية يهود الشتات كمخزون احتياط من

القوى البشرية والتعليم والأبحاث التكنولوجية والتأكيد على استراتيجية الردع وليست الجانب الدفاعي فقط، وغير ذلك من الأمور الأخرى وتم صياغة الوثيقة بكراس بعنوان "توازن المناعة والأمن الوطني- اتجاهات للسياسة".

التحدي الأبرز الذي ظهر للمؤتمرين كان التهديد الديموغرافي الذي بدأ يفرض نفسه بقوة خصوصاً في العقد الأخير حيث استقدمت إسرائيل مليون مهاجر من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وبالرغم من ذلك لم يساعد هذا الرقم الهائل في دولة صغيرة كهذه من إحداث تغيير في الميزان الديموغرافي لصالح الأغلبية اليهودية في الدولة إذ حافظ النمو الطبيعي لدى العرب خلال العقد الأخير على نسبته بشكل ثابت مقابل محاولات كسر التوازن وفي بعض الأحيان كانت سرعة التزايد السكاني تتقدم على الزيادة اليهودية بالنمو الطبيعي والهجرة معاً.

فالزيادة السكانية المقلقة للفلسطينيين في مقابل اليهود شغلت الحاضرين في المؤتمر وخصوصاً لدى الفلسطينيين في حدود الدولة وبدا ذلك واضحاً حيث أولت الوثيقة وزناً كبيراً للتهديد الديموغرافي الذي تواجهه إسرائيل اليهودية من جانب الفلسطينيين وجاء فيها أن الولادة في أوسط المسلمين في إسرائيل 4.6 للمرأة الواحدة وهذا ضعف التكاثر اليهودي في إسرائيل تقريباً 2.6 للمرأة الواحدة. اليوم واحدة من بين كل خمسة مواطنين في الدولة عربي مسلم وخلال عشرين سنة ستكون النسبة 3:1.(1)

هذه هي الأزمة الأكبر التي تواجه إسرائيل حيث التكاثر عند الفلسطينيين يفوق كثيراً التكاثر الطبيعي لدى اليهود هذا يعني أن المستقبل يزيد من تفاقمها ليس فقط يجمد الأمور على حالها بالرغم من سلبية الوضع الحالي الذي كان التعبير الأبرز لها في انتفاضة أكتوبر وعدم قبول الأقلية العربية للوضع الذي تفرضه الأغلبية اليهودية وعدم تجانسها مع الدولة وهو ما دفع الصحفي الإسرائيلي أمنون دنكنر لأن يكتب علناً "صحيح لدينا مشاكل عاجلة جسيمة، صحيح أننا نواجه تهديدات تكتيكية استراتيجية يومياً، صحيح أن العبوات الناسفة تنفجر في مدننا والصواريخ مواجهة

إلينا، لكن القنبلة الموقوتة الديموغرافية هي التهديد الاستراتيجي العظيم والحقيقي على الحلم الصهيوني".(2)

تكاثر الفلسطينيين والخصوصية العرقية

الزيادة السكانية للفلسطينيين في إسرائيل عامل تهديد جدي على تلك الدولة حيث أقيمت إسرائيل كدولة للشعب اليهودي بحيث تجسد خصوصية عرقية نظرياً وأيديولوجياً وتطبيقاً، والقانون الذي أجرى عليه التعديل وأُقر سنة 1985 يُعرف إسرائيل بأنها دولة للشعب اليهودي، واستمدت الدولة كل شعاراتها ورموزها لتعبير عن هوية الأغلبية اليهودية فيها كما خطط لها زعماؤها الأوائل وهذه الشعارات والرموز لا تعبر عن الهوية الثقافية والروحية للأقلية الفلسطينية التي لا تتماثل بقيمتها ورموزها مع رموز الأغلبية باعتبارها متأصلة في التراث الفكري والديني لليهود تبدو الثقافتين في تضاد حد التصادم إذ تضعف الدولة والجمهور اليهودي الثقافة والتراث العربيين والهوية الفلسطينية للسكان الفلسطينيين وفي أحيان كثيرة يقومان بقمعها.

هذا الأمر يجعل من قبول الأقلية الفلسطينية للواقع أمراً مؤقتاً، لكن التزايد السكاني يرافقه تغيير سيكولوجي في قبول المكانة الاجتماعية وخاصة أن الأساس الأيديولوجي للدولة وممارساتها تعزز التفكير لدى الأقلية الفلسطينية حيث تدفعها إلى ضائقة بشكل دائم لأنها كدولة أثينية تعرف مسئوليتها التاريخية بخدمة أهداف ومصالح اليهود أولاً لو كان على حساب الفلسطينيين من سكانها.

عند إقامة الدولة التي أريد لها تجميع يهود كل الشتات لم يبق في حدودها التي رسمتها أقدم الجنود بعد حرب 48 سوى156 ألف فلسطيني وكان الاعتقاد لدى بن غوريون أن هذا العدد القليل من الفلسطينيين سوف يذوب في بحر الأغلبية اليهودية التي ستشد أمتعتها للرحيل إلى الوطن التاريخي بعد صمت البنادق، وقد كان عددهم آنذاك11.5 مليون وكان نسبة بحجم 5% أو أكثر قليلاً لن يكون لها وجود يذكر وقد فرض مؤسسو الدولة بعض الإجراءات القمعية والتعسفية على من تبقى من أهل

البلاد لإجبارهم على الرحيل واللحاق بإخوانهم اللاجئين ومن سيبقى بعد ذلك نسبة هامشية يتم تدجينها وأسرلتها وستبقى الدولة دولة الأغلبية اليهودية التي لن تشكل فيها الأقلية العربية عنصر تهديد يكاد يذكر.

لم تأت الملايين التي حلم بها بن غوريون وقادة الدولة الأوائل واضطرت أجهزة المخابرات الإسرائيلية إلى إجبار بعضهم على الترحيل بوسائل شتى منها الإساءة لهم في الدول التي يعيشون فيها لتقوم بطردهم أو بإلقاء القنابل على أماكن تجمعهم وإقناعهم بأن أمن اليهود غير مضمون إلا في الدولة العتيدة.

في أوائل الستينات أدرك مؤسسو الدولة بأن الأمل يتضاءل في عودة يهود الشتات وبدأت الأقلية العربية تتزايد بشكل أثار اهتمام المؤسسات المختلفة في الدولة فبدأت حملات تشجيع اليهود على الإنجاب لمواجهة الأقلية الفلسطينية الآخذة بالازدياد وبشكل يبعث على القلق إذ بلغ عدد العرب في بداية الستينات أكثر من ربع مليون نسمة، في حين كانوا عند إقامة الدولة أقل من 160 ألف نسمة.

العمل الإجتماعي في مواجهة الخطر الديموغرافي

وجاء في تقرير إحصاء السكان عام 1961 أن المرأة المسلمة العادية تنجب بالمتوسط 8.2 طفلاً والمسيحية 7.2 طفل واليهودية 3.1 طفل حيث أن إخصاب المرأة العربية أكثر بـ 2.2مرة من المرأة اليهودية، وفي منتصف الستينات تحديداً عام 65 كان التكاثر الطبيعي للعرب يزيد بحوالي 3 أضعاف اليهودي ليصل إلى حوالي 45 ألف نسمة سنوياً مقابل 16.1 نسمة لدى اليهود لتبرز المسألة بوضوح تام جعل أحد الديموغرافيين اليهود يعلق متسائلاً بسخرية "لماذا على العرب أن يخرجوا إلى ميدان المعركة في الوقت الذي يستطيعون فيه التغلب علينا في الفراش؟" (3)

استحدثت الدولة دائرة في وزارة الرفاه والعمل الاجتماعي وظيفتها مواجهة الخطر الديموغرافي بتشجيع الإنجاب في الوسط اليهودي وحملات تنظيم الأسرة وتحديد النسل في الوسط العربي ولم تبخل الدولة في دعم نشاطات تلك الدائرة، إلا أن السياسة الإسرائيلية المنظمة في هذا الاتجاه لم تحقق أهدافها وبقي العرب محافظون

على نسبتهم المئوية بشكل نسبي على الرغم من استمرار تدفق الهجرة بالإضافة إلى النمو الطبيعي لليهود.

أثير نقاش واسع في أعقاب 86 حول ما أسموه "الميل الديمغرافي المقلق وسط الشعب اليهودي" التباطؤ في التكاثر حيث لم ترفع الجهود الكبيرة التي بذلتها المؤسسة من نسبة الإخصاب لدى المرأة اليهودية، وكذلك التباطؤ في الهجرة فقد شهدت سنوات السبعينات والثمانينات ركوداً نسبياً في هذا الاتجاه حتى عام 86 لـم يهـاجر سـوى 1.78 مليون يهودي.

إضافة إلى إشكالية كبرى لدى يهـود الـشتات الـذين يـشكلون الاحتيـاط الاستراتيجي للدولة وهي الزواج المختلط الذي يهدد ذوبان الجاليات اليهوديـة فـي الخارج خصوصاً الجالية الأكبر في الولايات المتحدة التي يبلغ عدادها حـسب آخـر الإحصائيات 5.6 مليون نسمة "أكبر من الجالية اليهودية في إسرائيل".

ظل الركود النسبي في التزايد الطبيعي ليهود الدولة مقابل الفلـسطينيين فيهـا ثابتاً تقريباً بالرغم من هبوطه لدى الجانبين فمع انخفاض النسب الأولى عن سـنوات الستينات والسبعينات إلا أن المرأة العربية ظلت محافظة على تفوقها نـسبة للمـرأة اليهودية ففي نهاية العقد الماضي كان الإخصاب وسط النساء اليهوديات يـصل إلـى 2.6 لكل امرأة بينما لدى المرأة العربية يصل إلى 6/4 مولود(4) وبذلك بلـغ عـدد الفلسطينيين في إسرائيل حوالي 1.2 مليون نسمة خلال نصف قرن هذا يعني زيـادة عن سنة 48 التي كان عدد العرب فيها فقط 156 ألف نسمة لتبلغ الزيادة أكثر قلـيلاً من 7 أضعاف وهو رقم مذهل بالنسبة لإسرائيل التي اسـتقدمت مهـاجرين خـلال الخمسين عاماً الماضية بلغ عددهم كما تفيد الإحصاءات الإسرائيلية2.8 مليون يهودي وإذا أضيف إليهم 650 ألف يهودي كانوا حين قيام الدولة ويبلغ عدد اليهـود حاليـاً حوالي 4.9 مليون فإن نسبة الزيادة الطبيعية 1.45 مليون تبلغ 28% أي تزيد قليلاً عن الربع مقابل أكثر من 7 أضعاف للعرب والمقارنة هنا كارثية بين اليهود والعرب.

كان من نتائج الزيادة الطبيعية البطيئة بالنسبة لليهود ارتفاع نسبة الأعمار في

المجتمع اليهودي فقد بلغ سنوات ما بين 97-95 من هم تحت سن (17 سـنة) 34% من سكان الدولة وتشمل الإحصائية العرب واليهود لكن النسبة بين اليهود لمن هم أقل من 17 سنة قد بلغت 32% وهذا انخفاض حد بالمقارنة مع السبعينات حيث كانـت نسبة من هم أقل من 17 سنة 39% هذا ما جعل بعض علماء الديموغرافيا يعتبـرون إسرائيل تسير نحو الشيخوخة وتتحول إلى دولة مسنة، ففي الانتخابـات الأخيـرة7 شباط الماضي بلغ عدد مواطني الدولة من أصحاب حق الاقتراع 4.5 مليون مواطن (5)، وضمن قانون الانتخابات الإسرائيلي فإن من تجاوز 18 سنة يحق له الاقتـراع في الانتخابات، ولهذا الرقم دلالاته التي يؤكدها علماء الديموغرافيا في دولة يبلغ عدد سكانها 6.3 مليون نسمة.

النسبة معكوسة عند الفلسطينيين حيث أن من هم أقل من 18 سنة أكثر عـدداً ممن تجاوز السن القانوني للانتخابات ففي انتخابات صيف 99 بلغ عدد الذين يملكون حق الاقتراع من العرب 524 ألف صوت أما من هم أقل من 18 سنة فقد بلـغ 599 ألف نسمة 53.5% أقل من 18 سنة أي أن الوسط الفلسطيني وسـط شـاب يملـك احتياطياً ديموغرافياً سيساهم في كسر التوازن بين اليهود والعرب.

إذا كان الوضع هكذا في إسرائيل فإنه أفضل بكثير بالنـسبة ليهـود الـشتات والاحتياط الاستراتيجي للدولة وتشير المعطيات أنه خلال 30 سنة سيقل عدد اليهـود في الشتات من 8.6 مليون إلى 4.4 مليون هذا ما جاء في التقرير الـسنوي لمركـز الكونجرس اليهودي العالمي، فالجالية اليهودية الأكبر في العالم في الولايات المتحـدة تعد 5.6 مليون وخلال عشر سنوات ستتحول إسرائيل إلى الجالية الأكبر لا بفـضل الهجرة من الولايات المتحدة بل بسبب تناقص الجالية اليهودية في الولايات المتحـدة أما في فرنسا فيبلغ عددها 521 ألف نسمة(6) بعد أن كانت 600 ألف حسب تقريـر مركز الكونجرس وليس هناك هجرة إلى إسرائيل، أما في روسيا فقد تبقى 400 ألف يهودي والرقم يشمل مستحقي قانون العودة من غير اليهود الـذين يـشكلون حـسب تقريرات الكونجرس 150 ألف نسمة وفي كندا 360 ألف نسمة وأوكرانيا 280 ألف

نسمة بما في ذلك مستحقي العودة من غير اليهود الذين يـشكلون 100 ألـف وفـي بريطانيا 280 ألف وقد تناقصت الجالية هناك ولم يهاجر إلى إسرائيل سوى 30 ألف يهودي خلال العقود السابقة قابلها هجرة معاكسة من إسرائيل بلغت نفس الرقم وفـي الأرجنتين 220 ألف يهودي.

الأمر المقلق بالنسبة للباحثين اليهود المتابعين ليهود العالم أن هناك مؤشـرات سوداوية تسير باتجاه ثابت يتآكل خلالها الاحتياط البشري دون قدرة على التأثير وهي أن التكاثر الطبيعي سلبي وفي كل الجاليات فعدد المواليد أقل من عدد الوفيات، ونسبة زواج اليهود من غير اليهود تصل إلى 50% بالمتوسط وفي مدن معينة في الولايات المتحدة وأوروبا تصل إلى 80% أما في فنلندا فقد بلغت 90%.(7)

هناك إشكالية حقيقية في نمو الشعب اليهودي في العالم وتتحدث أدبيات علـم الاجتماع التي تتناول هذه القضية عن "موت الشعب الصهيوني أي اختفاء الجماعات اليهودية أو أعداد كبيرة من أعضائها لعدة أسباب ذكرها البروفيسور روبرت بـاكي الخبير في الشؤون الإحصائية والسكانية في محاضرة ألقاها في تل أبيب عـام 87 إذ عزا أسباب موت الشعب اليهودي للأسباب التالية: (8)

-1قلة الإنجاب لدى العائلات اليهودية إذ تبلغ نسبة الولادة بين النساء اليهوديات 1.6 فقط في الألف.

-2كثرة وقوع الطلاق وتفسخ الأسرة اليهودية.

-3بلوغ عدد كبير من اليهود سن الشيخوخة من الأجيـال القديمـة ممـا زاد نـسبة الوفيات بين اليهود.

-4الزواج المختلط وقد كان يقتصر في الماضي فقط على الذكور أمـا الآن فـزواج الفتيات اليهوديات مرتفع.

البروفيسور سارجيو دالا فرغولا رئيس معهد اليهودية المعاصرة في الجامعة العبرية يقول أن الشعب اليهودي لم ينمو في الخمسة عقود الأخيرة حيث أضيف إليه

2 مليون وهي نسبة نمو متوسط بـ 0.3% والزيادة بالضبط 1.6 مليون وليس كمـا يقول فرغولا فالشعب اليهودي كان عند إقامة الدولة 11.5 مليون أمـا اليـوم فيبلـغ 13.1 والأرقام نفسها للبروفيسور فرغولا.

ما يزيد الأمر تعقيداً أن المؤشرات السلبية السابقة بالنسبة ليهود الشتات جعلت الجاليات اليهودية تتجه بشكل سريع نحو الشيخوخة وكيف سيكون الأمر بالنسبة لذلك الاحتياط عندما تكون إسرائيل وهي الدولة المسنة تعتبر دولة شابة بالنـسبة ليهـود العالم، إذ أن الجيل الأصغر لليهود في إسرائيل أكبر من يهود الخارج والأرقام التـي تؤكد ذلك أوردها البروفيسور فرغولا قبل عامين.(9)

قد لا يشكل التوازن الديموغرافي أي مشكلة في دولة في العالم خصوصاً فـي أوروبا والولايات المتحدة لكن إسرائيل التي أقيمت كدولة اثنية وتعرف نفسها بدولـة اليهود فإن التوازن الديموغرافي عنصر هام ليحافظ على هوية الدولة لهـذا ضـاقت إسرائيل قبل ذلك ببعض المهاجرين غير اليهود ضمن مهاجري جمهوريات الاتحـاد السوفيتي السابق إذ بلغت نسبة من هم غير اليهود بين المهاجرين في النصف الثاني لعام 96 حوالي 53% على لسان كبير في وزارة الداخلية فاحتج رئيس الكنيـست أن يكون بينهم هذه الكمية ممن غير اليهود وذلك في رسالة إلى رئيس الوكالة اليهوديـة آنذاك أبراهام بوزع قائلاً: "ألهذا قامت دولة اليهود؟ وقال إن هؤلاء الغرباء يشوشون نمط حياتنا وهناك من يستغل من بيننا ذلك كي يشوش هويتنا اليهودية فيما يجب حل مشاكل الحياة الزواج والموت (الدفن) لهؤلاء المهاجرين وكيف الحال بالفلـسطينيين الذين تتصادم هويتهم الثقافية مع هوية الدولة؟

دول الاتحاد السوفيتي السابق شكلت المخزون البشري الوحيد للهجـرة إلـى إسرائيل وقد استقدمت إسرائيل حوالي مليون منهم في السنوات العشر الماضية ولـم تساهم في جعل الميزان الديموغرافي يميل لصالح اليهود، ففي عام 89 بلغت نـسبة اليهود في إسرائيل 81.5% والعرب 18.5% وفي عـام 99 كانـت نـسبة اليهـود 79.4% ونسبة العرب 18.6، وقد بين أحد التحقيقات أنه تبقـى فـي دول رابطـة

الشعوب أقل من 370 ألف ومعظمهم من الشيوخ (10) وهـذا يعنـي أن منـسوب الهجرة سيشهد تراجعاً حاداً خلال الأعوام القادمة وقد بدأ بالنضوب مع بدايـة العقـد الحالي ووفقاً لتقديرات مسؤول الهجرة في الوكالة اليهودية أوري جوردون لن يزيـد عدد المهاجرين في الأعوام القادمة عن 40-30 ألف يهودي (11)، وهنا تبدو الأزمة أكثر وضوحاً فمعدل الهجرة للسنوات العشر السابقة كان حوالي 100 ألف سنوياً ولم يكسر التوازن لصالح اليهود فكيف سيكون الحال بأقل من ذلك؟

أمام هذا الوضع تبدو إسرائيل أمام مأزق جدي خصوصاً أن الأمر يسير بشكل طبيعي من الصعب أن ينجح التدخل لمحاولة تغييره أو تقليل أخطاره هذا مـا جعـل الحديث يأخذ طابعاً هستيرياً عن الأزمة الديموغرافية القادمة لا محال بناءً على معظم الدراسات في هذا الموضوع وحيث تشير إلى أن الفلسطينيين فـي إسـرائيل سـيبلغ تعدادهم حوالي 40% من سكان الدولة خلال عشرين عاماً هذا يعني أ، تلك الأقليـة (الكبيرة) ستبدأ بالتأثير في شكل الدولة وهويتها ورموزها وهو التهديد الحقيقي لدولة اثنية قامت لتجميع يهود الشتات في الهيكل الثالث والتي يصعب بقاءها في ظل تحـد ديموغرافي يسير بالاتجاه المعاكس وقد وضعت بعض السيناريوهات القادمة في حال استمر الوضع في نفس الاتجاه الحالي، وهـذه الـسيناريوهات وضـعتها مجموعـة صندوق ايبرت(12) كنتاج عمل استغرق عدة شهور من مجموعـة أشـخاص مـن المسؤولين والأكاديميين من يهود وعرب ممن اجتمعوا بمبادرة من د0 يئيـر هيـر شفيلر من المبادرين إلى مسيرة أوسلو ويسرائيل هرئيل من قادة حركـة الاسـتيطان وبتمويل من صندوق فريدريك أيبرت الألماني، وهذه السيناريوهات هي:

الأول: اعتبر متفائلاً وضعه الخبير الاقتصادي دافيد بـردوت حيـث اعتبـر انتصار العولمة سُيحدث اختفاءً تدريجياً للأطر العالمية لن تكون فيه أهميـة حاسـمة لمسألة العلاقات الديموغرافية بين الجامعات المختلفة في هذه الدولة أو تلك ذلـك لأن الدول نفسها ستكون كيانات عديمة الشكل أكثر مما هي عليه اليوم بكثيـر. (تناسـى واضع التقرير أن زيادة الوعي القومي لدى الأقلية العربية تنامي في العقـد الأخيـر

وهو عقد المعلومات والتكنولوجيا وتسارع العولمة بهذا الشكل) والمعطيات الأخيـرة لنشاط الأقلية العربية وهبة أكتوبر تسير باتجاه معاكس لما يعتقده الخبيـر واعتقـاد بردوت ممكن فقط في الدول الديمقراطية لكن يستحيل ذلك في دولة اثنية كإسرائيل .

السيناريو الثاني: يتحدث عن انشطار دولة إسـرائيل إلـى اتحـاد فيـدرالي لجماعات عرقية ودينية مختلفة تقيم سلطة مركزية هزيلة فقط بغرض تلقي الخـدمات وفي هذا الإطار يتوقع حكماً ذاتياً عربياً داخل نطاق الخط الأخضر.

السيناريو الثالث: الذي دعاه واضعوه "بسفينة العبيد" فقد تحدث عـن صـعود حزب يميني صهيوني للسلطة في إسرائيل لا يسمح بضياع الرموز اليهودية وبالتالي يسحب الحقوق من العرب ومن باقي غير اليهود ويقمعهم ويحول إسرائيل إلى دولـة بشعة على نمط جنوب أفريقيا في عهد التفرقة العنصرية الابرتهايد.

السيناريو الرابع: وضعه يسرائيل هرئيل ويعتقـد الـصحفي آمنـون دنكنـر الـذي استعرض السيناريوهات انه أكثر واقعية من السيناريوهات السابقة حيث يصل العرب إلى 40% وتلغي بعض مناسبات الدولة ويعطي العرب بعض الحقـوق والمناصـب الشكلية في السلطة مثل رئاسة الدولة ورئاسة الكنيست وبعدها تستمر الإشكاليات بين اليهود والعرب إذ يقوم بعض المتطرفين اليهود بتفجيـرات تتـدخل عنـدها الدولـة الفلسطينية المجاورة بقواتها القريبة من المناطق الإسرائيلية ويكون الحل دول ثنائيـة على كل فلسطين التاريخية ذات أقلية يهودية.

ويتساءل الكاتب ما الذي يمكن عمله؟ ثمة الكثير من الأمور التي يمكن التفكير فيها أولاً يجب الاعتراف بوجود المشكلة أو بشكل أدق الخطر الفظيع أمـا التجاهـل وغض النظر فلا يحل لنا مشكلة بل سيؤديان إلى اليقظة المتأخرة على نمط الفـزع، ينبغي الشروع في العمل والتخطيط لكيفية الاستعداد لهذا المستقبل غير اللطيف.

هذا الخطر الفظيع الذي أشار إليه دنكنر فرض نفسه على الحضور في مؤتمر هرتسيليا قبل أربعة أشهر باعتبار أن إسرائيل تمتلك من المناعة ما يكفـي لمواجهـة كافة التحديات الأمنية لكن أمام التحدي الديموغرافي فليس من الواضـح أن الدولـة

منيعة بما يكفي لضمان بقائها بطابعها اليهودي والحفاظ على هويتها ورموزها.

ولكن هل وقف نخبة رجال الدولة عاجزين وهم ينظرون إلى المستقبل الـذي تسير إليه دولتهم؟؟ بالتأكيد يصعب تصور ذلك، فقد قدمت بعض الاقتراحات لمواجهة هذا التحدي الخطير في محاولة للخروج منها فقد تضمنت الوثيقـة(13) (خلاصـات المؤتمر) التي قدمت لرئيس الدولة في مراسيم احتفالية نهاية آذار بعض التوصـيات ذات المغزى للعلاج مثل سياسة تشجيع العائلات ذات الثلاثة- أربعة أولاد مع إلغـاء مخصصات التأمين للعائلات كثيرة الأولاد (بشكل غير مباشر العائلات العربية التـي يزيد أولادها على أربعة)، واقتراحات بتوزيع السكان اليهود في مناطق ذات إشكالية من الناحية الديموغرافية خصوصاً في الجليل (وهو مخطط قديم أحياه شارون عندما كان وزيراً للبنى التحتية في حكومة نتنياهو ويرمي المخطط إلى إسكان 2.4 مليـون يهودي حتى عام 2020 في الجليل لمنع نشوء أغلبية عربية في الجليـل وسـيواجه المشروع مشكلة لأنه يعتمد أولاً على العنصر البشري اليهـودي الـذي هـو نفـسه المشكلة. من حيث النمو والتزايد والتواجد، وتوصى بكسر التوازن في سهل يزراعيل والنقب وذلك لمنع نشوء تواصل أغلبية عربية تقطع أوصال إسرائيل.

توصي الوثيقة في أحد اقتراحاتها بتبادل تجمعات سكانية بين إسرائيل والدولة الفلسطينية المستقبلية التي لا تعارض الوثيقة قيامها ودمـج التجمعـات الاسـتيطانية اليهودية المجاورة للخط الأخضر من الجانب الشرقي في حدود إسرائيل مقابل نقـل تجمعات سكانية عربية (أجزاء من المثلث وشرقي القدس والتجمعات البدوية في النقب الشمالي للسيادة الفلسطينية) وليس من المعقول أن تقبل الدولة الفلسطينية بهذا الاقتراح وتجرد الشعب الفلسطيني من ورقة استراتيجية هامة.

كما أوصت الوثيقة بدراسة منح إمكانية الاختيار للفلسطينيين في إسرائيل بين الحصول على المواطنة الكاملة في دولة إسرائيل أو المواطنة الكاملـة فـي الدولـة الفلسطينية مع حقوق الإقامة الدائمة في البلاد من اجل موازنة وزن الصوت العربـي الانتخابي (وسبق للعديد من القيادات العربية أن أبدت رأيها بهذا الاقتراح الذي طرح

سابقاً بشكل غير رسمي عن عدم استعدادها للتخلي عن وطنها التاريخي وخاصة أنها تنظر لمستقبل بتفاؤل يؤكد تحسين وضعها فلماذا، وتحرم نفسها طواعية منة ممارسة حقوق الكاملة فوق أرضها خاصة أنها تعتبر أن ممارسة حقها هي وسـيلة نـضالية لاستعادة مكانتها وسيادتها وهويتها التي سعت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لإلغائها دون جدوى.

وتوصي الوثيقة أيضاً بالسماح للمواطنين الإسرائيليين الـذين يعيـشون فـي الخارج بالمشاركة في الانتخابات دون الاضطرابات للقدوم لإسرائيل لهذا الغـرض. ويحمل هذا الاقتراح مدلولات سلبية بالنسبة للدولة، فقد يشجع بعض اليهود المقيمـين في إسرائيل على الهجرة العكسية طالما أن وجوده خارج الدولة يضمن له ممارسـة كامل حقوقه التي أقرها القانون الإسرائيلي وبالتالي قد تكون النتائج عكسية.

وأحد أكثر التوصيات تطرفاً لكنه لا يختلف عن روح الدولة وسلوكها عامي 48 و67 إذ يقترح معدو الوثيقة فكرة الترانسفير لكن من دون ذكرها صراحة "ستكون هنـاك حاجة لإيجاد مخرج من مكان غير إسرائيل لتوطين السكان الفلسطينيين في المنـاطق إذا لم يكبحوا من وتيرة تكاثرهم أي طرد معظم الفلـسطينيين مـن غـزة والـضفة وإسرائيل إلى شرق الأردن (ربما لا تشير الوثيقة إليها بصراحة) كما توصي الأسرة الدولية باشتراط مساعدتها للسلطة بتبني سياسة تقليص الولادات كما حدث مع مصر، وتشير الوثيقة عن تخوف من عودة اللاجئين إلى الدولـة الفلـسطينية وأكثـر إلـى إسرائيل.

الحديث عن نقل الفلسطينيين في إسرائيل إلى الدولة الفلسطينية يعتقد الباحثون الإسرائيليون المكلفون بالبحث عن حل للأزمة الديموغرافية أنه يجب أن يتم بالإكراه، يعتقد عوزي أراد مستشار رئيس الوزراء نتنياهو سابقاً أنه في الدولـة الديمقراطيـة للأغلبية الحرية في رسم حدود الدولة مثلما من حق الأغلبية أن تقرر حول الانسحاب من مناطق يهودا والسامرة كذلك يوجد لديها حق في تقرير التنازل عن السيادة فـي تجمعات سكانية عربية وبذلك تتم الأمور من خلال وسائل ديمقراطية سلمية وربمـا

حتى من خلال أغلبية بسيطة مع تعويض السكان ذوي العلاقة لـن يكـون مـشكلة وبالإمكان الاقتراح على أولئك الذين يريدون البقاء كموطنين في إسرائيل أن ينتقلـوا إلى منطقة أخرى في الدولة لكنهم لا يستطيعون أن يفرضوا على الدولة البقاء في أم الفحم تحت السيادة الإسرائيلية.

فهل ستلجأ إسرائيل إلى الترانسفير مرة ثالثة إذا كان الأمر كذلك، خاصة وأن باقي الحلول من غير المرجح أنها ستضع حداً للمشكلة كما ذكرنا فإنها لا تبدو واقعية أو قابلة للتطبيق. خصوصاً أن بعضها سيعطي نتائج عكسية ستزيد من تفاقم الأزمة.

لكن جميع التوصيات ومحاولات الحل التي تبدو عاجزة عن تخليص الدولة من التحدي الأكبر تشير إلى حالة من التخبط اليائس لدى المفكرين والساسة اليهود فـي إسرائيل التي لن تكون أمامها إلا خيارين الأول العمل بشكل أيدلوجي للحفـاظ علـى الهيكل الثالث من خلال الترحيل الجماعي للفلسطينيين بالرغم من صعوباته والعقبات لتي تحول سواء موقف الفلسطينيين أنفسهم استعدادهم للدفاع عن وطـنهم التـاريخي وخاصة أن الترحيل أصبح معادل للموت في العقل الجمعي الفلسطيني الـذي هُجّـر مرتين ونشك في استسلامه للمرة الثالثة أو قبول العالم في السنوات القادمـة لعمليـة الترانسفير، وهذا الخيار فرصة ليست كبيرة لكنه وارد بحيث أن تلك الدولة لم تغادر عقل شمشون الذي هدم المعبد على نفسه وعلى أعدائه وقد أعطت غولدا مئير رئيسة وزراء إسرائيل في حرب 73 أوامرها للأجهزة العسكرية بتجهيز السلاح النـووي حينما وردتها تقارير تفيد تقدم القوات العربية في جبهات القتال فهل سـتقف الدولـة عاجزة أمام القنبلة الديموغرافية التي يعتبرها الباحثون الأزمة الخطيـرة والتهديـد الأعظم.

أما الخيار الثاني فهو عدم قدرة إسرائيل على مواجهـة الأزمـة واسـتمرار الأمور كما هي عليه تسير بتطور طبيعي تزداد قوة العرب في الكنيست الإسـرائيلي بشكل يضمن قدرتهم على فرض رؤيتهم وتنتهي بحكم ذاتي للعرب وتتطور الأمـور إلى دولة ثنائية القومية في كل فلسطين حسب الدراسة التي قدمها الدكتور أسعد غانم

معتبراً أن الحل الوحيد الممكن في فلسطين هو دولة ثنائية القومية (14) مـستعرضاً عديد من الأسباب التي تؤكد رؤيته ولسنا في مجال استعرضها الآن.

يبدو من غير العسير متابعة التطور الديموغرافي في دولة إسرائيل لكن مـن الصعب التنبؤ بالمستقبل السياسي والإداري في هذه المنطقة، لكن المستقبل يحمل من التغيير ما هو جدير بالانتظار وأن هناك ما هو كامن تحت الرماد فلننتظر ونرى.

الهوامش

1

-صحيفة هآرتس. 25/3/2001، مقال بقلم يئير شيلع.

-2صحيفة معاريف.10/4/2001

-3صحيفة هآرتس.9/11/1967

-4هآرتس.30/9/1997.

5-صحيفة القدس. 7/2/2001.
6-عبد الوهاب المسيري. الحياة الجديدة، 15/4/2001.
7-التقرير السنوي لمركز الكونجرس اليهودي العالمي. هآرتس، 16/9/1998.
8-عبد الوهاب المسيري. الانتفاضة والأزمة الصهيونية، ص 50-49.
9-هآرتس. 20/4/1999.
10-هآرتس 11/8/1997.
11-هآرتس .29/12/1996.
12-معاريف. 10/4/2001، سبق ذكره.
13-هآرتس. 25/3/2001، سبق ذكره.
14-أسعد غانم. دراسة بعنوان "الحل الوحيد الممكن في فلسطين دولة ثنائية القومية"، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد41.

الخُلاصة

عمدت هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على تطور الإسرائيلي وكيف أفرز هـذا التطور حتى الآن شخصية وهوية وإن تلاقت مع الصهيونية في يهوديتهـا، إلا أنهـا اختلفت عنها في نواح جوهرية كثيرة جعلتها تصبح مستقلة عنها في بعض الأحيـان، هذه الشخصية جاءت نتاج عوامل كثيرة من أهمها الصراع العربي الإسرائيلي، وفشل الأيديولوجية في حل أزمات المجتمع، وأخيراً وليس أخراً نجاح الدولة اليهودية فـي فرض نفسها وتعزيز وجودها وبالتالي تأثرها بالمتغيرات العالمية التي ألقت بظلالهـا على باقي الدول. وتتجلى هذه الشخصية لدى الأجيال الجديدة التي أفرزتهـا الدولـة وتنتمي غليها بالميلاد وبالتالي تتعامل معها "كأمة مثل باقي الأمم"، وليس كمشروع أو فكرة مثالية. ولا يعني هذا أن دولة إسرائيل قد تخلت عن صهيونتها كفكرة "يهوديـة" خالصة ومشروع داخلها او خارجها وبالتالي علاقتها بباقي العرب واعتبار الكثيـرين فيها صراعها مع العرب "صراع وجود لا صراع حدود" قد أدى إلى تمـسك الدولـة وقطاع كبير من الشعب بالصهيونية "وأساطيرها" حول ماضـي وحاضـر الـشعب اليهودي من أجل حماية شرعية وجودها كما أدى إلى عدم تخليهـا عـن طبيعتهـا المعسكرة التي تحول دون أن تجعلها "أمة كبـاقي الأمـم". وبـين هـذين التيـارين المتناقضين، يتأرجح المجتمع الإسرائيلي الذي لم تكتمل هويته بعد وسوف يحـسمها إلى حد كبير التوصل إلى تسوية نهائية للصراع العربي الإسـرائيلي وطبيعـة هـذه

التسوية.

الإسرائيلي الذي لم تكتمل هويته بعد وسوف يحسمها إلى حد كبير التوصل إلى تسوية نهائية للصراع العربي الإسرائيلي وطبيعة هذه التسوية.

وهكذا يتضح لنا أن الاستيطان والاستيلاء على الأرض منذ البدايات الأولـى لهجمة الصهيونية واكبتها حركة أدبية وفكرية نشطة تدعو لامتلاك الأرض محاولـة تزوير التاريخ بأن هذه الأرض بدون سكان.وأن الصهاينة الرواد هم الذين عمروهـا بعد أن كانت مستنقعات وصحاري مليئة بالحشرات والأمراض. وما رواية شـموئيل عجنون " بالأمس الأول" إلا صورة واضحة للصهيونية الأدبية المبكرة.

الاستيطان هذا وبالمفهوم الصهيوني لا حدود له، فهو قديم جديد ومتجدد تحكمه عوامل القوة واستغلال الظروف العالمية بما في ذلك الاتكاء على حليف قوي يمكـن أيضاً استبداله في الوقت المناسب. وفي هذا المجال ها هي الصهيونية تعمل كل يـوم على تهيئة الظروف الملائمة لابتلاع المزيد من الأرض عن طريق العدوان المتكرر هنا وهناك وبمساندة الإمبريالية الأمريكية المعادية للأقطار العربية تمشياً مع السياسة الثابتة التي تقوم على فرض الأمر الواقع. وقت شكلت هذه الحملة الاسـتيطانية ذروة خطيرة لهذه السياسة التوسعية العدوانية دون أدنى اعتبار للمواثيق الدولية أو قرارات الأمم المتحدة التي تدين سياسة ضم الأراضي بالقوة. لتمرير سياسـتها الاسـتيطانية ولخاق الجيل الإسرائيلي المشوه فكرياً بزرع الأفكار السامة والهدامة في عقله علـى أساس أن هذه الأرض للإسرائيليين فقط. ومن عليها من سكان من غي الإسـرائيليين غرباء وبقايا مستعمر قديم.بل تطرقت الصهيونية الأدبية للشخصية العربيـة مبـرزة إياها في أدنى مراحل الانحطاط البشري الجسماني والسلوكي. وكان العرب من بقايا الحلقات المفقودة في كائنات علم التطور.فالعربي جاهل، سارق، جبان،سيىء، يـشبه الخنزير في تناوله للطعام، دموي وقاتل، وغريب الملامح شعره أخضر وأشعب يحب القتل والنساء ويغتصب الأطفال.ورجل هذه صفاته الأجدر به أن يموت. هذه المفاهيم تزرعها الصهيونية في نفوس الأطفال كل يوم، وتحقن بها أفكارهم وعقولهم. وتتشكل

منهم بلدوزر الفعل العدواني القادم ضد العرب، بل وضد أنفسهم أيضاً.

الخلاصة

واضح أن هناك ارتباكاً في الرؤية الأمنية الإسرائيلية للوضع على الجبهة الفلسطينية. ومع أن هناك اتفاقاً على محاربة السلطة الفلسطينية والاستمرار في العدوان على الشعب والأرض الفلسطينية. إلا أن لا أحد في إسرائيل يستطيع التنبوء متى يمكن أن تنتهي المواجهة. والقناعة الإسرائيلية الراسخة الآن هي أنه لا يوجد حل عسكري للصراع وأن كافة أشكال الضغوط والممارسات الإجرامية الإسرائيلية لا يمكنها أن تخلق لدى الفلسطينيين من يخضع ويتنازل تحت الضغط.

الجيش الإسرائيلي يحقق نجاحات في عمليات تصفية المطلوبين وفي أعمال هدم البيوت وتجريف الأراضي الزراعية واقتحام المدن والقرى والمخيمات ومواصلة القصف والحصار والعزل والفصل، ولكنه لم يستطع أن يرفع من الروح المعنوية للإسرائيليين الذين يعانون من ضائقة لا تقل عن ضائقة الفلسطينيين بل هي أكبر نسبياً بالنظر إلى أن الفلسطينيين تعودوا احتمال المعاناة، بينما الإسرائيليون لا يمكنهم التفكير في وضع كما يسميه شارون "حالة طوارئ أمنية واقتصادية".

ولم تستطع إجراءات الجيش وكل أدواته ومعداته الخفيفة والثقيلة أن تمنح الإسرائيليين الأمن الذي يعتبر البقرة المقدسة ليهود إسرائيل.

هذا بالطبع عدا عن الآثار النفسية التي تترتب على الأفعال العدوانية على جنود الجيش أنفسهم. فهناك دلائل على ازدياد حالات الانتحار في الجيش بعد اندلاع الانتفاضة على الرغم من محاولة الجيش نفي الصلة بين المواجهة في الأراضي الفلسطينية وبين عمليات الانتحار. كما أن هناك اخفاقات عسكرية لا يجري الإعلان عنها. ومقاومة شديدة في بعض المواقع وعمليات نوعية لاقتحام مواقع عسكرية حصينة تجعل الجنود غير آمنين في مواقعهم. وفي تقرير صدر عن الجيش في شهر آذار الماضي يتضح أن 600 جندي احتياطي لم يمتثلوا للخدمة في المناطق الفلسطينية بالإضافة إلى الذين يعلنون رفضهم العلني لتأدية الخدمة هناك. وقد وصل عدد هؤلاء

حتى آخر شهر 7 حوالي 17 جندياً.

وقد قال اللواء يهودا سيغف رئيس قسم القوى البشرية في هيئـة الأركـان إن واحداً من كل ثلاثة جنود احتياط يستجيب لدعوة.(41) وهناك مشاكل عويصة لـدى جنود الاحتياط عدا المشكلات النفسية والخوف من المواجهة. ولاشـك أن انخفـاض الحافزية للخدمة في الجيش وخاصة في المناطق الفلسطينية سـيزداد مـع تواصـل المواجهات ومع وقوع المزيد من الخسائر في الصفوف الإسرائيلية.

وهكذا وعلى الرغم من سيطرة قادة الجيش على طريقة اتخاذ القرارات السياسية في إسرائيل إلا أنه لم تعد للجيش مكانته المعنوية السابقة لدى الجمهور الإسرائيلي، الذي وإن كان يدعم الجيش إلا أنه لا يثق بقدرته على توفير الحماية والأمن له.

الـملاحـ ـ ـ ـ ـق

Http://Www
Http://Www
http://www/
http://www/
Standard
Standard
berschrift 1
berschrift 1
berschrift 2
berschrift 2
berschrift 3
berschrift 3
berschrift 4
berschrift 4

berschrift 5
berschrift 5
berschrift 6
berschrift 6
berschrift 7
berschrift 7
Absatz-Standardschriftart
Absatz-Standardschriftart
Normale Tabelle
Normale Tabelle
Keine Liste
Keine Liste
Textkörper
Textkörper
Textkörper 2
Textkörper 2
Hyperlink
Hyperlink
Textkörper 3
Textkörper 3
Textkörper-Einzug
Textkörper-Einzug
Blocktext
Blocktext
'لمركز
المركز الاهلي للكمبيوتر
'لاهلي□Dلكمبيوتر□
'لمركز
المركز الاهلي للكمبيوتر
'لاهلي□Dلكمبيوتر□
Eد%براهيم□Eحمد□'لمجايدة□

Eد%براهيم□Eحمد□'لمجايدة□

Eد%براهيم□Eحمد□'لمجايدة□

mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
mohamed
Unknownÿ
Times New Roman
Times New Roman
Symbol
Symbol
PT Bold Heading
PT Bold Heading
Times New Roman
Times New Roman
DecoType Naskh
DecoType Naskh
Times New Roman
Times New Roman
Simplified Arabic
Simplified Arabic
Arabic Transparent
Arabic Transparent
Tahoma
Tahoma
Traditional Arabic
Traditional Arabic
Monotype Koufi

Monotype Koufi
Times New Roman
Times New Roman
Fهنا وهناك و "أفشالوم" ينظر إليها مشدوها قالت في صوت خافت: أشعر أنه هنا
FGنـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـــا□Hهنـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـــاك□#" □Hفـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـــشالوماً
Jنظر□%ليها□Eشدوها□Bالت□Aي□5وت□.افتغ #شعر□#نه□Gنا□
¬م ëں
mohamed
Normal
mohamed
Microsoft Word 10.0
_PID_HLINKS
http://www/
http://www/
Root Entry
1Table
1Table
WordDocument
WordDocument
SummaryInformation
SummaryInformation
DocumentSummaryInformation
DocumentSummaryInformation
CompObj
CompObj
Microsoft Word-Dokument
MSWordDoc
Word.Document.8